أبجدية الموت والثورة

أحمد عنتر مصطفى

(أ)

.. التحياتُ لله..؛

والموتُ للآدميِّ الذي حين يركلهُ الجندُ

لا يُخْفِضُ الرأسَ؛

يصهلُ..

كالمهرةِ الجامحةْ..

والصلاةُ السلامُ على جثثِ الشهداءِ

التي تتحللُ في باطنِ الأرضِ..؛

تصبحُ نفطاً..؛

إذا بيعَ تغدو دراهمَ..؛

تُنــــثرُ فوق العروس وفي حفــلات

الختانْ..

وأشهدُ أن لا إله سوى الخبزِ..؛

يزهدُه الأغنياءُ..؛

يقيمُ له الفقراءُ طقوسَ العرقْ..

يُقيْمون به.. وعليه..؛

يبيعون أيامَهم باستدارتهِ القمريةِ..؛

حين يجيءُ الغسقْ

يدخلون كهوف القناعةِ والحلمِ؛

تخبو المصابيحُ.. تلهثُ..؛

تنفث من رئتيْها الدخانْ..

يصبغُ الحائطَ المتهالكَ بالحلكةِ الطافحهْ..

يرتمون على سُرُرٍ من جريدٍ..؛

وسائدُها من أرقْ..

يغلبُ القهرُ بالنوم أعناقَهم..

يشحذُ الموتُ سكينَهُ الذابحهْ..

* * *

(ب)

بامتدادِ الخرافةِ والحزنِ ينحدرُ النهرُ..

كنا على شاطئيْه عرايا..

صِبْيَةً نتأرجحُ في أَفْرُعِ الشجرِ المتشابكِ..؛

نسبحُ..؛

نَعْرِضُ أعضاءنا حين تُقْدِمُ سيدةٌ أو فتاةٌ؛

ونضحكُ..؛

نلمحُ في مقلتيْها انكساراً؛ وفي الوجه حمرةَ

خدّينِ.. [.. لم ندرك السرَّ.!!.]..

كان الصبايا..

يَرُحْنَ.. يجئن.. تجففنا الشمسُ..؛

والظلُ يمشطُ خصلاتنا..؛

والمياهُ مرايا...

[.. مرَّةً جرفتنا الجسارةْ..

فاستبقنا مع الموج والريح..

نُبدي فنونَ المهارهْ..

كان يوسفُ فينا..؛

ولم يكُ عند المتاعْ..

وأحزانُنا أربعةْ..

.. حين عدنا الى الشاطئ المتجعّد نبكي..

وكنا ثلاثةْ..

لم نعدْ بالثيابِ الى أمه الأرملةْ..

وانتظرنا الظلامَ لندخلَ غرفتنا خِلْسةً..؛
ونشدَّ علينا الغِطاءْ
ندَّعي النومَ بالأعينِ المقفلهْ..
كانت الشمسُ في ذلك اليومِ يلهثُ
فيها الشعاعْ..
ويسقط عند الأصيلِ على حافةِ النهرِ...
.. كانت دما..
والمساءُ..
يحلُّ على الشطِ حزناً..
يحدِّقُ في كوْمةٍ من ثيابْ..
يمرُ عليها تِباعاً..؛
يحكُّ بها أنفَهُ المتأففَ
بعضُ الكلابْ..]

....

....

أيها النهرُ.. يا جثةَ الزمنِ المترقرقِ
كيف انطوتْ فيك هذي البكارهْ؟
ما الذي ذوَّبَ الآنَ فيكَ المرارهْ؛
يجتبيك المماليكُ عصراً؛
ودهراً يَجزُّ وريدَكَ سيفُ الغزاةِ..؛
ونلقى بأفلاذ أكبادنا الناهداتِ
العرائسِ فيكَ هدايا..
نحن مِتنا على شاطئيْك..؛
وكنا دموعَ القرابينِ..؛
لم نَجْنِ منكَ سوى الداءِ؛ والمرضِ
المتوطِّنِ.. كنّا حجارهْ..
لمن يبتنون القصورَ على ضفتيكَ..؛
وكنا ضحايا..
كيف يمضي الزمانُ..
وتبزغُ فينا الحضارهْ
والروحُ في الآدميِّ
تناثر فيها الإباءُ
شظايا؟

★ ★ ★

(ج)

جامعو الصدقاتِ القليلهْ..
حاصروني صباحاً..
فأخرجتُ جيبي لهم ضاحكا..
حاصروني بإلحاحهم.. والعيونْ
(آهِ.. تلك العيونِ التي مدَّ في قاعها
الحزنُ ظلاً... وأهدابها عنكبوتْ..)
كان شيءٌ يموتْ..
والوطنُ المترنحُ في حلقاتِ الجنونْ..
فاقدٌ نخواتِ الرجولهْ
لا يرى كيف تُقعِي على الأرضِ أشلاؤه
تملأ الطرقاتْ..
صياحاً عن الشفراتِ؛ وعن صور اللاعبين؛
والسبعِ آياتِ...؛
والمصحف المتداولِ في العرباتْ..
والوطنُ المتأرجحُ في خصلاتِ المنونْ
ليس يحضن كالطيرِ أفراخَهُ...
ليس يرعى الطفوله!.
جامعو الصدقاتِ القليلةْ..
حاصروني بإلحاحهم.. والجفونْ..
(آهِ..
تلك الجفونِ التي تتدلى غداً وابلاً
شائكاً..)
صحتُ:
يا وطني..
كم تكونُ المسافةُ بين الجريمةِ والفقرِ؟؟
[ضاع الصدى..
صار دَوامةً تجذبتني الى قاع تلك العيونْ..
حيث أبصرتُ فيها قتيلاً وقاتلْ..
ولصاً تعضُّ على معصميه السلاسلْ..
وشيئاً..؛
أظنُ هو الوطنُ المستكينُ..
تخبط في دمه هالكاً!!]

....

....

....

جامعو الصدقاتِ القليلهْ

حاصروني بإلحاحهم في الصباحِ ..؛

تدفّق سيلُ الدعاءْ ..

تعثّرتُ في الدعواتِ الطويلهْ

حدثوني عن الله ..؛

عن جنةِ الأتقياءْ ..

صحتُ:

يا أيها البسطاءْ ..

ضيّعتكم دروبُ المنى المستحيلةْ

فالجنةُ الآن في الأرضِ ..

للأغنياءْ ..

ومن يدمنون الرذيلةْ ..

وغداً ..

في السماءْ ..

سوف يدخلها القادرون

على رشوةِ الوزراءْ

ومن يملكون البطاقاتِ والتوصياتِ

من الطبقاتِ النبيلهْ!!!

(د)

دائماً تُطلقين الأناشيدَ خلفي ؛

والزهورَ أمامي ؛

تُطوِّقُ صورتي الشاحبهْ ..

تذكرينَ .. وكنتُ أدبُّ على أرضك اللاهبةْ ..

لم تمدّي يديْكِ الى جبهتي

تمسحين التعبْ ..

تذكرينَ .. وأنت بلادي

تمدّين فوقي هجيرا

وتحتي سعيرا

وحولي يحلّق حتفي ..

صِرتُ في كفِّ أمي المسنةِ تذكرةً ..

تتخطى بها عقبات الزمانْ ..

تصرفُ - لو أظهرت جُرحَها المختفي بينها -

السلعَ الغائبهْ ..

لحظةً ..

تكرمين بها جسدي ..

ثم تنفلتين الى غابة اللهوِ والنسيانْ

يسخرُ منها الموظفُ حيناً ..

وحيناً يُشيحُ لها بعيونٍ

تفحُ اللهبْ!!

....

....

كان فرحي بلاداً من الحلمِ شاسعةً ؛

وطوتها خيولُ التوهمِ ؛

أيتها الحربُ أنتِ خلقتِ الأماني ..

أنتِ أنجبتِ لي موسماً من خيالٍ خصيبٍ

روته الأغاني ..

إنهم يجتنون ثمارَ الدمِ المتخثرِ في أرضِ سيناءَ ..

يا أميَ النادبةْ ..

لملمي كلَّ أشلائنا .. واضربي الوطنَ المتمزّقَ ..

قد ينتخي فيه حسُّ الغضب!!

لم تزلْ نسوةٌ تتقلّدُ جُرْحي على صدرها ..؛

دمي يتأرجحُ في ناهديها عقودا ..؛

وعيني لها دُرَّةٌ من جُمانْ ..

والعشيقُ ترامى على قدميها ..

يُريقُ الدنانيرَ والنفطَ ..

واكبرياءَ العربْ!!

....

....

في الحرب يشتّبكُ اللونُ باللونِ ..

لكنَّ وجهَكَ أخضرْ

أيها الوطنُ المتناثرُ في الأبجديهْ

والنبراتِ الخفيضةِ في صلواتِ أبي ..؛

والدعاءِ الذي لا يجفُ على ثغرِ أمي ..؛

والسريرِ الصغيرِ ،ولثغِ أخي ؛والتخفي ..

فجأةً.. إن كسرنا الزجاجَ..
ولهفتنا للحكايا وجن سليمانَ..
في كل ليلةِ صيفٍ..
أيها الوطنُ المتناثرُ بين حقائبنا المدرسية..
والخرائطِ في غرفِ الدرس؛ والشمس تنقرُ
عند الصباح النوافذَ؛ والجارةِ المستحمةِ
تنشرُ بعضَ ملابسها الداخليهْ..
والبائعِ الباكرِ الوجه يسندُ دراجةً للجدار؛
ومن فرجةِ البابِ راح يكيل اللبنْ..
والحوارِ الرشيقِ بنافذتين وعينين في حارةٍ ضيّقه
أيها الوطن المتبددُ بين ملامحنا.. حين
يشتبك اللون باللونِ
وجهك أخضرْ
ونصغرُ فيك... وتكبرْ..

(ي)

يلبسُ الحزنُ وجهي..؛
وينسابُ في طرقاتِ المدينهْ..
ينزفُ الصمتُ بعضَ الحروفِ الثخينهْ..
بيننا..
فنديرُ حواراً قصيراً؛ وأهربُ منه..؛
يزاحمني في مداخلِ موتي..؛
يداهمني تحت جلدي..
[.. كنتُ أشعلُ طرفَ اللفافهْ
حين مرّتْ أمامي النساءُ؛
يثرثرنَ عن فتنةِ اللونِ؛
عن صبغةِ الشعرِ؛
يأكلن من أخرياتِ الحروفِ؛
ويمضغن قشرَ الثقافهْ..
والرموشُ الصناعيةُ المستعارهْ
والحواجبُ قد زججّتها الصغيراتُ؛
يا شيخنا المتنبي عليك السلامُ؛
الشوارعُ تمضغ أبناءها؛ وتلوك العذارى؛
وتلفظهنَّ نساءً تسكّعن تحت عمودِ الإنارهْ
يجلسْنَ في البار..
أو ينسكبنَ دماً في الدروب الحزينهْ..]
عرباتُ الـ U. N
في طرقاتِ القاهرةِ المحتشده،
والفتياتُ صغيراتُ السنْ
ينظرن إلى أغطية الرأس اللبنيةِ
فوق رجال الأمم المتحدة!!
صحتُ:
يا وطنَ الفرحِ القَيْدِ..
والأمنياتِ السجينهْ
أين سعدُ وخالدُ؟؟
هل حفظتك الدروعُ المعارهْ؟؟
تزكُمُ الأنفَ هذي الروائحُ..
والجرحُ في جسمك المستكين تقيحَّ
بالتسوياتِ الدفينهْ!.
[.. حين عرضتُ على سيف الله المسلولِ
الصورَ التذكاريهْ..
لجنودِ الأمم المتحده
في الأحياءِ الأثريهْ
أبدى دهشتهُ.. وأشار الى ركنٍ
في زاوية الصوره..
قلتُ له: هذي الأهرامات المشهوره
أما تلك الأجنادُ المتناثرةُ الأوجهِ
في صُوَرِ الألبومْ
فجنودٌ حفظوا السلمَ على خط النارْ
رضيْت عنهم كلُ الأطرافِ المعنيهْ
(.. مـطَّ الشفتيْن لـدى نطقي
الأطرافِ المعنيهْ..)
غمغم شيئاً لم أتبين منه سوى:
«أعرفُ في زرقةِ أعينهم نسلَ الرومْ
هل لك في أصداءِ حديثٍ قدسيْ
حدثني السيفُ؛ عن الرمحِ؛
عن القوسِ، عن السهمِ المارق؛

عن نيرانِ الحقِ الأزليةْ
أن التسويةَ السلميهْ
تعصفُ بالحق المهضومْ
لا تجلب للضعفاءِ سوى الذلِ والواصم..
والموصومْ.. »
يلبسُ الحزنُ وجهي..
وينسابُ في طرقاتِ المدينهْ
ينزفُ الصمتُ بعضَ الحروفِ الثخينهْ..
بيننا..
فنديرُ حواراً قصيراً..؛ وأهربُ منه؛
يزاحمني في مداخل موتي..
يداهمني تحت جلدي..
حين أذكرُ أنّا منحنا البلادَ مواعيدَ خبٍّ؛
أعدَّت لنا شعرَها المترقرقَ شلالَ
عطرٍ؛ نوافذُها غرّدتْ؛ واستدار
بها الناهدانِ.. تعرَّتْ لنا
تحت ضوءِ القمرْ
فاجأتها السياطُ.. على صدرها
في أتونِ التحدي
كانت الأرضُ تُقعي..
وحين نصيحُ بها تشرئبُ؛
تشب على طرفِ أقدامها..؛
تسمع الصوتَ منا وعوداً..
تطرّز أحلامها الزنبقيهْ..
عادت الأرضُ تبلعُ أحزانَها؛
تتقلّصُ بين الخرائطِ في ذلةٍ..؛
قفي هذه الأرضُ..؛
لا تهربي تحت أقدامي الناحلاتِ..؛
وكوني انتمائي الوحيدَ..
وجُرحيَ وحدي..

* * *

(ت)

تكتبين الرسائل؛ تطوينها للحبيب البعيدْ..
آه أرملةَ الوهمِ والشوقِ..
تنتظرين البريدْ..
تنسجينَ خيوطَ الأماني؛
نجومَ الليالي..؛..
وجوربَ طفلٍ وليدْ..
والرسائلُ في غرفةِ القائدِ المتصلّب أشرعةٌ أنهكتها
الرياحُ؛ ارتمت في المرافئ؛ يقرأُها
ضابطُ الأمنِ في خلوةٍ هادئهْ..
يقيسُ الحروفَ.. وأبعادَها الناتئهْ..
هل تشفُ وتفضح أسرارَها للعدوِّ المرابطِ
خلف الحدودْ..
آهِ أرملةَ الشوقِ والوهمِ..
لا توقظي جُرحَه المستكينَ..؛
ولا تُخفضي روحَهُ المعنويةَ..؛
هل بنتُه رفضتها المدارسُ..؟
ما كلُ شيءٍ يُقالُ..
ولا ينبغي أن يُحسَّ به في العراءِ
الجنودْ..

* * *

(أ)

أيها الجرحُ لا تفغرْ الفمَ أكثر.. إنك تزدردُ
الفقراءَ..
إنهم يسقطون تباعاً..
وعامُ الرماده..
مدَّ أعناقَهُ وتمطّى على الأرضِ يقتنصُ
الشرفاءَ..
واحداً واحداً يسقطونَ...؛ العيونُ التي
تشرئبُ لتستشرفَ الغدَ تُسملُ حين تعودُ لتُخبرَ
أنَّ المنابعَ آسنةٌ؛ والحروفَ- الضفادعَ فيها
تنقُّ وتقفزُ في عطنِ الكلماتِ المعادهْ..
بركةٌ زحمتها الطحالبُ حفَّتْ بها أوجهُ
الزعماءِ..
أيها الجرحُ لا تفغرْ الفمَ أكثر إنك تزدردُ
الفقراءَ..

واحداً واحداً ينفقون..؛ يبيعون أهواءهم للوحول
ضمائرهم للبلاده..
طالما اختلسوا من طيوفِ التوهمِ والكذبِ ما
يُطقبونَ
عليه الرغيفَ..؛ وحين يعودون للدار
ينكسرونَ
إذن فيم كان المديرُ.. ولفحُ الخابزِ...؟
والعريُّ كيف وخيطُ المغازلِ يمتدُ
كالنيلِ..؟؟
كان السؤال يطنُّ.. وسيفُ أبي
ذرّ فوق الجدارِ يُسلُّ جواباً...
ولكنَّ صمتاً..... فقد أُثِرَ عن
السُّلفِ الأتقياءِ..
(طاعةُ الخلفاءِ عبادهْ!!)..
[..كان جدي يقولُ:
«العصافير تَشرب حسوةَ ماءٍ وتشدو
وتلقطُ حبةَ قمحٍ؛ وتشدو؛ ويحملها
الريشُ عرشاً؛ وتلم عرضَ
السماءِ..
والقناعةُ كنزُ الفقير..
بها قد يتوِّج ربُّ السماءِ عباده..»]
....
....
مات جدي وحيداً..
وفي فمه ما تهدلَّ من كلمات الزهاده..
حيث كان بنوه العظامُ بقربةٍ منه يقتسمون
بقاياه..
مسبحةً.. أو رداءً..!!
أيها الجرحُ لا تفغر الفم أكثرَ..
إنك تزدردُ الفقراءَ..
إنهم جثثُ الحلم في الأرضِ..؛
أوعيةُ الدودِ في القبرِ..؛
حقلُ التجارب للربِّ..
والساسةِ الأقوياءِ..!!

★ ★ ★

(ل)

لا يزعمُ الماءُ حين تسودُ عليه الطحالبْ
أنَّ الركودَ فضيلته المزدهاةُ
يحقُ عليها الحسدْ..
كنتُ أقسم دوماً بهذا البلدْ..
رغم كلِّ الكبدْ..
رغم نبع الشقاءِ الذي يتوضأ آباؤنا منه
طيَّ الأبد..
بالعطاءِ الذي يتفجرُ منه..؛
بطاقاته اللهبيةِ..؛
بالحزن في أعين الصامتينَ..؛
وبالغزل المتواثب بين العيون..؛
برجفة ريفيةٍ زعقةُ البوق
من فارهاتِ المواكبْ..
داهمت وعيها فتناثر...
[مثل العصافير غِبَّ انهار رصاص
المراقبْ..]
هرولتْ تلعنُ الضجةَ المستفزةَ بين العواصم..
واللفظُ في شفتيها ارتعدْ!!
....
....
.........كنتُ أقسم دوماً بهذا البلدْ..
بالذين مع الفجر ينحدرون الى
النهرِ..؛
ينكسرون مع الظهر؛..
ينسحبون مع القهر..؛..
خلف جدار المساءِ ويحترفون
الجَلَدْ..
بالفرح الذابل الصوتِ أقسمتُ..

بالدمع بين العيون الشواحبْ..
بالبنادق ساهرةً تشرئبُّ؛ وتحنو عليها
زنودُ المحاربْ..
حيث نام الخطيبُ على منبر الوطن المستكين
المسجّى الجسدْ..!!

....

....

.... كنتُ أقسم دوماً بهذا البلدْ..
بالريحِ أن سوف تأتي..؛
وبالعدلِ ان سيضمّ جناحيه يحمي
الحقيقةَ من لفحةِ الباطلِ المتوّهج يغشى
العيونَ؛
وبالكلماتِ الحراب ستنقضُ في الروح ما نسجته
العناكبْ
بالطفولةِ أقسمتُ..؛..
بالغد، بالبسماتِ؛..
وبالزرعِ منتشياً.. كنتُ أهمسُ:
.. «يمكثُ في الأرضِ ما ينفعُ الناسَ..»
.. حين رأيتُ الزبدْ..
أبنيةً في المدينةِ تعلو وتسمقُ؛..
أرصدةً في البنوكِ..؛..
حُلِّياً تصلُّ بأذرعةِ العاهراتِ..
وفي الكتفين فِراءَ ثعالبْ..!!
[.. ربما كان من عرقٍ يتصببُ في أوجهٍ
ران فيها الكمدْ!!..]

....

....

.... كنتُ أقسم دوماً بهذا البلدْ..
والبناياتُ تهوي..
وأقسم أن سوف تنهض..؛
حتى رأيتُ المطاراتِ غصَّت بمن يهربونَ
ولا يرجعونَ..؛..
رأيتُ المناجلَ لا تحصدُ الزرعَ...؛
والضرعَ جفَّ...؛..
رأيتُ السيوفَ تثلَّم فيها الإباءُ..؛..
رأيتُ الخيولَ على ضفّةِ النهر تضوي
وتهزلُ..؛ تسقط ضامرةً فوق أعلافها..؛
ومقهورةً حين تبصرُ نجمة داوودَ في
أفقها تتّقدْ..
قلتُ..
لا شيء يجدي..
سوى الشعب ينشبُ في رئةِ
الحاكمين المخالبْ!!

★ ★ ★

(م)

[.. من يَهُنْ يسهل الهوانُ عليه..]

....

....

كان ابو الطيب الشيخ عند حدودِ حلبْ..
يستفزُّ الجوادَ..؛ ويستنفرُ الجندَ...
أبصر سيفَ الرجالْ
قاصداً قيصرَ الرومِ حتى يوقعَ صكَ امتهان
العربْ
[.. ندَّت عن الأرضِ آهةُ عشقٍ..
ولفحُ غضبْ!!..]
كان الجوادُ بعينيه يفترعُ الأرضَ..؛
يدفنُ أشواقَه في الرمالْ..
والشاعرُ الشيخُ راح يتمتمُ في ذلةٍ
حين شدَّ الرحالْ..
وجفَّتْ على شفتيه الحروفُ..
وغام الكلامْ..:
ماالجرح بميتٍ إيلامُ
ماالجرحِ بميتٍ إيلامُ..

(و)

واقفاً كان يبكي على أورشليمْ..

وجهُهُ تتهللُ فيه السماحةُ ؛
تنبضُ تحت الأديمْ..
خاشعاً كانَ..
والصلواتُ على شفتيه حقولٌ من الخضرةِ
الناضرة..
أبصرني فارتجفْ..
رُحتُ أهمسُ:
لستُ يهوذا.. فلا تُخفتِ الضوءَ ؛..
أخرج الينا بقلبكَ هذا مروجاً من الفرحةِ
الغامره..
فاتني.. صاعداً ربوةً..؛
والدموعُ صلاةُ الحنين..؛
وتمتم صوتٌ رخيمْ..
« طوبى لمن يبذر السلمَ..
من يدفئُ الأرضَ في عريها..
من يدغدغُ بسمةَ طفلٍ..
وملعونةٌ لعنة كاسرة..
كل كفٍّ تمدُ الحنانَ ليدفأ طاغٍ أثيمْ!!.. »
عيناه تختلجانِ..
وحلقتا طائرين.. يحطّانِ عند النوافذِ
في بيتِ لحمٍ.. وفي الناصره..

★ ★ ★

عابراً أرض سيناءَ كنتُ..؛..
وآنستُ ناراً على جانب الطور..؛
من خلل الوهج المتصاعدِ.. أبصرتُ
لحيتَهُ..
كان وجهُ الكليمْ
كان يلصقُ للأذن مذياعَه المتهامسَ..؛
يُصغي.. ويرقبُ ما سوف يسفرُ عنه
معسكرُ داوود حيث السماءُ تضمُ
الشموسا
رُحتُ أخلعُ نعليَّ..
أدنو..
فأبصرتُه يردم النارَ.. قلتُ:..
السلامَ.. فأوجس
في نفسه خيفةً... [.. ربما خالني من عساكر
هامانَ..
أو جند فرعونَ.. جئتُ أطارده..!!.] السلامُ
عليـ...

وأوغلَ في التيه موسى..
.. تَلَفَتُّ خلفي..
يودّعُ قلبي المكان الجليلْ..
لاح لي شبحٌ ينحني..
واستقامَ..
وبين يديه العصا الساحره..
لن تُفجِّرَ في الصخر ماءً..؛
ولن تفلقَ البحرَ في كفِّهِ..؛
وغداً في ربوع الجليلْ..
تقمعُ الثائرينَ..
وتُرفعُ سيفاً..
على عنق الرافضين
البقاءَ الذليلْ..

★ ★ ★

[.. أبصرتُهم جميعاً عند الصخرة..
حول الخليل هالةٌ من نورْ..
وسليمانُ راح يسوِّي ريش هدهدٍ ؛
ويداعبُ نملهْ..
وشعيبٌ يفترشُ الحصى البلوريَّ البراقْ..
وموسى يحمل حفنةً من تراب مصرَ..
وشيئاً من فومها وعدسها وبصلها..
والمسيحُ في إكليلٍ من وردٍ يرفلْ..
وهودٌ.. ونوحٌ.. وصالحٌ..
وخلقٌ كثير..

....

....

.... وتحدث المصطفى عن حائط المبكي

وأفاض الكليم في عذوبةٍ عن المسجد الاقصى

وقام ابن البتول ليبعثَ ميت الضمائر

حين ذكر القدسْ..

وقامت أعراسٌ كونيةْ..

ودقَّتْ أجراسْ..

وغردت مآذنْ..

وحانت الصلاة..

وتقدّم طه باسماً قلبُه..

مشرقةً عيناه..

وأمَّهم جميعاً...]

....

....

....لم يَطُلْ في العراءِ السجودْ

والسكونُ المهيبُ تهتّك تحت

سنابكِ خيل الجنودْ..

وابتهالُ القلوب طوته الرياحْ..

والذئابُ تقطّر من شدقيها

الدمُ المستباحْ

والكواسرُ تقتاتُ؛ والأغربةْ

حلَّقتْ تتناقرُ...

ريعَ الوجودْ..

والسماءُ استدارت لتجهش..؛

والشمسُ من هول ما أبصرتْ وجهُها

الذهبيُّ تجعَّدَ..

وأنطفأتْ في خمودْ

★ ★ ★

(ت)

تسحبُ الأرضُ أشلاءنا فوق عورتها

المستباحة ستراً.. غطاءً.. نخاذبه البلداءُ..

الذين يبيعون شوك المِحَنْ..

والذين اذا ركدت هبواتُ المعاركِ

يستخلصون الوطنْ

مِزْقَةً من سنابكِ خيل العدو....؛

يحلّون منها الصدورَ.. مناديلَ تزهو بأكمامهم

والمعاطفِ والستراتِ الأنيقهْ..

أو تكون رباطاً لتزهو به العنقُ

الشامخهْ..

في مهرجانِ انتقاءِ الجميلاتِ؛ والزهرِ

أو في معــارضِ ذكر السلالاتِ من عظماءِ

الكلاب

ذوي الأسراتِ العريقهْ..

آهِ يا بلداً ألقمت ناهديها الفتنْ...

من أقاصي الهموم تجيئين حاملةً في

يديكِ إناءً به الماءُ للظامئ القلبِ؛ والزادُ

للعاشقِ الصبِّ..؛ حين انكفأتُ عليه..

وجدتُ الدماءْ..

قلتِ: فلنشرب الآنَ نخبَ المحبةِ..

قلتُ: وهل هذه الخمر؟

قلتِ: مضى العاشقون.. وهذي

بقاياهمو.. فَلْتَعُبَّ.. غداً أمرُ.. واليوم

خمرٌ..؛ وحين هممتُ.. تلألأ في الكأس ظلٌّ..

وأبصرتُ في قاعه يطفرُ الشهداءْ

أنتِ رافلةٌ في ثياب التبرج .. خضراءَ

تسعين بين الدمَنْ..

ها أنتِ كالريحِ عبر حياتي تَمرِّين..؛

فوقي تُهيلينَ بعض التراب.. وبعض الدموع

إذا التفتَ القلبُ منكِ!!.... وتمضين..

هل كنتِ نوعاً رديئاً من العشق أطعمته القلبَ

ام كنتِ عاصفةً تخرين الهدوءَ.. السكينةَ..؟

هــل كنــتِ صقراً مخالبه تقتضي الروحَ..

(أبصرتُه

في غموض الملامح طيراً كسيراً.. فأدفأته في

الحنايا... فأورثني حزنه والشجنْ..)
أنت في شرفةِ الشرق تنتظرين عبورَ
السفائن.. تستنشقينَ عطورَ القوافل؛..
أو ترقبين مُشاةَ الأساطيل يأتون بالوردِ
والعلب
المزدهاة (.. وحول الخصور الخناجرُ.. لا
تبصرين!!...)
.. وقد تُسدلين الغدائرَ..؛ قد ترسلين
الضفائر حبلاً لمن يتسلقُ عمركِ.. يغتالُ
فيكِ النضارةَ..
أو ينفثُ الدودُ..
طيَّ البدنْ..
إنني العاشقُ المتوهجُ؛ عمري قرونٌ من
العشق...؛ أكسرُ قيثارةَ الصبر والغزل
الرغويَّ..؛ وأمتشقُ السيفَ...
أرقبُ بابك..
أحميكِ..
أُسجنْ.. أُجْرحْ.. أُصرعُ
يلقفني في ثراكِ الكفنْ

★ ★ ★

(و)

ولي وطنٌ آليتُ ألا أبيعه
وألا أرى غيري له – الدهر – مالكاً

....

....

كان ابنُ الروميّ يتمتمُ «لي وطنٌ»
منحدراً من ناحية الكرخ الى بغدادْ..
يحمل شكواه إلى باب خليفته الراقدِ
بين نهود جواريه وعزفِ الأعوادْ
يبهرها بالشوق الجارفِ..
مترقرقةً فيها الذكرى النازفةُ..
وأصواتُ الأولادْ
يتذكرُ لهوَ الصبيةِ؛ والعشقَ الأولَ؛
يزفرُ آهاً..
يبكي الأيام الغاربةَ..
(فارتجف وحمحم بالأشواقِ جوادْ..)
وتسلّل صوتُ معلمه الواهن بالكلماتِ
الأولى
«ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحه
/يُهدَّمْ..»
فتحسَّسَ قوساً..
وتفقّدَ رمحاً..
وامتشق السيفَ.. وعادْ..

(أ)

البراكين لا تستقرُ عليها الوسائدُ..؛
هم ينقشون على الماءِ أحلامهمْ؛
يبتنونَ من الوهمِ أيامَهم؛
يحدّثون البحارَ..؛ وحين تثورُ
الزلازلُ لا شيء يبقى سوى قبضةِ الشعبِ
حول الرقابْ
وانطلاق الأعاصيرِ من رئةِ المستكين
وفي نبراتِ جموع الغِضابْ
والبراكينُ تحترف الصمتَ.. لكنها لا تموتُ..
وتعرف عن قشرة الأرض ما يجهلُ
العلماءُ الأساطينُ والسادةُ الخبراءُ؛
وتعرفُ ميقاتَ تفجير أحلامها؛
وكيف يتم التزاوجُ بين العواصفِ
والنارِ؛
في مهرجان
تقوم على جانبيه الحِرابْ
إذن.. فيم يبتسم الحالمون بقهر الشعوبِ!؟
وكيف غفتْ فوق حُلم الغنيمةِ
عينُ الذئابْ؟!

★ ★ ★

(ل)

للرياحِ تقاليدُها..
فهي لا تقلعُ العُشبَ..
لكنها
تستثيرُ ضِخامَ الشجرْ
والحكوماتُ كالهرَّةِ الجاحدهْ..
تنهشُ أبناءها الكادحين العجافَ..؛
وتلعقُ فروَ السمانِ..؛
تدلّلهم..؛

يتخمون.. وينكفئون الى المائدة..
والظهورُ التي يحفرُ السوطُ فيها عتيَّ الصورْ
حين تضجرُ..
أو تستقيمُ يندّدُ سيفٌ
وشرطيٌّ يتلو عليها قوانينها
الجامدَهْ..

آهِ..
هل أنتِ أمي التي علمتني أثورُ..
وأهتف صبحاً.. مساءً..
بلادي.. بلادي.. بلادي
.... ويعزفُ فيها النشيدُ.. وينزف فيَّ النشيجُ
ومنتصباً أستديرُ إذا دقَّ فيها السلامُ؛
أأنتِ بلادي التي جبلتني منذ الصغرْ.؟!
أنتِ أرجوحةُ المهدِ..
والحلمَ كنتِ...
وأنتِ الوسادةُ والشوكُ؛ والبسمةُ
المستضاءةُ في الشرفاتِ، حفيفَ
السنابل كنتِ..؛
حوارَ المناجلِ والزرعِ..؛
أنتِ الأقاصيصُ [والنخل فينا يطوّحُ
أشباحهُ] والعيونُ الخجولةُ
أنتِ.. وحجلةُ طفلٍ على ساحة
الدارِ..؛ والجدةُ القاعدهْ

أنـــتِ.. والجرسُ المتطايرُ في الأفــق
للدرسِ..؛
والحبُ في مستَهلِّ العمرْ..
أنتِ.. أنتِ.. ولستِ الجرائدْ
لستِ فاكهةً تملأين الصحافَ التي
ازّينتْ في صدورِ الموائدْ
يحتفي السادةُ المتخمون بها..
والكروشُ التي داعبتها النكاتُ
لتهتزَّ..
بالبشرةِ الخامده
أنتِ عاشقتي التي تتوهجُ حلماً
ولستُ إلى الحلم منتمياً إن توّجته
الزهورُ.. (ترى ينبضُ القلبُ
بين القبورِ؟!
وهل يورقُ الزهرُ بين الصقيع ؟!)..
اخرجي الآن من جسدي...؛
واملأيني براكينَ تصبغُ وجهَ السماءِ..؛
وتطلقُ أحصنةَ الشفقِ الدمويِّ..؛
يكونُ الصهيلُ نداءَ الغدِ المستفزِّ
بدفعِ السواعدْ..
أخرجي الآن من جسدي طفلةً
وانتصبي مارداً
يجذبُ الشمسَ.. يقذفها
في العيون الرواقدْ
في القلوب الخوامدْ!!

القاهرة

مقدمة كتاب

نقد العقل السياسي

تأليف : ريجيس دوبريه
ترجمة : الدكتور عفيف دمشقيه

لأن ينشر المرء كتابه الأول في متقدم من العمر (بعد عدد من المقبّلات المتنوعة)، فذاك خروج على اللياقة ليست نسبته إلى الإبطاء في قول ما ينبغي قوله بأقل من نسبته إلى قسوة الدهر. وإذ لا يخلو الأمران من بعض علاقة، فإني أظن أن الوقت قد حان لأبرر مسلكي بلمحة موجزة عن «سير دراستي»، مع احتمالٍ بأن أخالف قواعد اللياقة.

بالحديث عن الذات أولاً. فالكاتب الحق لا يقول «أنا... تُ». وستر ما في عملية من عمليات الإثبات من قصور بما يثيره البوح من انفعال يفترض- فوق أنه صنعة توقع في الأحابيل- خلطاً بين الأنواع تأباه حرفتنا. فليكن واضحاً أن السرد هنا يمهّد للعرض كيلا يضطر إلى الاندساس فيه فيما بعد؛ وأن القضية ليست قضية بحث عن الظهور، ولا قضية استدرار للرثاء أو الحب الخ.. وإنما هي ببساطة قضية إبانة عن مراد. وإذا كان عمل من هذا النوع هو- والحالة هذه- من تدبير الزمن قبل كل شيء، فإن الاهتداء إلى سلسلة الصدف التي قاذتك إليه سوف يكشف سلفاً عن نسق من الأسباب.

وقد يكون الخروج الآخر على قواعد اللياقة متعلقاً بالمجتمع. فنمط العيش ونقل الأفكار الحالي قد أبطل، ولا ريب، مفهوم «السلك الموصل»، وجعل التفكّك مربحاً. فكل مؤلف يعرف ما وراء قول شيء ذات يوم، وعكسه في اليوم التالي، من غنم، شرط أن يتكتّم بالطبع على الدوافع التي حملته على مناقضة نفسه. وعندها يصبح واثقاً من تأثيره، على اعتبار أن المفاجأة تصنع الخبر، والخبر يصنع الجدّة.

ولما كنت أعرف أن نتيجة من النتائج تكون مبهمة بمعزل عن أصل تكوّنها، وأن عرضاً للأسباب يغدو قراراً سلطوياً إذا هو أخفى المنحى المتردّد الذي جعله ممكناً، فإني أبادر إلى البدء باللياقات، الأكاديمي منها والإعلاني على السواء.

وليُتفضل بعد بعذري على ما يمكن أن يكون من ملامح السيرة الذاتية في هذه الصوى القليلة المختارة بهدف واحد، هو تلخيص المنطق الداخلي لاكتشاف استدلالي لم يكن فيه انقطاع، بل مجرد تقدم نحو نقطة البداية. ومن يتبع مجراه بشكل عكسي لا يتراجع. لكنه يزداد كذلك علماً بمآله إذا هو عرف من أين صدر.

لقد بدأت أفكر في ظاهرة السياسة بعد حوالي عشر سنوات من «التزاماتي» السياسية الأولى، أي في حوالي منتصف العام ١٩٦٧، وكان ذلك في السجن. وهو إبطاء مبتذل (يحمل عنوان: «تأخر الوعي عن التجربة»). ولكن ربما لم تكن «كينونة» الأمر السياسي (أو طبيعته) لتشكل في نظري معضلة على الاطلاق لو لم أجدني طوال أعوام عاجزاً مادياً عن «الاشتغال به». وكنت حتى ذلك الحين قد تلقيت تكويناً طبيعياً في الإنسانيات الكلاسيكية (الفلسفة، والآداب، والتاريخ)، وفي موازاته مشاركة طبيعية في النشاطات العامة التي كانت معروفة آنذاك (التحرك في بادئ الأمر، والعمل بعد ذلك)، دون أن يخطر ببالي أن أقيم علاقة ما بين هذين المعدّلين: بين ما يُتعلم في المدرسة وما يُعانى في الشارع، بين أصل تكوين النصوص وقراءة الصحف بشكل خاطف. بل لنقل بين آثار التاريخ المكتوب، التاريخ الكبير، واختلاجات التاريخ الآخر، التاريخ الصغير الذي يُصنع ويُهدم يوماً بيوم. ولم أكن قط لأبدي اهتماماً عملياً بالأول الذي لم يكن يشغلني الا بوصفي طالباً، أي لغايات تتعلق بالامتحان، ولا اعتباراً نظرياً للثاني الذي كان وحده هاجسي. فقد كان نجاح الحقبة التي أعيش فيها، أو عدم نجاحها، في ولوج المستقبل، المستقبل الذي كان يرسمه لها مفهومنا للعالم، يخضعان في الواقع لتقلب الأحداث اليومية. وان المرء ليضيع وقته في انتظار طويل لهذا المستقبل.

كان الماضي هو الماضي، أي متحف ما هو معروف جيداً وغير مفيد بالتالي. وكان الحاضر يُستكشف بالرجم بالظروف أو بالتحليل الفوري، يزيد في حدة الاستكشاف استعجال لادراك ما ينبغي ادراكه للحال، تحت طائلة الخطأ أو الابطاء «المميت». وكان المستقبل- الاشتراكية- مرتقباً وسط التأكيدات التي أولها أنه سيكون غير واضح الملامح، لأنه لا مثيل له. وازاء هذه التمزقات الشبيهة بما يصدر عن مريض بالعقل، وصل مُدرَك «الانقطاع عن منهج نقد العلوم» في الموعد المضروب ليطبع الأمور بطابع «العلم»، جاعلاً من الفُصام التنظيري موجباً مفروضاً وضماناً للموضوعية. وإذ كنا حَمَلة علم جديد- علم التاريخ- فقد أخذنا ندرع، في شارع «أولم» كما كان في الستينات، «العالَم الجديد»، سابقين، بزمن يسير، الأزمات الحقيقية التي قد تأتي عما قليل لتشطر تاريخ البشر شطرين. وباختصار فقد حجبت السياسة عني مدة طويلة ما هو سياسي، كما يحجب الانخراط في ايديولوجية فريدة بمنطقها منطق الانخراطات الايديولوجية العام. أما الفكرة القائلة بأن «الزمن اللامحدود للنمو البشري» استطاع ان يخضع لعدد قليل من القوانين الثابتة التي سبق أن أُبدي فيها وأُعيد، على الرغم من أنها فُسِّرت بشكل غامض، أو بالحريّ تفسيراً سيئاً، فقد بدت لي آنذاك أمارة على تشويش ذهنيّ من طراز برجوازي بحت. فبأي حق يُفترض أن تملك الميثولوجيا اللاتينية، أو الدراسات الأتينية الكلاسيكية، ما يفيدنا عن «الصراعات الايديولوجية» التي كانت قائمة يومذاك، أو عن تنظيم جماعات من المناضلين الثوريين؟ لقد كان هناك «ڤرجيل» و«مارسيل موسّ» من جهة، ومن الأخرى «غرامشي» و«شي غيڤارا»؛ السحر و«الإنسان الجديد»؛ انشاء روما وإقامة «مناطق محررة». وبين السماء والأرض كان سر التجسيد؛ وبين اللحم والجلد كانت «الحالة الراهنة ومهماتنا».وكان كلا النسقين يستأهل، قانوناً، احتراماً مساوياً للاحترام الذي يستأهله الآخر، على الرغم من الاهتمام غير المتساوي الذي كنت أبديه نحوهما في واقع الأمر، شرط الا يلتقيا أبداً، لا قانوناً ولا في الواقع.

وفي السجن التقت المتوازيات للمرة الأولى. ومهما قلت فلن أوفّي ما أدين به لهذه السنوات الأربع أو تكاد من «تأمّل». فكل ما يعالجه هذا الكتاب- «نقد الفكر السياسي»- يعود إلى اجتراراتي السابقة، وإلى المسوّدات التي احتفظت بها عنها. وها أنذا اسدّد إذ انشره ديناً قديماً نحو الامتياز الذي يشكلّه، لكل مثقف، عزلٌ من هذا النوع. فأمد الأحداث الجارية القصيرة الذي يقود إلى المناظرة «العجلى»، والذي يشعر المواطنون الطلقاء بشيء من خجل في الانعتاق منه، يقضم، بل يحطّم الزمن الطويل اللازم للحَبَل بالأمور الفلسفية. وان السجن ليحرّر، وهو الذي يتيح لبطء الليالي كل الفرص، أي ربما لفكرة أو فكرتين قابلتين للحياة.

ولقد شاءت الصدفة- ولكن لا يخفى «عناء البدائي في عدم التسليم بأي أمر غير متوقع»- انّ يقدّم إليّ مرشد «كاميري»، أي مرشد السجن العسكري بالتالي، وهو أب فرنسيسكاني من التابعية الإيطالية، ان يقدم إلي في زيارته إياي لدى حصوله على الإذن بذلك، بقايا رثّة لكتاب عن سيرة «غريغوار السابع» (هو ولا شك مؤلَّف «مورغن» مترجماً إلى الاسبانية) ومعه نسخة حائلة الرونق من كتاب «دون كيشوت». وكانا كتابيّ الأولين، وكان ذلك حدثاً وأيّ حدث. وأتاح لي «دون كيشوت» الهرب من الواقع، وجعلني «هيلد برند» (١٠٢٠- ١٠٨٥م) بطل «الخصام على تنصيب الأساقفة»[1] اكتشف العالم الذي أحيا فيه. وإذ كان هذا المنعطف أبعد من أن يظهر سخف «المهات الحالية»، فقد أعاد إليها حجمها وحدودها. وإنه لمن الخطل أن يوهمنا أحد، عند التصديّ لتنظيم فقدان الذاكرة الاجتماعي، بأن التهديد كامن في بقائنا معزولين في جزيرتنا، وفي ان تكون جميع الجسور مقطوعة بيننا وبين خطوطنا الخلفية. فبإدارتنا ظهرنا لما كان يُزاول في الماضي، فإنما حاضرنا المباشر هو الذي نوشك ألا نفهمه، والذي يقلّ فهمُنا له كلما اعتقدنا أنه أكثر طرافة. ولو ولج المرء المستقبل ماشياً القهقرى لما غلط بهذه الكثرة في الأبواب.

واستغللت فيما بعد إخلاص زوّاري القلائل فوجّهت طلباتي إليهم بتزويدي بما أقرأ وجهة تاريخ الأديان- وهو مادّة غير قابلة للرقابة- دون أن انسى الحصول على أكبر المؤلفات الكلاسيكية الخاصة بالحركة العمالية مغلّفة بأغلفة مزيّفة. وهكذا تعلّمت على مهل، وبشيء من التخبّط، أن أجمع بين خيوط الحقب وخيوط المصطلحات، وأن أتوصّل إلى اللحمة بين «الدنيوي» و«القدسي» في التاريخ الحديث مباشرة. وكان عليّ أن أقضي «أيار (مايو) ١٩٦٨» بصحبة «لوسيان فيفر»، و«هويزنغا»، و«فوستيجيير»، أي بصحبة «ديانة رابليه»، و«أفول العصر الوسيط»، و«هيرميس تريسميجيست»، وكان ذلك عائقاً مزعجاً قد يكون سبّب لي بعض العمى عن مستجدّات الحاضر، ولكن- هل يمكن الجزم؟- بعض التقدم كذلك في فهمها. وكانت الحماسة الباريسية في ذلك الحين لـ «نظرية ماركس الكلّيّة القدرة لأنها صحيحة». وقد حلّت محلّها اليوم، بأشكال لا تقلّ عنها إرهاباً، نظرية القدسيّ والعودة إلى الأمور الروحية. وفي الرؤوس حجبت السماء الأرض، والكتب المقدسة المناشير

المستنسخة بالستنسيل. وإنها للرؤوس نفسها، وإنها للحماسة عينها، وإنه لانبهار له ما يفسّره: فكل مفردة من المفردات تستمدّ حضورها المتعاقب من كونها تسمح في الوقت نفسه بنسيان متممّها. ولكنه تبديل ذو ضرر كبير ما دام مجرّد ضمّ السجليّن قادراً على جعل أمورنا اليومية غير مفهومة إذ يقرن ظَهْرَ المجتمعات الحقيقية إلى وجهها. والمناضلون المتقاعدون يعرّضون- وهم يرعون خيباتهم السياسية- الأجهزة النضالية للسخرية، وكأنه يكفي لتنظيف الأرض رفع العيون إلى السماء. وإذا كانت «الخيبة الكبرى»، بموكب أوهامها المعكوسة، لم تصبني، فذلك راجع عليّ ما أعتقد إلى أني حملت مذّاك الحقيقة الدينية والواقع القوميّ على محمل الجدّ. وكيف كنت أتجنّبها لو أننا عجزنا عن دحرها في معركتنا بالذات؟ وعندها رُضْتُ نفسي، كمثل جندي جُرح جرحاً طفيفاً، على مواجهة «المدينة» والآلهة معاً (غنيّ عن البيان أن الأمر تمّ على الورق)، مسوّداً كيفما اتفق عدة دفاتر مدرسية نشرت قطعاً منها هنا وهناك: بعضها، وهو ذو طابع نظري، في المجلات؛ وبعضها الآخر، وهو ذو طابع أدبي، في كتاب[٢]. وكان معنى أن يفكّر المرء في الدين عام ١٩٧٠ وهو «يتكلم على السياسة» أنه وصل مبكراً جداً ولا شك؛ ومتأخراً جداً، عام ١٩٨٠، اذا فكّر في السياسة وهو «يتكلم على الدين». وما همّ إذا كان كتابي هذا لا يطابق بمحتواه- كما اجرؤ أن أرجو- واقع الحال بما يكفي لإثارة الرغبة الشديدة في الضحك لدى قارئ من قراء العام ٢٠٨٠.

إن النظرة النضالية، إذا فُصلت عن أفقها المعتاد، تدور حول نفسها. وإذا كنت سجيناً، وبلا مستقبل، فقد شرعت أعود نحو العالم الذهني الذي صدرت عنه (مع بُعد الشقّة الناجم عن البطالة) مطبّقاً عليه هذا المزيج من الارتياب النقدي والانتباه المتردّد اللذين يثيرهما اجتماع المعتاد والخارج على المألوف، المعيش والمتعلّم، فيتولّد من اصطدامها في بعض الأحيان الشرر. إن كل إنسان يعلم أن الإعلام النادر ينبثق عن المقابلة بين اشياء عادية ليس من علاقة ظاهرة بينها. وكنت، وأنا اتساءل كيف أفصل بين ما لم يشاهد أبداً وما سبقت مشاهدته وسط القصة التي كنّاها، والتي ما زلنا نحياها، أحضر عمليات عكسٍ غريبة بين الشكل والمضمون في جوف أشد صور «ايديولوجيتي» افتقاراً إلى الأصالة: عبارات جاهزة، ورواسب آلية لم يمحصّها تفكير، وزوايا مهجورة في الخطاب الرسمي.

والصبغة الدينية- سواء كانت طبيعية أو كانت تلويناً- في معارك النضال من أجل التحرر القومي والاجتماعي واقع غير مدحوض ينتمي إلى تاريخ الأمس واليوم. فالشروح والتفاسير، من «انغلز» إلى «ارنست بلوش»[٣]، ومن «لاندرناري» إلى «جاك بيرك»، أضحت كلاسيكيات. وفي الشرق، وعلى مرأى من الملأ، يضفي الإسلام تماسكاً وحيوية على عمليات استعادة الشعوب هويتها السليبة. وفي الغرب، لا في بولونيا وحدها، تفعل المسيحية على السطح، ولكن بالعمق أيضاً، في غفلة من الطلائع المسلَّم تماماً بإلحادها. وفي أميركا اللاتينية بخاصة، تتفوّق الثقافة المسيحية على الديانة المسيحية وتحيا بعدها في «الاشتراكية العلمية». فخلف التمسك التقليدي الواضح بانتظار عودة المسيح- أي التعطش للعدل والأمل في «مملكة السماء»- نرى أن مناقبية الواجب المجلببة بشعار التضحية هي التي تحرّك مناضلين يواجهون الاستشهاد بشكل مباشر: إن موضوعات خلاص النفس من آثامها بالألم، والراحة في الموت، والتكفير عن الماضي، تتجلبب في القاموس الماركسي- اللينيني بعبارات وألفاظ ربما تركت ماركس ولينين حائرين، بوصفها مشتقّة من الصوفيات القشطالية، ومن كتابات «مارتي»[٤] «المبشر»، ان لم نقل من أراء «سينيكا» الايبري[٥]. ولقد نذر «زاپاتا»[٦] نفسه للعذراء، وكان «ساندينو»[٧] يهتم بالنظرية الإشراقية القائلة بالاتحاد بالرب. وها ان التحرير الوطني «خلاصاً» للمضطهدين، والثورة «انبعاثاً»، والالتزام «إداء الرسالة»، والانضباط «تفانياً»، و«الرهان الجديد في لعبة الورق» الذي سيفلس السيد العجوز، ترد بنصها الحرفي مثلاً في البيانات الأولى الصادرة عن هاڤانا (١٩٦٠- ١٩٦٢). ولا تزال هذه اللغة مشتركة بين أولئك الذين يسقطون هناك، في أميركا الوسطى، وأسلحتهم في أيديهم. والدم بذار الأمم- وهذه صورة مشتركة بين «تيرتوليانس»[٨] وخطب التأبين الخاصة بنا- والموت من أجل «القضية» هو المكافأة العظمى. وقد يكون هناك كتاب برسم التأليف، يقدمه إلينا «ماكس ڤيبير»[٩] «لاتيني» عما قريب، وموضوعه: الاخلاقية الكاثوليكية والفكر الثوري. وقد خدم الخلاص بالرحمة «رأس المال» كثيراً منذ اللحظة التي لم يعد فيها التاجر الحاذق مسيحياً رديئاً، بعد أن سلّم «كالفن»[١٠] بالإقرار بفائدة. واليوم يسدي الخلاص بالأعمال خدمات كثيرة لـ «الاشتراكية العالمية» في الأراضي اللاتينية حيث من البديهي أن المسيحي الرديء لا يمكن قط أن يكون مقاتلاً. ومع أننا لا نرغب هنا في أن نفحص عن كثب الأصول الدينية للعقائد الاشتراكية البدائية (سان سيمون[١١]، وفوريبه،[١٢] وكابيه[١٣] الخ...) في أوروبا «ايقاظ الروح الديني» في القرن الماضي، أو حتى صلات القربى بين الكثلكة الرومانية- كديانة سلطوية- ذات الهيكلية التراتبية والإطار

والنسج المؤسسي المحكم، ونوع من «الاشتراكية الواقعية»، فقد كانت هناك عناصر، أو بالحريّ، جوّ يستدعي تفكّراً أشدّ يقظة. وكان نوع من التركيب الكلامي الخفي للتعبير عن تنظيم الجماعات بالشكل الذي تكشفه هنا وهناك عادات لا مفر منها، يبدو لي، بطريقة مغايرة، أثقل وأشد نكراً من تشكل السلوكات الفردية التي تتيح الإحاطة بها سوسيولجية عادية في مجملها، وذلك بإرجاعها إلى عناصرها التاريخية- الثقافية.

إن مزابل النظرية، الماركسية على الأخص، تخفي ماسات. ولا يعني ذلك أنه أُريد لها أن تُخبأ فيها: إنها بانكشافها لجميع الأبصار تصرف الهواة عن الانحناء، فالأحرى أن تصرف المنقبّين المحترفين. ورئيس الشرطة بالذات لم يعثر عند «ادغار بو»[14] على «الرسالة المسروقة» لأنها كانت ملقاة فوق المكتب تحت بصره، وقد قال أحد الحكماء إن الحقيقة تتجلى بقدر ما تجهد في التخفّي. لكنها أيضاً تتخفّى أكثر ما تتخفّى حين تجهد في أن تبدو لنا حمقاء. والتفاصيل شأن من شؤون الاهتمام. وقد يعشّش حدّ أقصى من المعاني احياناً في ما لا يستحق التفاتة من العلماء. وإذ جعلتني الحاجة ضعيف البصر وكأني لا اهتم لشيء، فقد بدأت بعض «تفاصيل» الاشتراكية «المحقّقة علمياً» تتضح لناظري.

هناك مثلاً ضريح لينين» (أو ضريح كمال أتاتورك، أو هوشي منه، أو تيتو، وغداً ضريح تشاوشسكو وآخرين). وفي امكان المومياءات المحفوظة فيها، وهي لا أدرية بكثير من التصميم، ان تتوالى مع موجبات اللحظة الراهنة وتقلبات الخط؛ وتظل الحاجة إلى حفظ مؤسس قائمة. فـ«موزول»،[15] مرزبان «كاريا»،[16] المولود في آسيا الصغرى في القرن الرابع قبل الميلاد، يفقه أقوال لينين الذي لا يفقه أقواله والذي كان يخجله ولا ريب إقدام رفاقه البلاشفة على بناء هيكل جنائزي له. لكن هؤلاء كانوا سيغضبون أيضاً إذا علموا الرمزية الدينية التي دفعت أخت «موزول» وزوجه في آن- «ارتيميز» الثانية- إلى إقامة هرمها الذي هو إحدى عجائب الدنيا السبع. ولسوف يعيش ضريح الساحة الحمراء بعد اللينينية: فالضرائح للبقاء («هاليكارناس»[17] باقية منذ عشرين قرناً)، وجميع «النسَب»[18] إلى زوال. أو ليس في مكنة ما يزول ان يستغني عن شيء لا يدري كنهه يضمن الدوام ويجتاز الحقب وهو يَعمُرها جميعاً؟ أوَلا يغدو المرء، وهو ينقل الاهتمام من اسم العلم العظيم إلى الموصوف الوضيع، على طريق علاقة ثابتة وضرورية تجمع «المتعدّد» إلى «الواحد» المؤسّس، والمتوالية إلى حدّ أوّل؟ وربما كان ما يستنتج من المحنّطات، في نظر علم سياسيّ أساسيّ، أقلّ مما يُستخلص من التحنيط نفسه، وهو طقس يسمح، اذ يحفظ الأجسام، بدوام أرواح الآلهة- الاحياء بعد موتهم؛ الآلهة الذين يفترض دوامهم المؤكد عبر المكان والزمان فيما وراء المعتقدات الاجتماعية ومراحل النمو التقني بعض الاستمرارية بين السوفيات مُلهِي الحماسات و«غصن»-الذهب في الممالك القديمة.

وكذلك- وهذا مثال آخر مغرق في الابتذال- توصّلت إلى اكتشاف عمق فيه ما يكفي من الإقلاق في قالب تعبيري جاهز قادني أساتذتي طيّبو الذكر والادراك السليم إلى اعتباره أخرق: «عبادة الأشخاص». وبديهي تماماً أن لا مكان لمثل هذا اللامدرك في النظرية الماركسية. لكن الوقائع في التاريخ العالمي، من نينوى إلى «پيو نغيانغ»[19]، مروراً بنجارست وكنشاسا[20]، تعاند، بمدرك أو بلا مدرك. وإذا كانت النظرية الماركسية تهزأ من هذا، فإن الأمر نفسه ما فتئ يبدي استعداداً ضارياً للهزء بالنظرية. فماذا ينبغي أن تكون السلطة السياسية لتدعو باستمرار إلى تجسيد القضايا في الأشخاص؟ وماذا ينبغي أن يكون الرئيس الأعلى لبلد في نظر تابعيه لكي يصبح «ديونيسوس» أو «هرقل»، أو «منتمياً» إلى الآلهة كما كانت الحال قديماً و«عبقرياً» كما هي اليوم؟ وضبط المرء نظرته إلى الشخصية المحتملة التي يتحلى بها أحد الأفراد تمام التحلّي هو لسبر أن معضلة المعضلات ليست، والحالة هذه، في ستالين (أو ماوتسي تونغ أو تشاوشسكو أو كيم ايل سونغ)، وإنما هي في كلمة «عبادة»، ولإخفاء الثابتة الانثروبولوجية تحت الظرف السياسي. ونادراً ما يحلّ المرء المعضلات برفضه طرحها على نفسه. فلم تؤدِّ الشكوى المبينة من «عبادة الأشخاص الحاكمين» إلى «اختفائها» سياسياً، لا عبر العالم بعامة ولا في حمى العالم «الاشتراكي» بخاصة (حيث لا يُدرى إذا كانت المسألة قد احرزت تقدّماً منذ المؤتمر العشرين، إن لم نقل تقهقراً). وذلك لسبب ما. ولاعترف أخيراً بأن أكثر ما هزّني شخصياً غداة مناوشات الروس والصينيين - على جانبي نهر «التنّين الاسود»- التي أسالت حديثاً كثيراً من الحبر، هو كلمة من ثلاثة مقاطع[21] لم يتح لها أن تسترعي انتباه أي من المعلّقين: فقد كان كل من الحزبيين الشيوعيين يدعو في بلاغاته على التوالي، في وقت واحد وبالاحتفالية ذاتها، إلى الدفاع عن «تراب الوطن المقدّس». وهذه حبة رمل أخرى في آلاتنا الادراكية كان على رفاقي استبعادها بايماءة غيظ. وكانت تلك، والحق يقال، الحقبة التي استُقبل فيها بباريس ونُظّر أعجب هذيان ديني في القرن العشرين- الماويّة- من قبل أدمغة مفكرة باردة، بما في ذلك جماعة من أساتذة الفلسفة، بوصفه المرحلة العليا للعقلانية التاريخية. وأذكر أنني سمعت في

بوليفيا عبر جهاز ترانسستور، خلال إذاعات باللغة الاسبانية من راديو بكين، عن رحلة طويلة، لم تقدم إلى «الرفاق والأصدقاء في العالم بأسره» على انها رمز أو مثال بل حقيقة واقعة ومثلى، قامت بها فلاحة طنزانية عجوز قطعت فيها ثلاثمائة كيلومتر على الأقدام لتأتي إلى العاصمة وتلمس بيديها، في قنصلية الصين الشعبية، صورة «قائد الدفّة العظيم» والمرشد الأعلى للبروليتاريا العالمية.

وقد أضاف المذيع انها ماتت منهوكة في اليوم التالي وهي تطفح بشراً وحبوراً. وحتى أعداء الايقونات لا يحطّمون إلا ما يمكنهم استبداله من التماثيل التي كانت تقدم إليها النذور. وقد حدث هذا، وأسوأ منه بكثير، عام ١٩٧٠ دون أن يزعج في الظاهر غير المؤمنين في أحسن معاهد فرنسا ممن يعتقدون بأنهم انتهوا اليوم من ستالينيتهم أو ماويّتهم لأنهم التقوا مذّاك أشخاصاً يماثلون الله في عظمتهم، من أمثال ريمون آرون وآية الله (الخميني)، ورئيس الولايات المتحدة، وبوب مارلي. وقد كتبت هذا الكتاب لأفهم لماذا يكون المذيع والفلاّحة وكبار الأساتذة على حق دائماً بطريقتهم الخاصة؛ وإلى أي منطق يستجيب غباؤنا اليومي. وهو مكتوب بهذا المعنى من الذاكرة، ووفاء لسؤالين صغيرين أو ثلاثة ما زالت تعترض حلقي منذ عشر سنين أو خمس عشرة، ورفضت ابتلاعها بلا أبالية، لحساب الزمن الذي يمرّ، خشية لفظها غداً نيئة تماماً، وبلون آخر (أسود أو وردي أو أخضر). وإذا كان الزمن السياسي هو بالضبط الزمن الذي لا يمرّ، كما يظن هذا «الكتاب» أن في مكنته اثباته، فإنني أكون على الأقل قد تعلمت لماذا يفأفىء التاريخ، وتعلمت ألا انظر إلى فواقه على أنه نهاية العالم. ولا إلى بصقاتي على أنها ماء مقدس.

وكما أن غنى المجتمعات التي يسود فيها نهج الانتاج الرأسمالي يبدو وكأنه ركام ضخم من السلع، كذلك تبدو فتوة المجتمعات التي تسود فيها «مرحلة الانتقال الاشتراكية» وكأنها ركام ضخم من الاحتفالات. ففي مواجهة مجتمعات الاستهلاك تقوم مجتمعات الاحتفالات التذكارية. والاحتفال هو البضاعة الخاصة بـ «الاشتراكية القائمة في الواقع» (تعوّض الوفرة في الحقل الأول القلة في الحقل الثاني شئنا ذلك أم أبينا). وتحليله، بقصد محاكاة مستهل كتاب «رأس المال» على كل حال، «سيكون بالتالي منطلق ابحاثنا». وهو تحليل لن نشرع فيه هنا مشيرين منذ البدء إلى هذه الحقيقة البديهية: إنه من المنحدر الذي يقود من قلب نظام الدولة القائمة إلى انشاء دول غير قابلة للغرق تقريباً، تبدأ الثورات بالعيد وتنتهي بالاحتفال الذي هو عيد ذو طقوس (وعليه لن تكون الخلاصة «ما نفع الثورة؟» وانما «ما نفع الاحتفالات؟»). ولذلك كان قد سبق لي العلم- مسترشداً بالبصيرة، وقبل أن اندفع في خضم تاريخ الأديان المقارن بكثير- بأن المجتمعات التي ينتصب فيها «الالحاد العلمي» عقيدة للدولة تنضح بالتديّن من جميع مساماتها. والفعل «تنضح» غير ملائم لأنه قد يوحي بالقذارة. فالافراز نشاط رسمي، بل هو عُصاب تنظيمي توظّف فيه هذه التكويناتُ الاجتماعيةُ- أتحدث عن النماذج الأصلية، مستثنياً بالطبع بلداناً مثل بلدان شرقي أوروبا حيث «الاشتراكية» مستوردة- أكثر من نخوتها وجميع عناياتها، عنيت روح روحها. ففي البلدان المركزية لـ «الاشتراكية الواقعية»، تتجلى الحياة الجماعية وتُستنفد في ترنيمة لا تنقطع، في الحماسة المتكررة خلال المسيرات الشعبية، والاستعراضات العسكرية، والمواكب، والاحتفالات بذكرى التأسيس، والافتتاحات، والاختتامات، والمهرجانات، والمؤتمرات، وحفلات التكريم، والجنائز، والزيارات، واللقاءات، والحفلات الساهرة، والمعارض، وحفلات الاستقبال، والخطب القصيرة، والاجتماعات لأداء اليمين، واحتفالات تقليد الأوسمة، أو الأوشحة، أو المداليات، وحفلات توزيع الشهادات، أو حُزَم الاعلام الصغيرة، الخ.. ويبدو تنظيم الحفلات هنا وكأنه الوظيفة الأولى للسلطات العامة، وظيفة ليست تقنية وانما هي سياسية تماماً، وكأن البروتوكول، هاجس الحياة الجماعية ومادتها، ليس خدمة إدارية بين خدمات أخرى، وإنما هو المظهر المباشر والمادي لنفوذ الدولة. والمجتمع المدني الذي امتصّه في واقع الحال الحزب- الدولة، هو كل الوجود الاجتماعي الذي نراه، لا محوطاً بل مصادَراً ومجمّداً في أبّهة الطقوس المدنية، أي هذه المشاهد التي لا تؤلف مواكبة للأخبار اليومية (الصحافة والإذاعة والتلفزيون والاعلانات الخ) وإنما تؤلف مادتها الأساسية. فالزخرف يحل محلّ النسج، والديكور يقوم مقام العرض المسرحي نفسه.

معلوم أن لفظ ديانة مستبعد (بتهمة التجديف) من القاموس الشيوعي الذي لا يخشى مع ذلك أن يعطي المقام الاسمى لـ «الاحتفالات»، ويستقبل بالترحات «فخامة» التظاهرات الجماهيرية. والحركة الشيوعية التي لا تستطيع اخفاء تمسكها «بإقامة الطّقوس»[٢٢]، ولا عصر كهّانها الأكبر، تهتم أكثر من كل أحد بالممارسات والمبادئ «الطقسية». وللحديث عن التديّن الخاص باجتماع ما (اجتماع خليّة أو شعبة) في مسامع أحد المسؤولين وقع الاستفزاز، بل وقع الترّهات (الأغنية معروفة: «مونيرو وسيلون» الخ...). وكأن الأمر بحاجة إلى الكلمة ليكون. أو كأن وجود الأمر في كل مكان لم يكن ليفترض بالضبط غياب الكلمة. فخلال نحو ألف سنة،

صهرت «المدينة- الكنيسة» في اليونان القديمة، شأنها شأن العهد الروماني بشطريه الجمهوري والأمبراطوري، الحياة السياسية والحياة الدينية دون أن تلجأ إلى لفظة «ديانة». ولنذكّر بأنه ليس لهذه اللفظة مقابل في اللغة اليونانية؛ وأن ترجمة كلمة «religio» اللاتينية (التي لم تكتسب مفهومها الحالي الامع لوكريس[٢٣] وشيشرون[٢٤]) بـ «الآلهة والاحتفالات» قد تكون أقل الترجمات بعداً عن الصحة. وإذا اضفنا أن العهود القديمة، الاغريقية والرومانية على السواء، لم تعرف لا الأورثوذكسية، ولا المعتقد، ولا الكهنوت، وافقنا على أن نصيب قوانين المراعاة العامة (الجمهورية إذا كان ذلك أفضل) من الصرامة قد زاد أكثر مما نقص.

وما كانت المفارقة التاريخية المقلقة لهذه «المجتمعات الجديدة» لتزودني قط بالرغبة في الضحك باستهزاء. فهي بوصفها متساوية الحدّين تقدم الأجود والأسوأ. وقد تثير الابتسام بجدّها الرديء شبه المؤثر: مظهر العواصم الاشتراكية المماثل لمظهر «مدن الأقاليم»، والملابس والعادات التي لم تعد دارجة، والشيء المتكلف المثير للضحك الذي يطبع الحياة اليومية ولا يكاد يستحق الذكر. وقد تثير الخوف بجدّها الفظّ الجافي المفضّل في الغرب: الخشونة الاستبدادية، والنفوس الميتة تحتل المكاتب، وعبادة الزعيم. وتطبيق شعار سبينونوزا القائل «لا ينبغي أن نهزأ، ولا ينبغي أن نبكي، وإنما ينبغي أن نتفهّم». على النصف الآخر من العالم يفترض التخلص من عبء الكليشيهات المكابر. ويبقى أمر الإرهاب أشد الأمور بهراً بالطبع لإخفائه الخصيصة الدائمة التي تُخشى أكثر ما تُخشى في «الاشتراكية الواقعية»، ألا وهي السأم. فلقد رأينا، ونرى، وسوف نرى أكثر فأكثر، مجتمعات «اشتراكية» بلا معسكر اعتقال، إن لم يكن- وهذه ميزة كبرى لها على الغرب- بلا سجناء سياسيين؛ والمسألة الحقيقية هي في معرفة ما إذا كان بالامكان أو لا رؤية مجتمعات اشتراكية ليس فيها مكان للسأم تطفو على سطح الوجود. وبانتظار (دراسة جدية لأسس السأم الاجتماعي وطرقه، أعتبرها حجر الزاوية لأية انثروبولوجيا اشتراكية في المستقبل) نبدأ بالإحاطة بالمفهوم- الحاجز الخاص بـ «نظام الحكم المطلق». وقد قيل فيه إنه يدعو إلى البلبلة بوصفه يخلط بين انظمة سياسية يعارض احدها الآخر في الواقع بـ «مضمونه الطبقي». وأنا اعتقد بالعكس أنه باهر بوصفه «تمييزياً». وليس ذلك لأنه لا يوجد في النباتية المؤسسية جنس فريد تميزه الاضمامة «حزب- دولة- مجتمع». وقد يكون هذا هو المضمون الوحيد الممكن عزوه إلى هذا الشكل- المبرز لـ «نظام الحكم المطلق»، الذي يحسُن تركه لـ «الدراسات السياسية»، كما هو عنوان الدراسة التي تحمل طابع القرون الوسطى لأشكال السيادة الحديثة. فليست خطيطة «الحكم المطلق»، من وجهة البحث في فرضيات الوجود السياسي، فاعلة أبداً، لأنها تخفي استمرار الوظائف تحت تنوّع الأجهزة، وتطرح تبايناً في الطبيعة بين شكلين من أشكال التنظيم الاجتماعي، ساترة بذلك شروطهما المشتركة في إمكان الوجود. وفي ترسانة «علومنا السياسية» يؤدي «نظام الحكم المطلق» تقريباً الأدوار التي كان «التعصّب» يؤديها في «عصر النور»[٢٥]، أو «الطوطمية» في الاتنولوجيا البدائية: ذريعة جهل وطقس تعزيم لطرد الشيطان. إنه يتيح اعتبار الكواكب المجموعة بهذا الشكل خارجة على النظام الطبيعي، أو كأنها انحراف أو اختلال لا علاقة له بنظامنا السويّ. فهم همج ونحن متمدّنون؛ هم مرضى ونحن أسوياء؛ هم متعصّبون ونحن متسامحون؛ هم مستبدّون ونحن ديمقراطيّون. انهم خطرون ونحن غير مؤذين. وإذا كان إفريز المعرفة، في كل مكان تقريباً، قد صدّع قواطع العقل الهاجع، فإنها ما تزال صامدة في مسكننا السياسي. وقد اثبتت المعرفة عن طريق المواقف- الحدود أنها منهج خصب في العلوم الإنسانية، وها هي الجذور تتعرى حتى أطرافها. أما الاشتراكية الشرقية فتنقلنا إلى حافات الكون السياسي حيث تنفجر ذاكرتنا ولا من مُدافع.

«إذا أراد المرء دراسة الناس فعليه أن ينظر قريباً منه؛ ولكن عليه لدراسة الإنسان أن يسّرح نظرة بعيداً؛ وينبغي قبل كل شيء ملاحظة الفروق لاكتشاف «الخصائص» («بحث في أصل اللغات»، الفصل الثامن). ولقد تعلمت مثل كل الناس شعار مؤسس علوم الإنسان، جان جاك روسّو. فكان ان سرّحت نظري وخطاي بعيداً، وبدأت بالتالي أرى عن كثب وفي وقت معاً، طرفي الخاص وما يبقى من ثابت عبر تنوّع الظروف. وأتاحت لي ملاحظة الفروق بين الأشكال القائمة للهيمنة السياسية أن ألمح نوعاً من الهوية للهيمنة نفسها، متقاطعة مع خطوط العرض ومع الحقب، هازئة بالحدود والدساتير. ولابد أن روسّو في «مقالته عن أصل التفاوت» قد لجأ إلى خيال نظري، خيال «الفطرة الصرف» التي «لا وجود لها، والتي ربما لم تكن موجودة يوماً، والتي قد لا يكون لها وجود قط في يوم من الأيام»؛ وعلى الرغم من أنه قد يكون اختار تنحية الوقائع، فإنه لم يغفل أن يستخدم عُدة الاستقصاء المتاحة آنذاك: المتوحشون- سكان جزر الكاراييب والهوتانتو[٢٦]-الذين لم يكونوا «المتوحش»، وإنما أولئك الذين هم أقل ما يكونون بُعداً عنه، والذين كانت تبايناتهم بالنسبة إلى درجة الصفر في التمدن من الضعف بحيث لا تمكّن من إضفاء شبه واقع على وَهْم الأصل. أفلا يمكن، في استقصاء عن اشكال الاندماج السياسي وقواعده، ان يُعطى الإنسان

الاجتماعي الوظيفة التي يشغلها إنسان الغابة في ابحاث روسّو عن «أسس المجتمع المدني»؟ بفارق بسيط، فارق لا ينبغي اسقاطه، هو أن الإنسان الأول موجود، وأنه يعيش ويتناسل عملياً أمام ابصارنا، وأننا لسنا قط بحاجة للرجوع إلى المقالات الوصفية التي حررها «بوغانفي»[٢٧] أو «كوك»[٢٨] لنعرف ما يُشبِه. وأين سنرى حسن سير الأجهزة العامة للمؤسسة بأفضل مما نراه عبر الأنظمة المتفوقة في مؤسساتها؟ وأين سنجد «استبدالاً لأمن بتبعية» هذا المفترق الذي يلتقي عنده الأساس السياسي لشرعة الإخلاص الدينية والأساس الديني لشرعة الواجب السياسية، معروضاً لنواظرنا بشكل أكثر سذاجة وبالحجم الطبيعي؟ لقد كان «شعار للإله» مفتتح القربان قديماً بين الإنسان والآلهة. وهنا ينظم شعار «خذ وأعطِ» الاتفاق الحيّ بين الدولة– الحزب والفرد الاجتماعي: «أدِّ خدمتك العسكرية، شارك في حفلاتنا، ولكن لا تتدخل في اعمالي، وفي مقابل ذلك أؤمّن لك العمل، والعناية الطبية، والأمان في الشوارع، والطمأنينة في غدك، وكذلك المستقبل لأولادك. دعني أحكم على هواي فوق، وأدعك تتدبر أمرك كما يحلو لك تحت. الإدارة العليا لي، والانتاجية السفلى لك.» وحين لا يكون الأجنبي هو الذي يفرض ذلك، يُوقَّع العقدُ باليدين، بشكل جماعي، وبفم مطبق. وقد اختار عقدنا الاجتماعي الأصلي مقرّاً له ذلك «المتحف» الخاص بالتاريخ الطبيعي الذي تتربّع فيه هذه المجتمعات الرخامية مكينة، وبالحفظ والصون.

ويُفترض أن الضمور الفائق، لا في قيم التراتب– السلطة، والانضباط، والمركزية، والأمن، الخ... وحدها، بل وفي الأجهزة العائدة إليها على التوالي («أجهزة الأمن» مثلاً)، لا يشوّه الوظائف التي تقابلها، وإنما يعيّنها بوضوح؛ وبكلام آخر تؤلف هذه التشويهات عدداً مماثلاً من عمليات النشر والذيوع. ومما لا شك فيه أن «الاشتراكية الحقيقية» تستأهل وصفاً حصرياً كافياً بذاته، باعتبارها نظاماً من الأعمال المتبادلة يشترط كل ملمح من ملامحه ملمحاً آخر، دون علاقة تبادل ظاهرة (التخطيط الاقتصادي، أشكال التواصل الاجتماعي، الخ...)، ولكن إذا كان مبدأ «المجموع» هنا واضحاً، كان علينا أن نتذكر كذلك أنه لصيق بمبدأ الوظيفة الأعم الذي يسبق «الجهاز» ويليه وهو «يوجده». ويكمن عدم احتشام هذه الأشكال السياسية «المتخلّفة» من التنظيم في أنها تُقدِّم بحالة الأجسام الخام ما تستره أنظمة أخرى أو تلطّفه أو تخلط به غيره. وهي، بتحريرها ما تغلّفه مجتمعاتنا الغربية «المتقدّمة» بأقنعة تنكّرية باهتة، تقدّم لكيميائي المادة السياسية الشديدي الميل إلى العمل «في المختبر»، في المكتبة، فرصة خارقة ليجرّبوا في «الجسم الحيّ»، في كتاب العالم الأكبر، فرضيات العمل التي افترضوها.

لقد أدرك روسّو، من غير أن يحاول مع ذلك إيجاد الحلّ، ألاّ معضلة إلا في عمليات الانتقال. انتقال، في زمانه، من الطبيعة إلى الثقافة؛ أي من «الإنسان التائه في غاباته، بلا صناعة، ولا كلام، ولا مأوى، ولا علاقات» إلى الكائن الراشد المرتبط بجسمه السياسي بعقد طوعي. والحق أنه بالإمكان دوماً وضع وصف لحالة بازاء وصف آخر؛ والمسألة الحقيقية هي في فهم ما يقحمه الأول في الثاني. وفي الإمكان دائماً نسخ المنطق الداخلي الخاص ببنية ما، حتى وان لم تظهر على الإطلاق للعين المجردة العلاقات المميزة التي تربط عناصرها بعضها ببعض. والصعوبة هي في أن يُعاد بالتحليل بناء منطق العمليات التي تنظّم الانتقال من بنية إلى أخرى. ويبدو أن الإناسة السياسية تفيد في هذا الصدد من امتيازات تسعى وراءها الإناسة الثقافية على غير طائل (أو هي بالحريّ مكرهة على السعي وراءها في أبعد الأمكنة من الكرة الأرضية وعلى العثور عليها في ملاحظات تتسم بأكثر الشاشات ابهاماً). والحق ان نهار الزمان السياسي يشرق كل صباح لناظرينا، وعملاء المؤسسة هم انفسهم دارسو اعراقها. ان وثائقنا المحفوظة تنشر في صحيفة الظهيرة؛ وموادّنا تتكدّس على الجدران، وفي الاكشاك، وعلى الشاشة الصغيرة؛ وكل يوم يجدّدها بالشكل الذي هي عليه. وكان ينبغي أن يكون العالم بأسره مختبرنا. ولكن العالم الثالث يقود طليعة البحث، اذ فيه لا في مكان آخر يمكن رؤية ما كان متحداً ينفصل، وما كان منفصلاً يتّحد، ورؤية أمم تتلاشى، ومقاطعات ترسم حدودها، و«أنظمة اجتماعية» قيد التجربة، ورؤوس أموال تظهر حيث لم يكن، قبل ذلك بعشر سنوات، سوى الرمل والعشب. وباختصار، فهاهنا تتمّ مفاجأة الأمر السياسي وهو يولد. ونحن لا يعنينا سوى الولادات.

إن «العدم» الذي سبق الخليقة نعرف ما هو او نفترضه، و«الفضاء الكوني» نعرف كذلك ما هو، أو نفترضه. ولكن ماذا نعرف عن تحوّل احدهما إلى الآخر؟ من البرق الخالق الذي قال به «أنا كسياندروس»[٢٩] إلى ضجّة الأمس الكبرى، أو من النظريات الايونية في تفسير الكون إلى الفيزياء الفلكية؛ لقد زادت مصداقية الأجوبة، وأما الطبيعة المنطقية للمسألة فلم تتغير بشكل أساسي، وهي كيف يتم الانتقال من نمط وجود للمادة إلى نمط آخر، ومن السديميّات الغازيّة إلى النجوم، ومن النجوم في حالة التكوّن إلى الأنظمة الكوكبية؟ ومهما اختلفت الأحوال فإن نواة النوى في نظرنا، هنا كما في

مكان آخر، واليوم كما غداً، هي الانتقال من الفوضى إلى النظام، من «اللامنظم» إلى «التنظيم». وقد يبدو ذلك للوهلة الأولى وكأنه المقابل المنطقي المتسلسل زمانياً لذلك الذي أقضّ مضجع القرن الثامن عشر. فبدلاً من التماس خط الانتقال الأمثل الفاصل بين ما هو متمدن وما هو طبيعي، أو بين ما هو منحلّ وما هو أصلي، قد يكون الأمر هنا أمر رسم الطريق العكسي من جديد. إنه مذّاك عملية عكس للطريق المختصر الكاشف: فالتجربة المناسبة، انفعالية كانت أو نظرية، لا ترتجى قط من ظهور مباغت لـ «هندي غواياكي» وسط مضاءة، ولا من غمغمات «الطفل المتوحش» الذي انتزع من قرود الشمبنزي؛ لكنّ هزة بالحدّة نفسها ينبغي أن تنتابنا حين نشهد، في مدى بضعة أسابيع، فوق أرض اجتاحتها الحرب الأهلية، وفوضى الأحكام، وعواقب زلزال، وتركتها شبه بلقع، نشهد ولادة دولة جديدة (لا مجرد إعادة بناء القديمة)؛ أو كذلك، وبدرجة أدنى، حين يجتمع شتات حفنة من الثائرين عند منفذ لسيل في الغابة، ويُرتجل معسكر مركزي بكل ما يستتبعه: توزيع المهام، ورتب القيادة، وقواعد الانضباط، ومراكز الحراسة، واشارات التعارف الخ.. وما كنا لنتخذ من بلورة قوة مسلحة أولى، والقبض على جماعة مقاومة، وتكوين نواة منظمة في ظروف البقاء الواضحة، رمزاً ولا تعبيراً مجازياً، فهي «شيئنا بالذات».

ومفهوم الأمر السياسي موجود في السياسة وهي في طور الولادة؛ وسر هذه الأشياء هو في الشيء نفسه. فلقد أصبح «مولد القيادة» (فوكو)[٣٠] ممكناً بدمج الموت عن طريق دراسة العلوم دراسة نقدية في التجربة الطبية. ولنراهن على أن ولادة علم سياسي وضعي سوف تسلك الطريق العكسي، وأنه سوف يستبدل بالقول «انظروا إلى بعض أجنّة الدولة» القول «شرّحوا بعض الجثث». وإن ما كانت تجربة علم التشريح المرضي تتوقعه من عملية التشريح- أي جعل ما لا يرى مرئياً، أو تتبع المرض وملاحقة تقلباته بالعين- يمكن التماسه في تأسيس عمليات الهدم والتخريب التي تطفو فيها على السطح الأجهزة المستترة المنظمة لسير النظام. والجماعة تعكس القطبين الأساسيين، فإذا الموت نواة الفرد الغنائية، والموقع الذي منه يكتشف أنه لا بديل عنه، والذي يدين له بأنه شاعر، والذي يبعثه على الغناء. وإذا الولادة هي للجماعات النواة الغنائية التي تشعرهم بتميّزهم الذي يلهب استحضاره حماسة جمهور من الجماهير ويلقي بالنشيد في فمه. وهناك شيء من المنطق في هذا التوزيع الغنائي. ولذا فإنه من المفيد التفلّت من إغراءات الفوضى الفردوسية، هذه السرابات الخلابة المودعة بعيداً في «المجتمعات المناهضة لفكرة الدولة»، المجتمعات التي لا تُرى قطّ في أيّ مكان ولكن يُتحدث عنها باستمرار. ولن يجد الأمر السياسي مُدركه في موضوع الأعراق، بل في «الانتقال» من البرد إلى الحرارة، عند موصل علم السلالات بالتاريخ، وبالضبط عند المخرج من «جنة عدن»، أي حيث يتحطم الحلم.

وما إن يرغب المرء حقاً (أجل، هذا بالواقع، في البداية) في تجشّم النظر إلى المسارات الشهيرة لبناء «المجتمع الجديد» على أنها عمليات بناء جديدة لمجتمع بلا نعوت، حتى تنقلب مغامرات العالم الثالث التقدمية إلى رجعات ورعة للينابيع. وتضجّ في اسماعنا داخل ورش التكوين التي تصنع فيها بنى الكائن- المجموعة، ويشي فيها تكوّن البنى ببنية التكوينات السياسية، اصوات مثل: «ولادة أمة»، و«بلد في طور البناء»، و«دولة في مخاض». وعند مسالح القدسي الاجتماعي، وعلى التخوم الرجراجة المهدَّدة على الدوام التي تفصل بين الفوضى والنظـــام، تستكشف الثورات المعاصرة الماضي الجماعي، وتكرر ولادة الجماعات. ويخلف «الحرس الشبّان» مجموعة الحرس الشيوخ المتقاعدين، والحرسُ الحمر الحرسَ البيض. وينوبون عنهم في حمل النصيب ذاته من الصور وطرائق السلوك والشعارات، بحذافيرها في بعض الأحيان. لكن الفرنسي الليبرالي المهذّب- في زمن السلم والازدهار- الذي يسوؤه ان يقرأ على لافتات «هاڤانا» هذا القَسَم الدالّ على التسليم المطلق: «قائد ما دمت راغباً، وحيثما شئت، ومتى شئت»، يجهل ولا ريب أن ديكارتياً مسّته نار الحماسة لا يفلت من النار المقدّسة، كهذا الديغولي الكبير الذي كان يهتف عام ١٩٤٣ في لندن: «قدر ما شئتَ يا جنرالي، قدر ما شئتِ يا فرنسا». و«فوق الصراعات السياسية» كان ينتصب حينذاك «وجه فرنسا الحربي الرهيب». وإنه لتغفو أوطان وتنهض أخرى، وأما الحرب فتبسط قانونها وكأنه طليعة القوانين. وأما قوانين البقاء الجماعي فلا تُقرّ بعدم صلاحها. ولسوف يعجب شابّنا المتنوّر من حماسة «الكومپانييروس»[٣١] الورعة وهم يحتفلون بذكرى «٢٦ تموز» اليوم الذي أبصروا فيه النور، ناسين أن هناك «رفاقاً» آخرين في «عملية تحرير» أخرى يبدون الحماسة نفسها كلما جاء الثامن عشر من حزيران في «مون ڤاليريان»[٣٢]. وأوقات بزوغ الفجر في تاريخ الشعوب قاسية، وأوقات الغروب محتشمة. فقد جفّ عندنا الدم المؤسس لدولة القانون وجمد في مواد القانون وبنوده، وتخثر في زخارف وتلبيسات، واختفت مستنقعات «الباستيل» أو مستنقعات «أيلول» تحت بسط «الأوبيسون» في قصور «الجمهورية»، مع أنها، أو لأنها ألزبت أسسها (من الجمهورية الأولى إلى الخامسة مروراً بالرابعة). وذكرانا في «١٤ تموز» هي ذكرى

اتحاد القلوب في «شان دو مارس»،[٣٣]وليست ذكر الاستيلاء على «الباستيل». واحتفالاتنا السنوية «بالتحرير» هي بـ «لو كلير»[٣٤]، و«قوات فرنسا الحرة»، وليس- ليس على الأخص- بالأعمدة التي كان يقيّد إليها من رُموا بالرصاص، ولا بالنساء اللواتي حلقت شعورهن. وفي إمكان مجتمعاتنا المتقدّمة بعدما قرّبت القرابين الكثيرة وغنّت كثيراً وقطعت الكثير من الرؤوس، وبعد أن بنتْ أنفسها على هذه الشاكلة طوال العصور، ان تستبيح الإجفال امام هذه الزمر المتخلّفة- خضراء كانت أو حمراء أو سوداء- التي تقرّب القرابين وتغنّي وتُعدِم رمياً بالرصاص اينما كانت.

إن الدوران حول المحيط الخارجي المزعوم يقدّم لما يدّعي أنه المركز أقصر خط ما يزال في مكنته خطّه بين سطوحه وأسسه، بين حالته الحاضرة وشروط تكوين هذه الحالة. وروسّو الذي كان يحدس بأن أغرب الأشياء عنّا هي التي من حميم حميمنا، كان يتألم لزوال الفطرة منفلتةً من كل قبضة. وكان يقول إنه لكي نحسن الحكم على حالتنا الحاضرة وتكوين مفهوم صحيح للحقّ الطبيعي ينبغي على الأقل أن نعرف كيف كان الإنسان حين خرج عارياً تماماً من بين يدي الألوهية. علماً بأن الطبيعة قد ضاعت إذ أفسدها التقدّم في كل مكان. ولا نعثر عليها إلا في انفسنا وبأنفسنا بواسطة حسّنا الداخلي: على هذا يغدو عالمُ السلالاتِ الحقّ الفيلسوفَ الذي يستطيع معرفة بدائية الإنسان دون أن يبرح غرفته. وبالمقابل فإننا لو حملنا محمل الجدّ الفكرة المبتذلة القائلة بأن التنقلات في الفضاء هي رحلات في الزمان (وأنني في لوس انجلوس أتسكّع في قرننا الحادي والعشرين، وأن القرية الفلانية في اثيوبيا تعكسني في قلب القرن العاشر، الخ...) لألفينا ان العالم بالإناسة السياسية يزاول مهنته بنفي نفسه، بل إنه قد لا يحسن مزاولتها كما ينبغي إن لم يجعل من نفسه مغامراً بعض الشيء، أو سائحاً في «دنيا المغامرة» على الأقل. إنه ينال شهادة الأستاذية وهو «يقوم بالثورة»، أي وهو لا يقوم بها، (ليس هناك نجاحات كثيرة في مدى جيل واحد)؛ ويكون النضال سنته التمهيدية إلى الإجازة. وبعد ذلك ينبغي عليه لكي «يستغلّ» عدّته أن يعود إلى بيته ويعيد بطاقته. فليس في وسع المرء أن يتحزّب وأن يفهم في المدة نفسها «الظاهرة التي هي الحزب». وعندها لا يكون أقل الأمور مدعاة إلى الاستغراب أن يرى «إجازته التعليمية» تسحب منه وقد أصبح لديه أخيراً ما يعلّمه، والمنحة تقطع عنه (أو الراتب، أو النفقة، أو القرض الخ...)، وجميع أبواب المؤسسة تغلق في وجهه. وإنه لحق أن يقال لي إنني من وجهة أكاديمية قد أضعت وقتي في التسكّع هرباً من المدرسة. ومن الخطل أن يقول المرء لنفسه إن متشرّداً في السياسة لا يمكن أن يكون فيه إلا ماجن في العلوم السياسية. ذلك أن ما يبدو لي مستحيلاً تجاوزه هو الشطط الذي يتصف به عدد من الاعمال الشهيرة بأنها علمية لدى متعاطيها؛ وقل الشيء نفسه في الطابع الفظّ كل الفظاظة، أو بالحري الطابع العمهيّ لأشد الهذيانات السياسية رواجاً بين الطلائع الثقافية عندنا- حيث يمكن رؤية أصدق الإمارات على خفّتها من الوجهة النظرية؛ وما أصحّ الرأي القائل بأن النظرية التي لا تقبل ترجمة عملية على المدى الطويل ليست بنظرية بل هي مخرقة. ولا أستطيع دفع الاعتقاد بأنه إنْ وُجدت في قابل البحث حبّة من تركيز جديرة بالبقاء في غربال الممارسة الفعلية فإنما أدين بها لتطوّفي بين متوحشي السياسة، من ناحية «الحالة الفطرية» للوجود الجماعي.

الحاصل، ماذا كانت المفاجأة السياسية الكبرى للقرن العشرين- قرن أشد الانقلابات التقنية والاجتماعية التي عرفتها البشرية سطوعاً- لتكون، لو لم تكن اكتشاف انه ليس هناك في النتيجة من مفاجأة؟ وإننا لا نزال مذهولين لذلك كل الذهول، مشدوهين لأن ذهولنا كان قبل قليلاً جداً. ولا ريب في أنّ على من يعدّ الأيام ان يعلن في نهاية كل عقد من السنين: «لن يكون بعدُ شيء كما كان قبلاً». وإنها لعبارة صحفي أو مشتغل بالسياسة. وأما في يوم الحسابات، في آخر القرن أو نهاية الحياة، فالواقع يفرض هذه التمتمة: «لقد كان بعدُ بالاجمال كما كان قبلُ». أهي عبارة كاتب مذكرات أم عبارة مؤرخ؟ بعد أي شيء؟ بعد «الثورة»[٣٥]. بعد «المحرقة»[٣٦]بعد «المقاومة»[٣٧]. بعد «المؤتمر العشرين»[٣٨]. بعد «أيار (مايو) ١٩٦٨»[٣٩]. بعد الانتخابات الأخيرة[٤٠] الخ... وتتردّد اللازمة في كتب السير الذاتية، والقوائم الاحصائية، وشهادات الشهود، والمذكرات، من جيل إلى آخر، وفي جميع المعسكرات والاتجاهات: «مع أننا كنا قد حلمنا بعكس ما جرى، واستمتنا في العمل لبلوغه، وها هو الحلم يتحطم، فقم يا هذا كما في السابق وأعد لي من جديد كل ذلك». وكأنما لم يفرغ بعد من حلّ بعض العقد المستعصية، أو من إعادة الارتباط بماضٍ ذميم منسوخ «لا يمكن تصوُّره»؛ أو كأن قسراً شيطانياً على المعاودة يستميت في جعل قولاتنا «هذا لن يتكرر أبداً» اضحوكة وسخرية. وقد يكون علينا تأليف ديوان كامل، ديوان المباغتة من الخلف، أو ديوان العودة- المفاجأة. وآخر مثال له، مقتطف من صحيفة الأمس، بقلم مناضل شيوعي (باريس، ١٩٨٠) هو: «تُشهد عودةٌ كان يُظنّ أنها مستحيلة، ألا وهي العودة إلى عبادة الشخصية». وإنها لطويلة طول يوم الجوع قائمة العودات المستحيلة التي شهدناها جميعاً، كل من زاويته وبألوانه. ولا تزال مقتطفات منها

محفوظة على الورق. ورجحت في الواقع كفّة أثقال قومية واتصالات عرقية أو ثقافية خفية، على سطح الكرة الأرضية وسطح الأشياء، في الأماكن التي كان ينتظر فيها مفعول لعملية انقطاع. وحتى إذا كانت حكمة «سفر الجامعة» الفارغة جديرة بأن تجعل امثال «جوزيف برودوم»[٤١] في الجغرافيا السياسية ينتفخون من جديد دورياً، فإنه صحيح أن هذه اللزوجات التاريخية تدلّ على مفارقة عقلانية: ليس التباين هو الذي يشكل اليوم معضلة، وإنما الذي يشكلها هو الديمومة. ولقد كانت حلول ماضينا النظرية تبدو للمستقبل حلول استمرار؛ الاستمرار الذي يتمتع حاضراً بأوفر عافية، فشكراً جزيلاً. والفكرة القائلة مثلاً بـ«وجود (تباين في الطبيعة) بين السياسة البرجوازية والسياسة البروليتارية»، هذا الطرح الذي هو في أساس الماركسية، اضطرت للعودة إلى المكتبة باتجاه رسائل الدكتوراة. وقد تكون الماركسية دشنت «ممارسة جديدة للفلسفة» (كما يقول التوسير)، لكن هذه الممارسة لم تعبر عنها ممارسة جديدة للسياسة. وقد تكون المادية التاريخية أبدلت المفهوم الكلاسيكي القديم للإنسان «لا بمفهوم آخر» بل بمفهوم من نوع آخر» (كما يقول سيف)، ولكنها بالتأكيد لم تبدل الممارسات القديمة للسلطة بممارسات من نوع آخر. ومن الممكن أن تدور بين الفلاسفة مناقشة جادّة في ما إذا كانت قد حدثت أو لم تحدث قطيعة مع الماضي الهيغلي، ولكنه من غير الممكن أن تدور بين المؤرخين مناقشة جادّة في ما إذا كان قد حدث أو لم يحدث بعد «الثورة الاشتراكية» تصدُّعٌ في طريقة حكم البشر. ولنقل إنه لو كانت ثورة ماركس ولينين قد أدخلت سياسة الماركسيين- اللينينيين «عالماً جديداً» لآل أمر ذلك إلى الذيوع. وهذه الشقّة بين الانقلابات الادراكية والتكرارات الواقعية هي من البعد والثبات بحيث لا يزال يُرى فيها، مع المعتقدين بصحة الرأي الماركسي، أثرُ عَثَراتٍ، وتلجلجات، واختلالات موقتة (من الممارسة إلى النظرية) لن تلبث أن يستقيم أمرها ببطء لدى اختفاء التخلّف الاجتماعي، والتأخر الاقتصادي، والانحرافات، والأخطاء في التوجيه الخ.. أولاً بأول. وفي المقابل، فإن هذا المدى مألوف بقدر كافٍ، ويقدّم كثيراً من وجوه الشبه لحالات من المجتمع والتاريخ بعيدة جداً في الزمن والمدى والالهام العقدي، كي يُستمر بأن يُرى فيه حتى الآن، مع المعتقدين بصحة الرأي البرجوازي، أثرُ انحرافاتٍ وشواذٌ لنظرية مشؤومة. وهذان المديحان المتناقضان في رمزيها- مهما تكن صحة مسوّغاتها الظرافية- يتملّصان في نظرنا من السؤال المركزي: ما العلاقة بين الفكر النظري والفكر السياسي؟ وما الذي يميّز مدى الفكرة من مدى العمل؟ وعلى كل حال فقد يكون تحميل النظرية الماركسية مسؤولية وعودها المطولة من قبيل الاحتباس داخل دائرة «التهمة» (المعروفة بـ«الخطأ خطأ ماركس»). وإنه لتجديف لا يزال ورعاً جداً يريح من سؤالٍ مزعج بشكل آخر: «ماذا» عن التفاضل؟ فالملاحظة، للهزء أو للرثاء، بأن الماركسيين الذين كانوا يطمحون إلى الخروج على القاعدة لم يستطيعوا الإفلات من ربقتها بأفضل مما أفلت مريدو «ايديولوجية» الجامعة التركية، أو الشيعية، أو الكالڤينية، أو غيرها، نقول إن تلك الملاحظة أمر، والتساؤل عن مضمون القواعد نفسها أمر آخر (واستبدال الإجراء الأول بالإجراء الثاني أمر ثالث: التلويح في مجال الاكتشاف العلمي بوثيقة كتبها الكاتب العدل). وقد يكون من المفيد الفحص عن أسس الاستمرار. وعندها قد تصبح خيباتُ الأمل التي سادت في تلك الحقبة دواعي تحمّس واندفاع. فرح عقلاني بالبحث عن السبب الذي امتنع معه حدوث المفاجأة؛ فرح حسّيّ بالتحرّر إلى غير رجعة من هذه العبودية: انتظار أشد المفاجآت إحباطاً. ثم «الاطمئنان» السياسي، أي «الفرح الناشئ عن أمر مقبل أو عن أمر مضى، والمؤدي إلى انتفاء ما سبّب عدم الاطمئنان» (سپينوزا). الفرح الذي ليس إبراء للنفس، ولا كمالاً مريحاً، بل «انتقال الإنسان من كمال أدنى إلى كمال أعلى»، أي «الفعل» الذي به نزيد قدرتنا على العمل بالتقليل من أوهامنا عن قدرتنا (أو من مجالات عدم الاطمئنان داخل أنفسنا). وأخيراً فإن سدّ الثغرات في تاريخنا سوف يفيد في إطلاق فهمه من عقاله، وليس في إرخاء العنان لأحقادنا. وهل تعني التقدمية الدائبة «محاكاة للقديم البالي» تسير عجلتها بسرعة ويسر من غير محرك؟ وإنها لفرصةٌ مؤاتية لتخليص العلم السياسي من آخر العفونات التطورية. وينقلب الاستعراض القديم لـ «المخلّفات» على نفسه، ما دامت الرواسب تتمتّع بحياة أصلب مما كان متوقّعاً. ولقد كان من الممكن عام ١٩٢٠ الافتراض بأن نواة «الإنسانية العلمية» ستكسر أخيراً غلاف سذاجتها، كما في الاتحاد السوفياتي الفتي الذي لن يلبث وهو في ابان تطوره ان يترك وراءه على طريق اندفاعته الجلود الميتة لـ«روسيا القديسة» الفلاحة المتصوفة. وتشهد القشور اليوم على الزلّة الكبرى. فغداة دفن لينين عام ١٩٢٤ حضر كثير من القرويين إلى الساحة الحمراء في موسكو ومعهم ايقونتهم الصغيرة وقد وضعوا فيها صورة لينين مكان صورة العذراء[٤٢]. ومن ذلك اليوم لم تختف الايقونات مع التصنيع: أصبحت أيقونات لينين مذّاك من اختصاص الفن الصناعي. ولأن يكون العهد تقادم بـ «المخلّفات» حتى غدت «تجديدات للنشاط»؛ ولأن يجد المرء هنا وهناك، «بعد ثورة اشتراكية» (أو بعد «ثورة ثقافية» في بلد «اشتراكي» كبير)

«دولة» و«مصلحة عليا للدولة»، وأيديولوجية ووعياً مغلوطاً، و«رئيساً» وتبجيلاً، وبلادة وجنوح شباب، وسكّيرين وغيارى، واعياناً، ومومياءات و«فاسدين»، فإنه لا يزال بإمكان نظرية هذه الثورة تفسير الأمر بألفاظها الخاصة ودون أن تضطر إلى التنكر لذاتها. وإما أن يكون بعدُ مثل (أن لم يكن أكثر) ما كان قبلاً، فتلك «طفرة نوعية» في النباء لا يمكن لنظرية الطفرات النوعية نفسها أن تفسّرها دون أن تضطر إلى القفز من فوق جدران محبسها الخاص.

وبالإجمال، فإن ما لم يعد مستساغاً في السمع بمرور الزمن هو مقطوعة «المعارف» مهدهدة المعتقد الإنساني القديمة: «سنضرب صفحاً عن الماضي، لكن ذلك لن يكون بضربة واحدة. انتظروا بعدُ قليلاً ستتضح الأمور، فصبراً». والذي ضاع هو الصبر، بقدر ما ضاع الأمل، وهذا من حسن حظ المعرفة. وإنه لصحيح تماماً أن «أدلاّء البشرية في مسيرتها إلى الشيوعية قد سرّعوا دورة الزمن»، لكنهم ولا ريب لم يفعلوا ذلك بالاتجاه الذي كانوا يقدّرون (المفترض بعض الحزم في تمييز اتجاهات أو وجهات، واحد قبل وآخر بعد، واحد في هذا الجانب وواحد في الجانب الآخر في هذا النوع الخاص من الأمكنة). وماذا لو دارت العجلة بالعكس؟ لقد استطاع كل إنسان أن يلحظ أنه حين ينظر من عل، من زاوية اجراءات الحكم، إلى العصرنة التي تنعت بالاشتراكية في امبراطوريات قديمة جداً، فإنها تبدو أقرب نسباً إلى عهد الاقطاع مما هي إلى الرأسمالية (ألا يقال عن الأولاد إنهم أشدُّ شبهاً بجدّهم مما هم بأبيهم؟): اصطناع أقارب، وذبذبة سلالية، وتدابير بلاط، وتبعية وخضوع، وتقسيم للدولة إلى اقطاعات، وعشائر أو زمر، وثورات قصور، ومحاكمات على الهرتقة، وكمائن وإعدامات على الطريقة الفلورنسية؛ إن هذه الملامح تنتسب في الزمن إلى القرن الرابع عشر أكثر مما تنتسب إلى القرن التاسع عشر الغربي. ولا ريب في أن مقطعاً تشريحياً أرقَّ يقدّم مجموعة ألوان دقيقة التقارب من «المفارقات التاريخية» مُزامَنَةً وشبه مركّبة تحت أبصارنا. وقد سبقَ لي أن أثرت قضية الأنساق الوضيعة، والأسلوب المتحذلق، و«الجمهورية الثالثة»: الهوس بالانصاب والمتاحف، وداء الاحتفالات الرسمية، والنظرة المركزية إلى الوطن، وحكم المسنّين، والمجمعيّة، و«الشاعر القومي»، والأبطال الرسميون. وهناك كذلك الجوانب الكبرى لهذه الجوانب الصغرى. ففي الحلم، وأحياناً، ولهنيهات قصيرة، في الواقع، هناك تناغم «المدينة» القديمة الشفّاف الذي يقدّم لنفسه على أرض ملعب رياضي كبير أو ساحة كبرى صورة عن نفسه (انصهار أفراد «الأنا» في جماعة خُلُقية حيّة، انصهار الواحد مع الجميع، انصهار الأشخاص المفردين في حضن الكون الشامل المحسوس: «بلاد اليونان» في عهد بيركليس معاداً فيها النظر من قبل هيغل). وهناك، في حقبة أخرى، وهي حقبة سوداء وراكدة، زمن الملكيات الشرقية الكبرى بما فيها من عبادة للزعيم المؤلّه الذي خبّلته الوحدة وسط صحراء من الرمل والقوانين ولين العيش: «فارس» في عهد الملك الأكبر معاداً فيها النظر من قبل هيرودوت. ومن يدري فقد يضعنا هذا الخلط البابلي في الأزمنة على الجادّة الصالحة. فأبّهة اشتراكيات الدولة أكثر من آلة سياسية للتقهقر في الزمن، وقد تكون الجهاز الوحيد الذي يجرؤ على استنطاق التكيّف الغائي المخجل لجميع الآليات السياسية، ألا وهو حذف الزمن. وضغطه داخل الطقوس. وحبسه إلى الأبد وقد أُلغي كل حدث. وقد لا يكون الأمر بإزائه أمر حسبان النقّاط في المواجهة الكلاسيكية بين القديم والجديد، بين ما هو بربريّ وما هو متمدّن. فوراء المزاوجة (المؤثرة أو المضحكة، تبعاً للمزاج) بين سكة الفلاحة الخشبية والمفاعل النووي (التي حوكم من أجلها «اسحاق دوتشر»[٤٣] في روسيا ما بعد ستالين)؛ ووراء المقابلة بين «سپوتنيك»[٤٤] والآلة الحاسبة بالكريّات، وهو فارق ما يزال بسيطاً جداً (إذ أنه وإن كان بين الأول والثاني بُعد في الزمن فإن الرحلة تتم دون تبديل في الخط)، من الممكن أن يرتسم فارق أكثر رسوخاً بين تسارع الزمن الصناعي والتقني من جهة، وسكون الزمن السياسي من جهة أخرى. وإنه لتضادٌّ قد يكون رمزه المرئي الدوائر ذات المركز الواحد في المفاعلات النووية، مركزها، وهو القلب البارد، ناووس فرعوني تحت هرم من الرخام الأحمر. وقد كان من الواجب أن تتخذ المادية الرسمية هذا الشكل لجعلنا نلمس بالبنان شيئاً كأنه حافة من حافات الأبدية. وهذه المادية تحصد كل المجتمعات التاريخية، ولكنها تبرز حيث كان توقُّع بروزها أقل ما يكون، وحيث تنكر على نفسها حق الوجود. وإني، أنا الحيوان العاقل، لعارف بجميل المجتمعات «الاشتراكية» القائمة، هذه الأعراض المؤلمة، في أن تكون خيّلت لي من بعيد وعن طريق التنقيط، لازمنيّة التضحية السياسية. فالزمن، «السيد زمن»، في نوع الحكم المشار إليه، حكم سيطرة الإنسان على الإنسان، لا يقدّم شيئاً للقضية. وهل لي أن أجرؤ على إضافة هذا الإحساس الآخر الذي أدين به إلى اللاسياسيّة الجماهيرية السائدة في معظم المجتمعات البيروقراطية (الوحيدة في العالم المعاصر التي يجهل فيها المواطنُ «الرقمُ» حتى معنى عبارة «الحديث في السياسة»): الغائية اللاسياسية لـ «الحياة السياسية»؟

وما كنت عام ١٩٧١، وأنا في منتصف الطريق إلى خواطري، لأكوّنها ولا ريب على هذه الشاكلة. فقد كان

لتكراراتي أن تساعدني على ضبط النغم، أو على طريقة لحلج الأحداث الراهنة على امتداد نتاجاتي الداخلية، واللازمات التي ما كنت لأتوقف عن الدندنة بها، على مضض مني، ولكن دون اتساق إلى ذلك الحين. وكنت قد غادرت السجن ومعي سلّم الانغام، ولكن مع رغبة ملحة في أن أطوي دفاتري.

وإذ كان لأفضل الأمور نهاية، فنادرة هي الاعتقالات المؤبدة. ولا يزال الخروج من السجن أصعب من دخوله، حتى وإن كان ذلك من الباب الرئيسي (كان شعار «الحياة طريقة استعمال» لا يزال غير مستعمل). وإذن فقد وجدت نفسي من جديد في الشارع وأنا اعرف الكثير الكثير، إذا جاز لي القول، لامتلاك وعي سياسي متفتّح؛ وما لا يكفي لتقبّل أن هذه الكلمات تطنّ معاً وتخدش الاسماع، وأن «وعياً سياسياً» بالمعنى الصارخ للعبارة هو في نهاية المطاف كالدائرة المربّعة. وإذ سرّني كثيراً أن أجد في الخارج دواعي تحرك ملحاحة، حبست نفسي داخل دائرة «المصالح العملية المباشرة»، وبقيت بعض الزمن في أمكنة الأحداث في أميركا الجنوبية (في شيلي، وكوبا، والأرجنتين الخ...) وفصلت ما وسعني بعد أن حدّدت بعناية مجرى الحياة والبحث عن الحقيقة، بين الحياة العامة والشكّ المنهجي، ووقفت جهودي في التحليل على بيانات وتقارير نقدية للممارسات الحاضرة أو الماضية التي قدّر لي أن أتعرف إليها مباشرة أو مداورة(٤٥). «ولكي لا ابقى متردداً في افعالي في الوقت الذي يضطرني فيه العقل أن أكون كذلك في احكامي، ولكي لا أكفّ مذّاك عن العيش كأرغد ما يسعني أن أعيش، كوّنت لنفسي خلقية مؤقتة... »(٤٦) وكانت نظرية ماركس في ذلك الحين خلقيتي المؤقتة «غير الكاملة، وإن يكن من الممكن اتباعها مؤقتاً ما دام لا يعرف قط أفضل منها». وما كان لي أن اتذمر منها، ولا لأي كان. وبغض النظر عن الرفاهيات اليسيرة التي توفّرها الامتثالية الديكارتية (الانقياد في كل الأمور «حسب أكثر الآراء اعتدالاً، وأبعدها عن التطرّف، الآراء التي تلقّاها بشكل عام على الصعيد العملي أفضل الذين عليّ أن اعايشهم تنوّراً واعتباراً»)، فإن من يديرون ظهورهم لهذه الطريقة في تحليل الممكنات المحليّة ينتهون في غالب الأحيان إلى نتائج أسوأ من التي ينتهي إليها من يحسنون استخدامها على مسؤوليتهم. وليس ما يمنع من الافتراض أن الكوخ الذي اختير ليكون مسكناً ريثما تتم إعادة بناء المنزل تبعاً لتصميم مخطط بعناية (بأن «يُعدّ زائفاً كل ما لا يعدو أن يكون قريباً من الحقيقة») ينبغي في النهاية ألا يحتفظ بمكانه، المتواضع لكن الضروري، داخل الكلّ المنجز (الذي هو، «بافتراضه المسبق معرفة تامة بالعلوم الأخرى، آخر درجات الحكمة»).

ولدى عودتي إلى الحظيرة- شبحاً آخر بين الأطياف العاملة في بلدي- ساورني انتظار المفاجأة، في البيت هذه المرة. وكان ذلك قرابة عام ١٩٧٣. ولم أكن قد فقدت شيئاً لأنتظر. فماذا كان ذاك؟ الومضة «الغاليّة» التي ستلهب أوروبا وتبهر العالم.

إن حاضر الفرد، كحاضر المجتمع، يشهد تشابك كثير من الأوقات المتوالية. ومن المفارقات ان زمن الحدث الفعلي، ذا الترجّحات الخاطفة، يبهر الأنفاس بأقل مما يبهرها زمن الانتظار الأثقل، ذو الايقاع البطيء. وإذ كانت الأحداث الداهمة المتخيّلة نقاط التقاء في منظور الرجاءات الجماعية، وأهدافاً يرجى بلوغها في المشاريع الفردية، فإن لها نصيباً حاسماً في العوامل الحقيقية في التاريخ العملي الذي يكون ما لم يحدث فيه أشد تأثيراً في الغالب مما حدث، والذي يمكن أن تعلّق فيه سلسلة كاملة من الأحداث بحلقة مفقودة. وإننا لنحيا وجودنا في المستقبل المرجّم به في الماضي، باحثين عن وجهتنا في الحاضر (موجّهين هذا الحاضر في الوقت نفسه) بالنسبة إلى ما نتخيّل أننا قادرون على ايجاده في المستقبل. ومم تتكوّن حياة الناس إن لم يكن من قدر من آمال خابت وتصورات أحبطت ومثله من سعادات وحِدادات حصلت في الواقع؟ ولهذا فإنه لا وجود لسيرة صادقة إلا في الروايات. ولهذا فإن تاريخ حقبة يكتب بطوباوياته ومكتشفاته على السواء. ولو بتر هذا التاريخ من شعره لبقي نثره نفسه حروفاً ميتة.

وقد جعلنا «كينز» نتكيف والفكرة القائلة بأن العوامل الاقتصادية لا تقرر تبعاً لمعطيات مؤكدة ملموسة مادية، وإنما لتوقّعات وترقّبات، أي لاحتمالات. فبالحري أن تكون الحال كذلك في العمل السياسي. لكن سوء الطالع يشاء هنا أن يتم دائماً عرض التاريخ المراد صنعه من وجهة نظر الذين لا يصنعونه؛ وإن لهم للكلمة الأخيرة، أسهل الكلمات. فالتاريخ يُبنى بما هو استراتيجي ولكنه يُشرح بما هو سببي؛ والكشوف والقوائم تستدرّ الشفقة. وليس هناك من تقابل في المنظورين بين هاتين الوجهتين، وجهة الأحياء الذين تعني لهم كلمة «تاريخ» هذا الغموض الواجب نزعه على الفور من العتمة والتوقع، ووجهة من بقوا بعدهم فلاحظوا أن هذا الشيء المغلق الذي لا يرجع القهقري ويدعونه «حقبة» كان كما لا بد أن يكون وأن تقهقره بالذات هو الذي يعمي اللجنة المحكمة المؤلفة بعد موته من ذوي العقول النيرة. فهي من منصّتها المشرفة تجمع الوقائع إلى الأرقام دون ان تتنبه إلى أن هذه النتائج عمليات طرح أو فواضل ينبغي طرحها من مجموع الأعمال المعقولة انطلاقاً من مكان ولحظة معيّنين، مع حسبان ما كان مسموحاً بأن يؤمل في ذلك الحين (قبل أن يتكفّل تتابع

الأحداث بالبرهنة على أن الأمر لم يكن سوى أمل). وعلى هذا النحو يحمل ممثلو التاريخ سرهم إلى القبر، أعني صورة المستقبل التي حدتهم على العيش والعمل في الحاضر. في العشرينات مثلا: الثورة الألمانية، وعلى نطاق أوسع عدوى الثورة عند تخوم روسيا المتخلفة تتلاشى في غمرة الحرب العالمية الأولى تلاشي الحلم .لكن مسلك البولشفيك غداة «أوكتوبر»، واختيارات لينين بشكل خاص، تغدو جميعاً من دون هذا اللا- حدث غير قابلة للتفسير. أو كذلك في الستينات: سوف تصبح «سلسلة الجبال الاندية»[٤٧]«السييرا مايسترا» في أميركا الجنوبية. وفي عام ١٩٧٠ لم تسجل الوقائع شيئاً. ولكن جميع توجيهات الثورة الكاستروية، وكل واحد من هذه التوجيهات، تغدو من دون الوجود السيكولوجي في كل مكان لهذا اللا- حدث غير قابلة للتفسير. فهل يكون كل ما هو واقعي عقلانياً؟ لكن ما حدث في الواقع ليس كل الواقع. بل ليس من المؤكد أنه يقوم بالدور الرئيسي في المسرحية. وقد يحوّل المجموعُ المتحصّلُ من الممكن والخيالي الواقعَ الفعليَّ إلى مجرد راسب. وعلى هذا نترك لمؤرخي ألف السنة القادمة مهمة إثبات أنه ما كان من الممكن أن يحدث في فرنسا، خلال السبعينات من القرن التاسع عشر من التقويم المسيحي، غير متابعة القديم دون قيد ولا شرط. وعبثاً كان عدم الدخول شخصياً في العابنا السياسية التي هي أيضاً مآس، وفي مآسينا السياسية التي هي أيضاً ألعاب (متلفزة على الأخص)، فالانتظار يشغل، والمشهد يتلبّد، والوقت يمر. وإليكم السبب في أن فيلسوفكم كان ابكم، طوال عشر سنوات: إنه الترقُّب.

وأصبحت متأدّباً إذ لم أجد حرفة أخرى، لكنني لم أكن بالكسول المتبلّد. وإذ أمنت أنني أفلتّ من العقاب (ما دام «بيّانكور» سينتصر، فإلى الجحيم خيبة أمله) فتحت دفاتري القديمة التي حوت ملاحظاتي، متابعاً فكرتي الثابتة: مواجهة ما هو غير قابل للتحقيق في النظرية بما لا يمكن الاعتراف به في الممارسة السياسية. وإذ علمت بصورة خاصة العجز الذي تجد فيه النظرية الماركسية نفسها عن شرح الـ «باء فتحة با» في التاريخ الذي يكتب باسمها، فقد دأبت كذلك على إعطاء هذا الأخير حق إلقاء نظرة على الأولى. ومرة أخرى وكانت كُوّتي، بل منْوَري المفضل هو الديمومة القومية، فلفَرْط ما فكرت فيها انتهيت إلى مغادرة حضن الوالدة[٤٨]. وإذ كانت الأمة مفصلاً بين طبيعة جُعلت تاريخاً، وتاريخ جُعل طبيعة، فقد كشفت لناظري ما لسنا نفكر فيه. وهذه الصندوقة المظلمة اللجوج تبرز البياض الذي تركه في خانة «الطبيعة» «علم التاريخ»، كما تبرز البياض «التاريخ» في الفلسفات المعاصرة التي تبحث في الطبيعة. وأطلعني جورج هويت، وكنت على الدوام استشيره وأفيد منه، على كل ما يمكن معرفته من منظور المادية التاريخية عن هذه «المسألة القومية» المزعجة (لقد كان للمسيحيين حقاً «مسألتهم الاجتماعية»، ولكلٍ مزعجاتُه) ومن البديهي جداً أن تكون الماركسية اكتفت بجمع اجزاء القفل وفقاً للظروف ما دامت لا تملك مفاتيحه. وفي مكنة العقل التاريخاني، كأحسن ما يكون، ان يدرك مجموعة معينة من الظروف القومية القائمة، لكنه يعجز عن ادراك ظروف قيام الظاهرة القومية. وعلى الرغم من الفرجات الحيية في الماركسية المتشددة ولدى «غرامشي»، ومن غير غض من خلاصة جيدة دبّجها «جورجيانيٌّ رائع»، فإن اجهزة «الاشتراكية العلمية» ارتج عليها وارتبكت أمام الطاقة الكامنة في التمسك بالجنسية القومية.[٤٩] ولأن هذه الأجهزة كانت قد رصدَت تلك الطاقة ومَنّنتها، فقد استطاعت، مدفوعة بها، أن تنغرس هي نفسها في احد نصفي العالم خلال نصف قرن، وبالمقابل فإنه في كل مرة اصطدمت فيها اشتراكية بقومية كانت تمنى (وسوف تمنى) بالهزيمة. وإن ما لم يخطر في بال الماركسية هو، بالنتيجة، الاشتراكية الحقيقية. ومعلوم جيداً أن الثورات ليست منجزات لنظام سابق، ولا هي تطبيقات لنموذج مجهول الهوية من إعادة تنظيم المجتمع، وإنما نتاج مسار موضوعي (صراع الطبقات) تكتفي النظرية بتقبُّله والتفكير فيه من وجهة عامة. ومعلوم جيداً أن ماركس حرص دائماً على المقابلة بين اعداداته النظرية ومسبّقات عقدية، رافضاً بصورة جلية ان يتولى عن التاريخ بالذات الإجابة على اسئلة كان يرى أنها سابقة لأوانها. لكن التاريخ تكلم منذ ذلك الحين، وأجوبته هي التي علينا فك رموزها، ومفكّ الرموز الذي تركه لنا ماركس لا يكفي للعملية. (قد لا يكون مادياً أبداً انكار عدم الكفاية هذا إذا كان الطرح المكوّن للمادية هو أن كل رسالة تتجاوز إلى ما لا نهاية جميع الرواميز الممكنة). والماركسيون يشعرون بألم في الأمّة. والدمّل ينزّ من كل مكان: وهم لن يطهروه من الجراثيم دون أن يوسعوا الجرح.

«كان «برشت» يردد أن المرء لا يعرف سوى ما يحوّله، ولكن العكس صحيح أيضاً: لا يحوّل المرء إلا ما يعرفه حق المعرفة. والتفكير بعد ماركس معناه في الدرجة الأولى محاولة التفكير تفكير ماركس حتى النهاية. أفيكون كئيباً ورجعياً هذا الاجترار لما سبق أن قيل؟ قد يكون. لكن أقل الأضرار كان رؤية ما ينتجه التقيؤ في ذلك العهد. فالتباهي بالحداد يجعل اليتامى يتعيشون في ظل الآباء الموتى، وهتافات الانتصار- «قتلناه»، «ظفرنا بجلده»- تغطي على كثير من التفرق والتشتت. لقد تكلّفت إذن على التو- من عام ١٩٧٤

إلى عام ١٩٧٨ - مشقة (لأنه إذا كان الجدب في الكتب يجعل المرء نهماً للمطالعة، فإن كثرتها المفرطة قد تؤدي بالحريّ إلى التثبيط) الانضمام إلى «الركام»، لكن لا لأقيم فيه منازلي لغايات تفسيرية. وإذ فررت من فردوس المحاكات الطفولية الأخضر (كل هذه الألعاب القائمة، كما في ألعاب المرايا، على المقابلة بين النص والتعليق، بين ما أسيء قوله وما لم يقل، بين المقالة وتنقيح المقالة) تابعت الرحلة إلى نهاية ليلنا. وكنت أقول لنفسي آنئذٍ لتغترب النظرية، ولترتضِ الذهاب للضياع في هذا العالم الموضوعي حيث تنكر نفسها، وعندئذٍ يثبت أحد أمرين: إما إنها قادرة على أن تصبح راشدة، وإما إنها تستحق الهلاك. وما أصح القول بأنه ليس في وسع فكرة ميتة، من خارج الحياة، ان تنتج حتى فكرة موتها.

وكان يبدو لي حينها - ولا يزال يبدو - أن أول واجبات الاشتراكي تحليل ما هو اشتراكي قائم، لا تدبيج «مشروع مجتمع» لا يعلم أحد الرقم الترتيبي الذي يحمله، ويفترض فيه ان يُسقط في افواهنا قبّرات الحكم الذاتي مشوية أكمل شيّ. إن في مكنة الفرد أن يتصور من «المشاريع» ما شاء أن يتصور، حتى وإن كانت مشاريع قوانين؛ أما المجتمعات فلا تعرف سوى «تطورات» تتحكم بها في نهاية المطاف قوانين ليست تعبيراً عن إرادة الشعب وإنما هي علاقة مستمرة بين عدة سلاسل من الظواهر (التي في وسع برامجها السخرية باستمرار لكن شرط المعاملة بالمثل). وإذا كان صحيحاً ان «نقد المجتمع البورجوازي» قد اتخذ طابعاً عملياً ابتداء من تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩١٧، وطالما لم يتم نقد هذا النقد، ولا حدثت الترجمة الفلسفية لهذا التحوّل العملي، فإن عبارات «الثقافة السياسية الجديدة» المنمقة ستستمر في نفخ الريح.

وأقل ما يُلَمُّ به في البحث العقلاني نقاط التلاقي. وإذا كانت مواضع الاتصال استراتيجية، فهي كذلك غير مريحة. وهذا ولا ريب هو السبب في أن المنازل بين المنزلتين شبيهة باللامنازل، وأن جماعة المضي بين أمرين الساعية لرأب مزَق القول والعمل شبيهة بلا أشخاص ازيحوا عن أماكنهم فهم في بحث دائب عن مقعد إضافي. فالفلاسفة يحيلونهم على محرري الأخبار نصرة للصحافة، والصحفيون يحيلونهم على الحكماء نصرة للتأمّل والتفكّر. وعلماء الاجتماع يقولون: «إنها من تلك الناحية، ما وراء الطبيعة»؛ والمشتغلون بالماورائيات: «علم الاجتماع، إنه في الطابق الذي تحت». والمناضلون يتّهمون المتحذلق؛ والمتحذلقون يطعنون في المناضل. وبالاختصار، كان هناك شبه التزام بأن توضع أمام المرآة الماركسية النقدية مع الماركسية الوضعية، النظرية على الطريقة الغربية مع الممارسات الشرقية قصد أن تعكس كل منها الأخرى؛ ولأسباب كثيرة أولها أن كلاً منها تجهل الأخرى من حيث تكوينها المادي. إنه لم يُشاهَد بعد أحد انصار قراءة الـ «غوندريس» قراءة تشخيصية وقد وقف في صف طويل أمام ضريح الساحة الحمراء، ولا شوهد أحد حجّاج اللينينية وقد عرف كيف يميز بين ماركس شاب وماركس عجوز، أو ادرك ما يعنيه انقطاع المباحث النقدية في العلوم. فكل شطر من شطري جسد الماركسية الكبير يتصرف ويفكر وكأن لا وجود للشطر الآخر (إلا إذا اعتبره ممثلاً له)؛ إنهما لا يستطيعان العيش بهناء دون ان ينكر أحدهما الآخر على هذا النحو. ولا تستقيم الحقائق البديهية الخاصة بكل منهما إلا بأن لا يتواجها قط. وكل لقاء منظم بينهما يراه طليعيو الغرب «مغالطاً للتاريخ» («إن هذه التقاليد البالية لا تعنينا» - المساكين، إنهم لا يدرون ما ينتظرهم). وتراه أفواج الشرقيين «لامكانياً» «في أي مكان يجرؤ المرء على اعتبار حقيقة الحقائق إشكالية من الاشكاليات؟» - التعساء، لقد نسوا أن «كتبهم المقدسة» بدأت على هذا الشكل، بنقد فلسفي لنصوص فلسفية.)

وكان مثل هذا العمل يتطلب الخضوع لطلاق ممضّ بين الممارسة النضالية والتحليل النظري، طلاق تمّ منذ زمن طويل داخل الحركة العمالية الدولية السابقة (ما عدا بعض الاستثناءات الايطالية الطفيفة) وكانت نتيجته تحويل هؤلاء الموجّهين إلى سياسيين «خلّص»، أي إلى نفعيين؛ وتحويل لحن الفريقين الموحّد إلى لحن ثنائي: «لا تتدخل إذن في سياستي». «لا تتدخل إذن في نظريتي». فالخصام متواطأ عليه. ومن المتفق عليه أن لا يقوم سياسي باجتياحات إلا في حقل الأفكار، ولا منظّر إلا على ساحة الاعداد والتخطيط. وهكذا يتوصل كل من الفريقين إلى ابتلاع كذبة الآخر وهو يدير له ظهره، ويغالي بعضهم في النفعية لحماية نفسه من عقائدية الآخرين، والعكس بالعكس. ويسمى هذا توزيع الأدوار.

ولسوف تجبرنا التربية القائمة على التجربة التي يريد تفكيرنا الخضوع لها على أن نخترق أحياناً الجدران المشتركة بين الأحداث الجارية والفرضية. وفي نظرنا أن حمل المفهوم على رد الفعل في الوسط الخارجي اجراء مصادرة تمهيدي لا بدّ منه، حتى وإن عرّضنا من الجانبين لسخرية المناضلين وصمت المتبجّحين. فدنيا السياسة تستبعد كل تفسير موضوعي لممارساتها بوصفه تفسيراً أكاديمياً، ويستبعد العالَم الأكاديمي كل وضع لنصوصه في تجربة الواقع المباشر بوصفه وضعاً «سياسياً». فهنا يتم الدفن أولاً ليُصار بعد ذلك إلى التدبيج (ليس هناك

اطروحات دولة عن مؤلفين من لحم ودم)؛ وهناك تقتل الأفكار والناس دون بيان الأسباب (ومن غير تأبين في أغلب الأحيان). ولما كان هذا من قبيل امتحان الايمان بالاحراق بالنار والبرهان على صحة اسقاط العدد ٩ من الحساب، فإن هذه «الهجمات» في الأوساط غير المطلعة ليست نزهات رخية رغيدة، بل غارات على أعراضنا الخاصة، باتجاه ما أصر على تسميته النواة الصلبة للمغالطة التاريخية السياسية: أخبار اليوم.

وللازدراء المتبادل الذي يتشبث به كيميائيو المُدرك ورجال الساحة فضائل مُطَمْئنة على المرء الا يقلل من قيمتها.

وإن الأسباب التي تدفع بالجنس البشري إلى إرادة الخلاص من موضوعات القلق لكثيرة، ولكن الناس الذين يقال انهم من اليسار يملكون منها أيضاً عدداً أكبر. ويمثل «الإنسان الاشتراكي» بالنسبة إلى سابقيه المباشرين («إنسان الغاب» و«الإنسان العاقل») عيباً خطيراً في التكوين: إنه مشطور شطرين. ومن لا يفكر في ما يقوله لا يريد أن يعرف شيئاً مما لا يقول ما يفكر فيه. وهو يجعل من هذه الازدواجية الحميمة معقد فخره الذي ينتهي عنده وجداناه الخيّر والشرير بالاختلاط. ويضيف بعض الوقحين ان «الإنسان الاشتراكي» أصبح أحفوراً مؤلماً يسخّر شرفه في سبيل أن يغدو بائساً، في حين يكون عهد الماسوشية قد انقضى. ويبالغ المتهكمون، لأن الطمأنينة إن لم تكن في شعب اليسار- ولنذكّر بذلك- وقفاً الا على طبقتين من الأفراد، فإن وجود هاتين الطبقتين مجتمعتين ينطبق على جميع الشعوب تقريباً. فأي لوحة كانت تقدّمها، حتى أمس، جماعة الأمميين القديمة؟ من جهة العاطفيون الداخلون في الشيوعية دون أدنى معرفة بالماركسية، ومن الأخرى المفكرون الداخلون في الماركسية دون أدنى تجربة سياسية. وليس الأولون حمقى بالضرورة: على العكس تماماً. وإذا استعرضنا قافلة كبار المفكرين الفرنسيين الذين اجتذبتهم الشيوعية في النصف الأول من هذا القرن (فرانس، وباربوس، وجيد، ونيزان، وسارتر الخ...) بدا واضحاً أنهم دُفعوا في الأساس إلى هذا الأمر بعاطفية سياسية، وأن التفكير لم يأت إلا فيا بعد وعلاوة على ذلك. وليس الآخرون بالضرورة مزهوين بأنفسهم أو منقطعين إلى العمل على طريقة الرهبان البندكتيين. لقد دفع بوليتزر مثلاً، أو غبريال بيري، نقداً ثمن التزامه الشخصي. بقي أنه من المناسب على الدوام التمييز بين «ثقافة» سياسية و«تجربة» سياسية: فإن لم تكونا تتطاردان بشكل مطلق، فإنه كثيراً ما يعثر على الواحدة دون الأخرى، والعكس بالعكس. كما أنه ينبغي التنبّه إلى أن الإنسان قد يكون صاحب «قناعة» ومحروماً من «المعارف» في موضوع السياسة، وأنه قد يكون رجل علم وتفكّر ومحروماً من القناعات المطابقة. (إن هذه الفروق التي قد تبدو عديمة الجدوى في حال الهدوء المطلق، تبرز بشكل صارخ، بل تكتسي أهمية حيوية، في الحادث الجلل. وعندئذٍ يتضح أن ذوي القناعات في الأغلب الأعم «يصمدون للصدمة بأفضل» مما يصمد رجال الثقافة: من الممكن التأكد من أنهم أقل إخلالاً بالالتزام من الآخرين). وهاتان الطبقتان المزاجيتان- إنهما طبقتان أكثر مما هما «فئتان» لعدم اكتسائهما أي طابع اجتماعي- مهني- لا تتحابان قط، وقليلاً ما تتعاشران. وقد كان من حظي، أو سوئه، أو كليهما، أن أقضي بعض لحظات حياتي وسط الأولين («المناضلين»)، ولحظات أخرى، دونما تدرج، بين الآخرين («المفكرين»). ولولا هذا التأرجح بين السخونة والبرد، أي لولا عدم التماسك في ما يتم من عمليات رصف لعوالم مغلقة بعضها بازاء بعض، هذه العمليات التي أثرت عدة مرات في عواطفي وتصرّفاتي، لما كنت ولا ريب لأنشغل إلى هذه الدرجة بالتساؤل عما إذا كان في الوجود السياسي شيء متماسك، وأنه إذا كان فممَّ هو مصنوع، ولأجل ماذا.

لقد بقي البحث الذي لخّصت نفحته الأساسية في الصفحات السابقة، والذي كنت قد عنونته «جوهر الماركسية» في ذكرى «فويرباخ» وكتابه الشهير «جوهر المسيحية»، مخطوطاً (لسوف تظهر نتائجه المختصرة في قابل الكتاب). وكنت اتطلع إلى أن يكون القسم الأول من كتاب يحمل اسم «نقد الغباء النظري»، وهو عنوان فويرباخي كذلك عدلت عنه أيضاً مفضّلاً عليه العبارة الموضوعية (وغير المنتمية إلى المذهب النظري) «الفكر السياسي». وخلف مظهر النزوة- كل إنسان يعلم أن السياسة تجعل المرء غبياً ومجنوناً وحانقاً- كان في هذا الخيار رهان على الانطلاق: فمن الهذيان تخرج مقالة. ومن الايمان يكون مُدرَك. لكن الافتراض العقلاني القائل بأن لكل غباوة أسبابها يفترض بدوره منهج بحث معيناً. فلنحدد إذن حرفية الكلمات. «نقد»: ليست لفظة للتقدير بل نقطة منطقية تفيد دراسة شروط امكان وجود نظام معين من الظواهر، أي دراسة الاشكال والفئات التي بها يمكن أن تتم تجربته. «فكر»: نظام من القوانين القابلة للوصف يحكم تطوّر تجربة من التجارب. «سياسة»: مخطط لواقع من نوع خاص يحدّده تكوّن زمر بشرية عريضة (غير طبيعية) وانفراط عقدها. وغني عن البيان أن «ما هو سياسي» يتميّز في هذا المفهوم عما هو «دَوْلي»[٥٠]، وأن المقابلة «خاص/ عام» لا تبدو هنا ملائمة. ففكرة «الدولة» كياناً مؤسسياً متميزاً عن المجتمع تظهر في «عصر النهضة»، وتنبني في الوقائع مع

الاستبدادية الملكية، وتتخذ شكل القانون مع قيام المجتمعات البورجوازية الحديثة. وقد سبق القطاع السياسي في سياق الأزمنة قطاع الدولة (في وسعه أيضاً أن يعيش بعده). وهو في مدى التجربة السياسية يشمله بامتداده إلى كل منطقة جماعية تتخللها علاقة من نوع موجِّهين/ موجَّهين (كنيسة، أو حزب، أو حركة؛ أو زمرة الخ...) وعليه يكون «نقد الفكر السياسي» دراسة لشروط تنظيم الجماعات البشرية المستقرة وعملها.

وإذا جعلنا من دراسة العلاقات الاجتماعية للهيمنة، متميِّزة عن العلاقات الاجتماعية للاستغلال التي كانت عُدة علم الاقتصاد الماركسي، غرضاً خاصاً بعلم السياسة، تبيّن بوضوح لماذا تنفتح دراسة الواقع الاشتراكي تلقائياً على عملية تفكير سياسي شاملة. وتشكل الممارسات الاجتماعية، وممارسات «الاشتراكية الواقعية» بشكل خاص، اختبارات غير كاملة، لأنها لا تتم في بيئة معقّمة أو في دائرة مغلقة– وباعتبار أن حالة الحرب الشاملة مع «العدو الطبقي»، الوطني والعالمي، تزيّف الفرضيات بشكل ملحوظ. يبقى أنه لم يسبق قط، على امتداد تاريخ المجتمعات، أن أفرد بمثل هذا الوضوح تميّز ظواهر النفوذ، فالاختبار يفترض على الأقل ملكة تحويل المتغيرات بشكل إرادي لتحديد العلاقات المتبادلة. وتتمثل مزية «النقلات الاشتراكية» ومساهمتها (العلميتان) في أنها بتنويعها متغيرات الاستغلال (الاقتصادي) تسمح جهاراً بتمييز لامتغيّر نسبي هو لامتغيّر علاقات الهيمنة (السياسية) لجماعة من الناس على أخرى، دون أن تطرح مع ذلك علاقة نسبة عكسية بين ضخامة عوامل الاستغلال وضخامة عوامل الهيمنة.

ولا أشعر بأي ندم وقد فاتتني العربة لأني لم أسلّم مسابقتي في حينها. كما أن تقلُّد النجمة الصفراء والاحتفاظ بشعار الماركسية في فترة الانتكاسة التي اعقبت عام ١٩٦٨ كانا من مقومات العزة في ابسط اشكالها. ولا ريب انه نادراً ما شوهد تباعد أشد جوراً من الحاصل في السنوات الأخيرة بين ما يجب تصوّره وما ينبغي محاربته، بين الاقتضاء والالحاح، بين البحث والمقاومة. ولأن يفكر المرء بخلاف ما في نفسه فهذا هو النصيب المشترك. وما كان هذا ليكفي. وكان على الإنسان يومها التظاهر بخلاف، أن لم نقل بعكس، تقصّياته الخاصة. وكيف يفعل غير هذا أمام مزمور «ارحمني يا رب» الذي كانت تنشده جوقة تاركي الرهبانية على أكثر المسارح رواجاً آنذاك؟ وان الحميّة القومية لتؤكد الأجوف بالمقوّس. وقد ثبّتني هذا القدر من التراخي الحاسم الساعي إلى معاضدة مواقف الهلع المقدسة عند علية القوم في فكرة أن العمل بناء على الطلب (الاجتماعي) آمن وسيلة لفيلسوف كي يقتل حقيقته العزيزة في البيضة، لأن ميزة الحقيقي احباط الطلب والإجابة على الهامش. وشوهد كثيرون يدّعون الخروج من حيث لم يكونوا حتى قد دخلوا، ناجينَ من الرعب، شهداء مغامرة بدأت على مقاعد الدراسة، واستمرت في قاعدة التحرير، وانتهت في غرفة الاستقبال، مغامرة شُرع معها في الظن بأنه ربما كان على المرء أن يعاني قليلاً ليخرج بذرة تفكير. وبطء المعنى المقنط هو ثمن الكلمات. وهناك لذات يدفع حسابها بعد الفراغ منها، كاللذة الجنسية ولذة تذوق الطعام مثلاً؛ وعلى العكس من ذلك تحتاج اللذات الفكرية إلى دفعات مسبقة. انشودة: كم يتطلب أدنى تفكير من شقاء؛ كم تتطلب فكرة واحدة من ميتات حقيقية؛ كم يتطلب كتاب فلسفة من دموع؛ لا وجود لفكرة سعيدة (هناك على الأكثر، وفي نهاية المطاف، اغتباطات بفكرة).

من ١٩٧١ إلى ١٩٨٠: نفور حقب الغليان الفكري من تلمّسات التصوّر. فهي تلوي أول مادة بنائية تصادفها باتجاه المصالح السائدة، الاتجاه الذي منه تهب الريح ونداءات اللحن الصادرة عن الصورة– الصوت. و«لأن يصفّي المرء حساباته مع وعيه الفلسفي السابق»، فهذا شيء، وأن يتلون بألوان العصر، فهذا شيء آخر، وقد كان الأمران على درجة كبيرة من التشابه في ذلك الحين نظراً لأن وضع الظاهرة السياسية في المنظور النظري يستتبع اقحاماً جديداً لنوع من «الحسّ السليم» التقدمي) بحيث لا يستلزمان مزيداً من الامتناع. وبما أن الرياح مواتية اليوم من جديد لهذا «الحس السليم» فإن نقدة مسموح به لأنه واثق من أنه يسبح عكس التيار. وإن الخوف لفي جزر، والرجاء لفي مدّ. ولنأمل، بعد وضع كل ولع بالعوائق جانباً، أن تنجو الفلسفة للحظة من منطق الفصل في النزاع، ضمٌ أم طرد، استرجاع أم حرم، هنا أم هناك؛ هذا المنطق البائس الذي يزاوج بين الصفر والواحد والذي يُنجح بالضبط الأفكار المعترف بأنها للمنفعة العامة. ويعتبر انفضاض المثقفين المحليين بالجملة من الميدان في هذا الشأن طالع يمن. وأن اللامبالاة السياسية السائدة («واقعية ووضوح») لتعيد تقييم التفكير في التباين السياسي المضطلع بمصالح غدت من الضعف بحيث لا تلفت كبار المقامرين والمضاربين. وكلما زاد الرهان زادت المبالغ المُراهن بها. فليفسح المجال لاسقاط قواعد اللعبة دون انفعال ولا فكرة مسبقة. أعني ما دام ليس في مقدور أحد أن يبقى على قيد الحياة بلا أهواء: من غير أن يكون عليه إلباس أهوائه اثواب الأحكام.

غير أني كنت أوثر تأخير هذا الايضاح، لا بوازع نضالي، وإنما لمجرد الالتزام بأدبيات المهنة (كم تستوجب هذه المواد من حيطة ومقارنة بين المعلومات) لو لم تفض المباحث المتعلقة

بالوظيفة الذهنية إلى تفسيرات معكوسة مؤسفة جداً. ولن اتحدث عن ملاطفات «الصحافة الرائجة». فبوصفها غير موهوبة لفهم الأعمال الأدبية وإنما لتشجيع الأسماء أو «حرقها»، تبعاً للمنزلة المفروض في اصحابها أن يحتلوها، في وقت معين، على رقعة الشطرنج الوهمية الخاصة بالعلاقة بين القوى الاجتماعية (في كل خانة صورة رفيعة)، لا تخرج عن دائرة اختصاصها حين تمارس الشتم الجارح للمشاعر. وأنا من هذه الناحية مفعم دائماً ومزهو بأن أكون كذلك إلى هذه الدرجة. لكن رؤية أكثر النقاد جدية يسيئون الظن بنزاهة في نيات «النفوذ الفكري في فرنسا» و«الكاتب» جعلتني اقتنع بأنهم قاموا بشؤون مهنتهم متمسكين بمعناها الحرفي، وبأني اسأت القيام بشؤون مهنتي مقدّماً التطبيقات على المبادئ، أو الحواشي على المسلّمات. ولم تكن دراسة المثقف في «المدينة الدولة» بنظري سوى منعطف يفضي إلى المنطق الداخلي للجماعات. ولا كان الطموح الاسهام في سوسيولوجية المثقفين، وبدرجة أدنى إضافة توشية إلى تاريخ المثقفين الفرنسيين السياسي، بل تسخير كلا الأمرين للشروع في فهم ما في المسألة الاجتماعية من مفارقات. وبعبارة أصح: اتخاذ نحوس الجسم الثقافي متغيراً يستدل به على عدم التغير في الدور الذي يضطلع به، عن طريق التماس فرجة من قاموس مختصر للأحداث (يُسْرُ «النفوذ الثقافي» وعُسْرُه) على نظام تركيب الزمر العريضة، أي على نهج العلاقات التراتبية الذي تتكوّن فيه كل جماعة سياسية منظمة. وكان وراء «النفوذ الثقافي في فرنسا» هذا السؤال: ماذا ينبغي للنشاط الرمزي أن يكون ليحدث تأثيرات في مادّية العلاقات الاجتماعية في جمهورية علمانية كجمهوريتنا؟ ووراء «الكاتب» هذا السؤال الآخر: ماذا ينبغي للمجتمع أن يكون ليحتاج عضوياً، أمس كما اليوم، إلى مجموعة من العلامات التي تبيّن وجهة السير؟ وستر نوع من الحيوية في النبرة، نبرة جدلية هجومية في بعض الأحيان، وتقليص مفرط للآراء والوقائع هذه المحاولات الجبرية وراء جلبات من الزبد تبعث إلى حد على السخرية لتتلاشى فقاعات على الشواطئ المسطحة للنوع الاخلاقي. ولسوف يوافقنا الناس على أنه إذا كان لأسلوب الكشافة («حان الوقت لاصلاح اخلاق «جمهورية الآداب»، أو بعبارة أخرى «العار لطفيلي الشقاء البشري») القاب شرف وطني خاصة به، فليس له سوى فائدة نظرية محدودة... وكان «ميشال سرّ» الوحيد تقريباً، إلى جانب «مارك بيغدير»، الذي اكتشف التبر المحتمل تحت غلاف «الكاتب» المعدني، إذ تفضل أن يرى في عبارة «النقص الاجتماعي» تباشير تقدم خصب خارج الشعاب المطروقة. وهذا الافتراض (الذي نعتقد أنه لما يكتشف) هو بالفعل في أساس مفهومنا؛ وهو الذي نرغب في أن نعالج هنا معناه وانعكاساته.

وكان ينبغي، قبل الإفاضة في نظرية للوسائل يمكن أن يقال فيها سلفاً انها لن تكون احدى نظريات أجهزة الإعلام بأكثر من كون التحليل النفسي علم الهفوات، أن نضمن الحلقات الأولى لسلسلتنا، وأن نبدأ من البداية، أي ما يميّز الكومة من البيدر، أو بعبارة أخرى ما هو المجتمع. ولا تقتصر هذه الطريقة على الميزة النفعية القاضية بتضييق الشقة بين ما اعتقد قوله مهماً وما كنت قد اعتقدت حتى الآن أن عليّ قوله، بل تتعداها إلى مزية أخرى هي أنها تقدم بين يدي استقصاء عن الوساطات جهاز تعريفاته الأولى.

إن ملاحظة المجتمعات الحديثة لم تأذن بعد بمصادفة مجتمع بلا «ايديولوجيّة». فقد ابتدع الكلمة ونشرها عام ١٨٠١ فيلسوف فرنسي هو السيد «ديستوت كونت تراسي». ولا مجال للاعتقاد بأن المجتمعات البشرية، وكذلك البنية التشريحية لـ «الإنسان العاقل»، قد تغيرت طبيعتها عند منعطف القرن الثامن عشر. وبما أن الكلمات ليست هي التي تنتج الأشياء، فلا بد من الموافقة على أن الوظيفة الاجتماعية التي تضطلع بها «الايديولوجية» لم تولد معها، وإنما كانت سابقة لها في الوجود. وبديهي جداً أن الديانات التاريخية الكبرى هي التي اضطلعت بوظيفة الايديولوجيات الكبرى في الحقبة الحديثة باشباعها حاجات الجنس البشري التي لم تتغير وكذلك فإن ملاحظة الاعراق- وقد أشار «برغسون» إلى ذلك من قبل في مؤلفه «الينبوعان»- لم تعثر بعد هي الأخرى (وليست على وشك أن تعثر) على «مجتمع بلادين».

ولو أهملنا لحظة المناظرات الكلاسيكية في المجالي الأولية للاقداس، بادماج السحر والأرواحية في حقل اختبار مماثل بشكل أساسي لحقل الحياة الدينية، لبقيت صيغة الفيلسوف مقبولة علمياً. وليست القضية قضية طعن في الحاجة إلى نمطية تمييزية بين مختلف انظمة الاعتقاد، حتى لو اعتبرنا المقابلة الظواهرية بين «قناعة» ايديولوجية و«ايمان» دينيّ أقل ملاءمة بسذاجتها الذاتية، من المقابلة الاجتماعية التي تسند، بسذاجتها التطورية، «الدين» إلى المجتمعات التقليدية المتساوقة، و«الايديولوجية» إلى المجتمعات الحديثة المتنازعة. ولو سمح لنا باتخاذ مقياس للملاحظة نتجاوز به عن عمد ما في الالفاظ التي تواجهنا من خصائص دلالية وتاريخية، أي بالتفكير بشكل واسع مريح لا بشكل رخو فضفاض، لوجدنا أن فرضيتنا تقودنا إذ نضفي عليها قيمة توجيهية إلى التراجع خطوة في كل مرة، ولكن هذا التقهقر الذي يكاد يكون

(البقية على الصفحة ٦٤)

قصة قصيرة

المِثقَب



أحمد سويد

مثقب خفي ينخر في رأسه. يتوغل فيه حتى النخاع الشوكي. يشعر أن نخاعه يتناثر داخل جمجمته، وتعلق شظاياه الدقيقة بالجدار العظمي الصلب. وبحركة لاإرادية يحضن رأسه. يعصره بين راحتيه قليلاً ثم يهزه بعنف ويتمتم:

– الحمد لله. يخّيل إلي أن المثقب اللعين قد هدأ.

... ويمدّ رجليه على الطاولة الصغيرة أمامه، بشيء من الاسترخاء الناعم المريح، ويحلم بغفوة قصيرة... ولو لثانية فقط!

لعنة الله على الشيطان:

ها هي تقف قرب محطة للوقود على الشارع الفسيح. في تلفُّتها حذر وقلق وخوف، حقيبتها البيضاء يقذفها التوتر لحظة بعد لحظة من يد إلى يد، ونسمة خفيفة تعابث شعرها، فتزجرها بضيق وتبرم، وتعيد الأصابع المتشنجة الخصلة السوداء إلى مستقرها الأمين!

تتوقف السيارة البرتقالية بمحاذاتها. ينفتح الباب. تنزلق هي إلى جانبه. يرحّب بها بهمس شبق، ثم تطير السيارة لتغيب في..

... ويمعن المثقب اللعين في تعذيبه:

الشاب التريفولتي سيحملها إلى عشّ الغرام حتماً. ليته يطير في أثر السيارة ليدهمهما في وكر الخيانة، ثم ليفلق رأسيهما معا بضربة عنترية، ويخرج إلى أقرب مخفر وهو يصيح:

– لقد انتقمت! لقد انتقمت!

* * *

ينتفض مذعوراً. يمسح وجهه براحته. استغفر الله العظيم. استغفر الله العظيم. زوجتي ملاك يا شيخ. أعرفها جيدا. إنها تكاد تعبدني. لو غبت عنها ساعات تستقبلني حين أعود وكأن عمر الفراق بيننا دهر أطول من الدهر. من أين يأتيني الشيطان الرجيم بهذه الهواجس؟.. اذهب عني خزاك الله!

... ويرنّ الهاتف. تخطف هي السماعة.

– آلو.. صباح الخير.

ثم يرين الصمت. تخرس. ملامحها بلهاء خالية من أي تعبير، ولكن وشوشة السماعة تستمر.. وشوشة غامضة غير مفهومة، تحزّ في أعصابه حتى لتكاد تقطعها.

يسألها:

– مَن الهاتف؟

فتعيد السماعة إلى مكانها بالسرعة الإملائية ثم تجيب كالحالمة:

– بالغلط!

... هو يعرفها لا تكذب. بلى تكذب بعض الأحيان كذبات بيضاء بريئة تتعلّق بثمن ثوب مثلا أو حذاء أو حلية.. كم تحب هذه الأشياء. ولكنها في القضايا الخطيرة لا تكذب.

المثقب اللعين يستأنف عمله:

لماذا سكتت إذن واستمر الآخر يوشوش على الخط؟

لا بد أنه هو... يواعدها. يحدّد لها مكان اللقاء فتصمت هي، ويأخذها حلم الوعد وتتساقط من شفتيها أكذوبة غير بريئة:

– بالغلط!

يسيطر على أعصابه على الرغم من إلحاح المثقب اللعين في حفر نخاعه. مهلا. سأتصرف بدهاء وتعقّل. سأمزق قناعها هذه المرة. لا بد أنها ستخرج للموعد. سأوهمها أني ذاهب إلى عملي ثم أترقّبها حتى اذا خرجت لحقت بها.. ولتدوّ الفضيحة بعد ذلك في كل المدينة!

سأضع اصابعي العشرة في عينيها فقط. سأفقأ العينين السوداوين اللتين كان يخيل لي دوما أنهما تهطلان طهرا وبراءة ثم أتركها لعذاب الظلام الأبدي، وللألسن النهاشة التي تعفّ عن اللحم الحي.

.. لا. لا. لن أفعل فأنا لست فضائحيا بطبعي. لم لا أداري الفضيحة ودويّها بأكره الحلال، وذلك أريح؟!

... ... ويتوقّف المثقب كأنه إنما قنع بالحل السلميّ.

ويمضي النهار بطوله، ولا تخرج المخلوقة من منزلها، ويعود هو في المساء منهكا لطول ما تسكّع مترقّباً، فتستقبله العينان السوداوان اللتان صمم على فقئهما، تستقبلانه بكل ما في الحب، من احتفالية عفوية بكل ما فيه من شوق ولهفة..وحنوّ، وحرارة.

وما يكاد يشلح جثته المنهكة على الكنبة حتى يئزّ نذير الخراب: فيصمم على أن يردّ هو هذه المرة. يسبقها إلى السماعة يرفعها ثم يصمت وعيناه على ملامحها تستقرئان وترصدان انفعالاتها. فالملامح تفضح. والعين كذلك فضاحة ولكن ما يحيره أن ملامحها ظلت صفحة بيضاء شفافة بريئة، لم يقرأ فيها سوى اللامبالاة والنقاوة، وأن عينيها كانتا تبُثان إليه بولَه رسالة هوى صاف، غامر العذوبة.

ونطق أخيراً:

- آلو. آلو. آلو...

يا للنذل الخسيس! إنه لا يجيب. لعله لم يكن يتوقع أن يسمع صوته هو بدلا من صوتها. لقد خرس الكلب، وماءت هي:

- قد يكون الرقم مغلوطاً يا حبيبي.

يدير لها ظهره. يكزّ على أسنانه. يطحن تحتها انفعاله وحنقه، وهمسة مكتومة مهروسة:

- وقد يكون هو يا عاهرة..

* * *

لعنة الله على الشيطان ألف مرة. لَمَ يركبني الوسواس الخناس بمثل هذا الإصرار؟ ويلهب جني بمهازيه الناريين؟

لِمَ يحلو له أن يقطف رأسي كل عشية، ويضعه على ركبتيه، ويفتح الغطاء ليحشوه بالظنون والأرق والهلوسة؟ ؟ وبما يشاء من ضروب التنغيص؟

* * *

لِم لا أتمرد عليه وأطرده...؟ لم لا أتمرد؟

* * *

الحمد لله. لليوم الثالث على التوالي ينجح في تحقيق تماسكه النفسي وصدّ غزوات الشيطان، ولذا يشعر الليلة بالطمأنينة تغمر قلبه، وبفرح مجهول المنابع يتدفق، فيملأه بالسكينة الداخلية والأمان المطلق.

.. ولقد قرأ في عينيها هذه العشية عتاباً ونداء. أما العتاب فقد كانت، كما قرأ في عينيها، لا تصرّ عليه، لأنها تعوّدت أن تجد لديه العذر دائما لعزوفه وصدّه، وأما النداء فكان صاخبا جدا لدرجة فوق كافة الاحتمال عنده.

ولكنه عندما تسلل إلى سريرها في نهاية السهرة قبّلته برقة، ومسحت شعره بحنان، ثم تحولت عنه قليلا.. وفجأة انتصب الشيطان بينهما مزبداً معربداً، وتحول المثقب في رأسه إلى مطرقة وحشية فكاد يصيح ليمزق كل أسرار الليل:

- قولي إنك مرتوية يا خائنة!

ولكنه أطبق فكيه على لسانه المشتعل في اللحظة الأخيرة عندما تناهى إليه همسها يقطر صدقاً ورقة:

- أعذرني يا حبيبي فأنا مريضة.

* * *

كانت الساعة قد تخطت الحادية عشرة ليلا عندما أدار على مهل مفتاحه في قفل الباب. دخل على رؤوس أصابعه. لا بد أنها نائمة، فهي لا تطيق السهر وحيدة. لم يجدها في سريرها. بدأ المثقب يحفر بضراوة في رأسه. فتّش كل زاوية في البيت. ازداد ضغط المثقب. يا لغبائه! ألم يقل لها عندما توجّه إلى عمله بعد الغداء إنه سوف يتأخر هذا المساء؟... ولقد التقطت هي، بلا شك، الفرصة السانحة وخرجت إليه حتما.. إلى ذلك الوغد المجهول الذي طالما ودّ لو يلتقيه ليفكّ رقبته، وينتزع قلبه الخبيث فيشكّه على رأس خنجره ويخرج به إلى الشارع صارخا:

- هذا هو غريمي!

كيف تخرج «حرمه المصون» دون أن تترك له، كما تعوّدت، إشعارا بمكان وجودها؟ لقد علقت إذن في الفخ. يكاد المريب أن يقول خذوني. علقت الخائنة. لن تفلت هده المرة من قبضة الانتقام.

...المثقب يحفر في رأسه بعنف. يحفر، ويحفر في أعماق النخاع، ويمتدّ لسانه الناري فيلهب دمه وشبكته العصبة بكاملها. بهذه العصا سأفلق رأسها. هه. هذا وجهها اللعين يطلّ من مرآتها. إلى الجحيم يا مرآة السافلة. وتهاوى الزجاج نخلبة فضائحية. هذه صورتها معلقة فوق السرير. إنزلي ايتها الخائنة، مكانك ليس هنا. مكانك في المدفأة. هذه خزانتها. حسناً. لن تتأنق له بعد اليوم لن اترك لها أثراً في هذا البيت.. سأحرق..

ورن الهاتف بصوت أجش مذعور. رفعت يده المرتعشة السماعة. جاءه صوتها خافتا منهوكا:

- نبيل. أنا هنا في المستشفى منذ المساء. لم أعثر عليك في أي مكان. أمي.. فاجأتها نوبة قلبية. انها تموت... إلحقني يا نبيل..

الوصايا

محمد راضي جعفر

[الى الصديق عبدالرحمن مجيد الربيعي]

تنكفئُ الليلةُ فوقَ الليلةِ الأخرى. ولم يطلعْ على
شاطئ «قَمَّرْتَ» قَمرٌ ولم يَبُحْ شَجَرْ
للعاشق الواقف مسحورا..
بناتُ الرومِ لا يعرفْنَهُ..
كلُّ امرأةْ
بيضاءُ كالشحمِ، وعينان كما البحر،
إذا مرّتْ فكالنمرةِ،
وهو الواقفُ المسحورُ
لا يجرؤ أن يطلبَ من واحدةٍ
تصحبُهُ لسهرةٍ ممتعةٍ
– كنْ مرةً شجاعْ!
وتدّعي بأنَّكَ الفحلُ،
إذن دونك هذي النمرةُ الممتلئةْ!

– 2 –

كان معي...
يفيض كالبحرِ، ولا يكبُرُ إلاّ مثلما يتّسِقُ الفرَحْ
أو مثلما يرتفعُ الشراعْ
– الريحَ
– لا.. سأتَّقيها بالنقيضيْنِ
الهوى القدسيِّ والعهر الشقيْ
وهدَّد السيلُ.
وكاد البحرُ أن ينشقَّ عن ماءٍ نقيْ
لكنّما النمرَةُ تنسلُّ أمامَ الشبَحِ
الموغِلِ في الجوعِ....
وعاد الآخرُ المكبوتُ مهزوماً... وحيدْ

– 3 –

يغمرنا البحرُ كأنْ لم ينتظرْ مهاجرانِ قبلَنا العطشْ
والجوعَ، والكبتَ، كأن لم نَلْقَهُ بينَ السحورِ والغبشْ
مُجرَّحاً بالإثمِ
والنبيذِ والبَشَرْ
يفتقدُ البحرُ هنا صبوتَهُ المتَّقدةْ
وتستبيحُهُ العجائزُ المسترجلاتُ
والمخنَّثونَ من رجالِ الرومِ
من ذا يشتهي ذي الجِيَفَ المُمَدّدةْ؟!
وقال صاحبي الذي أحَبَّ
البحرَ والعدمَ وأجسادَ
النساءِ العاريةْ:
« لا تشتُمِ العصرَ. وخُذْ من
هذه الحياةِ ما يبعثُ فيكَ العافيةْ

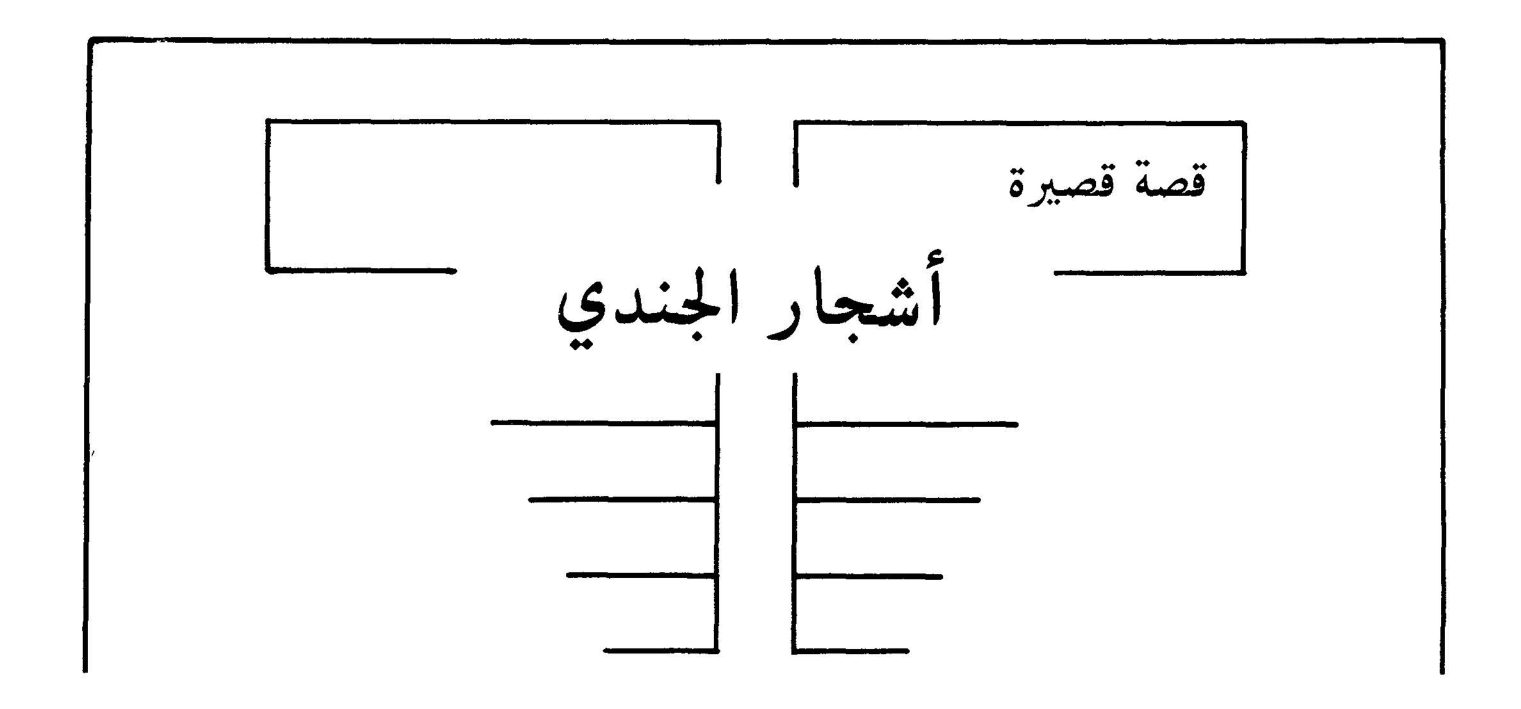
– 4 –

جدِّفْ مع التيّارِ أوّلاً ببطءٍ
ثم جدِّفْ ضدَّهُ وأشدُدْ
على الموجةِ. فالموجةُ مثلُ
الفرَسِ الجموحْ
واعصفْ كما الريحِ، عنيدَ القلبِ، إنَّ البحرَ ريحْ

– 5 –

لا تَشِ بي
عاقرْتُهُ كما أعاقرُ
الصَبوحَ كلَّما شربْتُها ظَمِئْتْ
أو مثلما أحتضنُ الحسناءَ،
كلما أبَتْ تطعمني اشتهيْتْ
البحرَ.. ثمّ البحرَ، ثم الخمرَ والنساءْ.

– تونس –



قصة قصيرة

أشجار الجندي

كانت الشمس عذبة، وكان البرد في أواخره، ففي آذار يبدأ الربيع ويبدأ غرس أشجار الزيتون، وفي آذار كان دور يوسف في الإجازة قد حان.

حصل يوسف على إجازة مدتها اسبوع، ومن حقول الزيتون التي كانت كتيبة يوسف تعسكر فيها أخذ معه ثلاث غرسات زيتون نوعها غير موجود في قريته. أما من محطة إنطلاق السيارات في دمشق فقد اشترى يوسف كعكاً وحلوى لطفليه، وبعض الهدايا والألبسة لزوجه وأمه وأبيه.

طوال الطريق كان يوسف يفكر بعائلته وتطاول خدمته الاحتياطية والمكان المناسب لوضع غرسات الزيتون الجديدة، وعندما وصل مشارف قريته ورأى حقول الزيتون التي تتسلق الجبال والتي عاش بين أشجارها أكثر سني عمره، تذكر حقول الزيتون الممتدة والتي تعسكر بين أشجارها كتيبته وتذكر كيف كانت النيران تشتعل فيها كلما قصفت الطائرات معسكرهم، وها هو من انقاض حقل قصف قبل يومين يحضر ثلاث غرسات بينما أخذ رفيقه محمود خمس غرسات إلى أدلب.

تحسس يوسف غرساته الثلاث، فأحس بشعور كالرضى، وعند المساء كان قد وصل ورأى طفليه وزوجه وأمه وأباه الذين حكوا له بعد أن تعشوا عن البرد القارس هذا الشتاء وذكروه بأنه لم يأت وقت قطاف الزيتون، وقالوا له انهم تذكروه واحتاجوه وقتها، فالأعمال كانت كثيرة ومتعبة، لكن العمل تم، والزيتون عصر، وها هو الزيت في الخوابي، وماذا لو يأخذ معه إلى المعسكر زجاجة من زيت السنة الجديدة؟ لكن لماذا يتأخر كل مرة في المجيء؟

حدثهم يوسف عن الاستفسار والحرب وكتيبته التي تعسكر في حقول الزيتون، حدثهم عن أنواع الزيتون ذي الحبوب الكبيرة وعن أشواقه لهم ولمساعدتهم في قطف الزيتون، حدثهم عن البرد في خيام العساكر، والبرد الذي يقتل حتى أشجار الزيتون، وعن حراسة الليل والنهار وغارات الطيران التي أحرقت كثيراً من أشجار الزيتون، فتذكر الأب أيام الحرب الثانية، وأشجار الزيتون التي رآها في تونس عندما أخذوه مجنداً في الجيش الفرنسي، ثم تذكرت الأم أحاديث أبيها الذي حدثها عن جدها الذي ذهب في حرب «السفر برلك» ولم يعد، وقالت له هذا الجد هو الذي زرع حقل الزيتون في «جبل الديس»، بعدها شربوا «زوفة» وأكلوا من الكعك الذي أحضره يوسف من دمشق ومن الحلاوة التي اشتراها الأب من طرطوس، ثم قالت الأم إنها ستذبح غداً دجاجة وتطبخ معها البرغل احتفاء بيوسف. أما الطفلان فقد ناما بعد أن تعبا من اللعب والسهر دون أن ينهرهما أحد هذه الليلة، وآخر الليل كانت الأسرة قد قررت زرع غرسات الزيتون في طرف حقل زيتون «جبل الديس».

بعد اسبوع كانت الإجازة قد انتهت، وذهب يوسف دون أن يعود مرة أخرى، لكن غرسات الزيتون وطفليه ما يزالون ينمون، وهم الآن كقامة يوسف، يوم زارهم آخر مرة.

١٩٨٢

محمد كامل الخطيب

نيرودا.. هل عرفناه حقاً؟

بقلم: إنريكو ماريو سانتي
ترجمة: كامل يوسف حسين

كتب نيرودا «كراسة إيسلا نيجرا» خلال الفترة ١٩٦٢- ١٩٦٣ وهو في الرابعة والخمسين من عمره هدية لنفسه مع إقبال عيد ميلاده الستين لتكون سيرة ذاتية لحياته في صورة فيض من القصائد، فكانت رحلته الثالثة في عالم السيرة الذاتية، إذ كان مسلسل القصائد المؤلف من ثلاث-وعشرين قصيدة بعنوان «أكون» قد تضمن عرضاً لحياته حتى العام ١٩٤٩ وقد صدر هذا العمل في ١٩٥٠، وفي ١٩٦٢ نشرت مجلة «كروزيرو انترناسيونال» البرازيلية الشهرية «حيوات الشاعر» وهي سلسلة من مقالات السيرة الذاتية المتتابعة غدت فيما بعد أساس مذكرات نيرودا التي صدرت عام ١٩٧٤ عقب وفاته.

وليس مما يثير الدهشة أن يعكف نيرودا على كتابة السيرة الذاتية بين الحين والآخر، فقد كان شخصية عامة منذ مطالع العشرينيات من عمره حين جلب له ديوانه «خمسون قصيدة حب» الصادر عام ١٩٢٤ شهرة مبكرة وحفلت حياته بصفته قنصلاً لتشيلي في العديد من أرجاء الشرق الأقصى ثم في اسبانيا مع اندلاع نيران الحرب الأهلية هناك بالأحداث المثيرة. كان وهو المغالي في عدائه لعزلة المثقفين والغارق في النشاط السياسي الكفاحي تجسيداً للشاعر الأمريكي اللاتيني، وحظيت قصائده بقدر هائل من الانتشار وحفظها الكثيرون عن ظهر قلب. وحينما تلقى جائزة نوبل للأدب في العام ١٩٧١ وصفته الأكاديمية السويدية بأنه: «شاعر كرامة الإنسان المهدرة» الذي «بعث الحياة في قدر قارة وأحلامها». وفي مذكراته المكتوبة نثراً، بل وفي ديوانه «أكون» أبدى نيرودا اهتماماً أكبر بذاته التاريخية، بالدور الذي قام به في دراما التاريخ والتحول الاجتماعي، أما في «إيسلانيجرا» فإنه أقل إيغالا في التاريخ بالمقارنة برحيله وراء ذواته السابقة. ويغدو الشاعر الدائب التحول جالب الماضي إلى رحاب الحاضر لإعادة النظر فيه، عاكفاً على تدوين كراسة جواب آفاق حول نفسه. ولسوف يكون «ملاحظات من إيسلانيجرا» عنواناً أكثر أمانة واتساقاً مع العنوان الأصلي الذي لا علاقة لكلمة «كراسة» الاسبانية فيه بالكلمة ذاتها في الانجليزية والتي تعني في هذه اللغة الأخيرة «النصب التذكاري». وبدلاً من إقامة مثل هذا النصب، وهو قصد مغرق في التباهي، كتب نيرودا مذكرات تراوح بين الحاضر والماضي وتستحضر هذا الأخير إلى رحاب الحاضر الشعري (ليست «إيسلانيجرا»- عكس ما يوحي اسمها جزيرة كما أنها ليست سوداء، وإنما هي قرية صغيرة تقع على بقعة رملية على ساحل تشيلي المطل على المحيط الهادئ على بعد ثمانين ميلاً إلى الجنوب من ڤالباريزو حيث اشترى نيرودا دار قبطان عجوز في ١٩٣٩، كان يعتكف فيها ليعكف على النظم كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وحينما صدر هذا العمل وصف نيرودا القصد منه بأنه «غزل خيط سيرة حياة» وفي الوقت نفسه الإمساك بـ «الشعور الفرح أو الكابي لكل يوم.. قصة تتناثر ثم تلتم، تطاردها وقائع الماضي والطبيعة، ما تنفك تهتف بي بأصواتها العديدة» وعلى عكس المذكرات النثرية فإن «الملاحظات» لم يقصد بها أن تكون سيرة ذاتية متضمنة للحقائق بقدر ما أريد لها أن تكون كراسة غير رسمية يختلط فيها سرد وقائع الماضي مع سجل تجربة الحاضر، فالمذكرات النثرية هي استعارة لأحداث الماضي. أما «الملاحظات» فتنبع من الاستبطان، وتلفت الطبعة الإسبانية الأصلية الانتباه إلى مفهوم الكراسة هنا بنشر الكتب الخمسة التي تؤلف في مجموعها «إيسلا نيجرا» في مجلدات رشيقة منفصلة.

ولسوف يلاحظ القارئ، في غمار إيغاله عبر الكتب الخمسة لـ «إيسلا نيجرا»، التراجع التدريجي لخيط سيرة الحياة والتواتر المتصاعد لقصائد «المذكرات»، تلك الغنائيات التي تعزف نغمات الحاضر عبر تذكارات الماضي، طارحة حديث سيرة الحياة ومغلبة التأملات الحالية للشاعر الدائب التحوّل. ويبدو الانتقال جلياً لأول مرة في «هاتيك الحيوات» أي

القصيدة التاسعة عشرة في «قمر في المتاهة»، حيث يتحرر النص من أسار السياق الخاص بسيرة الحياة:

سأقول هكذا أنا لأترك هذه التعلّة
المكتوبة، تلك حياتي.
الآن من الجلي ألاّ سبيل لاجتراح هذا

وأن الخيوط ليست وحدها موضع الاهتمام في هذه الشبكة
وإنما الهواء الذي ينفذ متخللاً العيون كذلك.

وحينما نصل إلى «ذكرى» بعد خمس وخمسين قصيدة فإن الإقرار الأول يستحيل مناشدة «أن نترفق بالشاعر» وأن نغتفر له تقلبات ذاكرته، حيث:

سباقاً للنسيان كنت دوماً،
ويداي هاتان
ما كان بوسعها الإمساك إلا بما يستعصي تلمُّسه
بالأشياء التي لا تمس
التي لا يمكن أن توضع موضع المقارنة
إلا حينما لا يعود لها وجود.

ثمة نداء ملغز يحدث تأثيره في «إيسلا نيجرا»، ذاكرة شعرية لا يمكنها تبيُّن معنى التجربة إلا بـ «نسيانها»، ويلمح نيرودا إلى ذلك في المقدمة التي كتبها لـ«حيث يولد المطر» أي الكتاب الأول لدى نشره منفصلاً في طبعة سابقة في ايطاليا، فهنالك يدعوه بـ: «الخطوة الأولى رجوعاً إلى مبعدتي الخاصة» ثم يقر بفقدان الاتجاه الذي «يهديه»: «لقد نسي الدرب، فلم نترك آثاراً نستدل بها لنعود أدراجنا، ولئن كانت أوراق الأشجار قد ارتجفت حينما مررنا بها ذات مرة فإنها الآن ما عادت ترتجف، وعصا البرق التي انقضّت لتلحق الدمار بنا ما عاد يصدر عنها حتى الصفير، والسير نحو الذكريات في الوقت الذي غدت فيه دخاناً إنما هو إبحار في رحاب الدخان. وطفولتي، إذ أحدق فيها من عام ١٩٦٢ وفي ڤالباريز وبعد أن سرت هذه المسافة كلها، تتبدّى «لا مطراً أو دخانا». ونيرودا إذ يصف الذاكرة بأنها مهتزة ولا مجال للاعتماد عليها إنما يضفي على الماضي طابعاً فريداً يحفظه تماسكه غير القابل للتكرار ويجعل من الايماءة الخاصة بسيرة الحياة حدثاً قوامه التفسير يقر بوجود «المسافة» التي تفصل ماضي التجربة المعاشة عن حاضر الكتابة. ولم يقدر لهذه المقدمة قط أن تدرج في أي من الطبعات اللاحقة من «إيسلا نيجرا» الكاملة؛ ربما لأن نيرودا فضل أن يترك وجهة النظر الجوهرية تلك مدرجة ضمناً في القصائد.

ويعد الديوان الأول الموسوم «حيث يولد المطر» الديوان الأكثر وضوحاً في طابعه السردي لسيرة الحياة، فهو يغطي الأعوام ١٩٠٤- ١٩٢١، أي منذ ولادة نيرودا في بارال، وهي قرية صغيرة في وسط تشيلي، حتى وصوله إلى سانتياجو كطالب لدراسة اللغة الفرنسية في معهد المعلمين. وتتبع القصائد السياق الزمني لتطور حياة نيرودا، وتمنح العناوين غير الشخصية إطاراً موضوعياً لكل منها، فتبدو بمثابة صور في مغلف عائلي. ويشير عنوان الديوان إلى جنوب تشيلي الرطب (يقول نيرودا في مذكراته النثرية: «كان المطر بالنسبة لي في ذلك الوقت هو الحضور الوحيد الذي لا ينسى»، والقصيدة الأولى الموسومة «الميلاد» هي تأمُّل في موت أمه التي لم يعرفها- فقد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد شهر واحد من ميلاده بسبب السل- موت أقرب إلى التضحية يغذي كروم بارال ونموّ نيرودا، تتبعها قصائد تدور حول زوجة أبيه المحبوبة ترينيداد كانديا مارڤيردي وأبيه الفظ جوزيه ديل كارمن رييز موراليس، الميكانيكي في قطار عتيق، وكانا الشخصيتين البارزتين في تلك الأعوام الأولى من حياته. وتسود نوادر صباه في تيمكو القصائد التي تلي ذلك- نوادر اكتشاف الصبي لساندوكانا، وساندوكانا بطل قصة القراصنة الشهيرة لإميليو سالجاري نوادر دار وبنات أوميرو باشيكو، والأصدقاء المقربين من عائلة رييز، نوادر أقاصيص عمه جينارو الطويلة المفعمة بالدفء. وعلى نحو ما يفعل ووردزورث في الدواوين الأولى من «المدخل» فإن نيرودا يحضر كاشفاً عن «موسم بذاره البديع» الذي نما فيه «يضمه في آن واحد الجمال والخوف». وإلى جوار الرؤى الأولى «للشيطان، المخادع المظلم» في «خرافات» فإنه يستحضر مدن الجنوب الصغيرة في تشيلي: كاراهو، كوتان، رنيكو، فيلا نليبون التي تردد أسماؤه صدى منشأها الراجع بهنود أروكانيا. وينتهي السياق باستقرار نيرودا في دار مؤجرة للطلاب في كالي ماريورى بسنياتجو حيث قدر له أن ينظم العديد من قصائد ديوانه الأول الصادر في ١٩٢١ والذي كان بطريقته الخاصة وداعاً مؤلماً للطفولة.

يغطي الديوان الثاني الموسوم «القمر في المتاهة» الأعوام من ١٩٢١ إلى ١٩٢٩ من كتاباته الأولى إلى توليه المنصب الثاني من مناصب القنصلية الثلاثة في الشرق الأقصى. وتملأ القصائد العشر الأولى فراغ سنوات سنتياجو القلقة المتأرجحة، وتستحضر القصيدة الموسومة «١٩٢١» حفل توزيع الجوائز الذي تلقي فيه نيرودا جائزة اتحاد الطلاب عن قصيدة «أغنية المهرجان» ويشير إلى «القصائد العشرين ذات النكهة الملحية «التي ألهمته إياها في ذلك الوقت امرأتان مختلفتان هما تريزا وروزورا الشخصيتان اللتان تتصدران موكبا من قصائد العشق التي تتخلل «إيسلا نيجرا». ولم يكشف نيرودا قط النقاب عن حقيقة شخصيتي هاتين المرأتين لاجئاً بدلاً من ذلك إلى أسماء مستعارة على سبيل المداعبة. وكانت تريزا (أو ماريسول على نحو ما تدعى في المذكرات

النثرية) هي الملهمة الريفية لنصف هذه القصائد العشرين، وتفيض القصائد المهداة لها بزخم الصور الطبيعية، وكانت روزورا هي المقابل المديني لها (ويرد اسمها ماريسو مبرا في المذكرات النثرية) ويقول نيرودا في المذكرات إنها «السلام الجثماني للقاءات العاطفية في مخابئ المدينة» (مؤخراً ذكر أن روزورا هي ألبرتينا روزا أزوكار سوتو التي كانت زميلة لنيرودا في معهد المعلمين وشقيقة روبين أزوكار أحد أصدقاء نيرودا المقربين) وفيما بين القصائد التي الهمتها هاتان الملهمتان الجليلتان تتناثر قصائد خصصت للحديث عن «الأصدقاء المتدفقين جنوناً» في سنتياجو البوهيمية: جواكين سفينونيتس سيبولفيدا وألبرتو روجاس جيمنيز الرفيقين الشاعرين اللذين ألهم انتحار كل منهما على حدة نيرودا فيما بعد اثنتين من أكثر مرثياته تأثيراً في النفس: وكان أوميرو أرسى شاعراً معروفاً غدا سكرتيراً لنيرودا لبعض الوقت، ولا تزال الشخصية الحقيقية لراؤول راتفيس في رحاب الغموض، ولم يرد له ذكر في أي من المذكرات النثرية.

وتتناول القصائد التسع التالية السياق الزمني لرحيل نيرودا إلى رانجون مروراً بلشبونة ومدريد وباريس ومرسيليا وجولاته القنصلية في الشرق الأقصى. كانت السنوات الخمس التي قضاها نيرودا في آسيا مليئة بالمشاق، حيث انتقل من مناخ وبقعة أرضية مألوفين. وفي هذه الفترة نظم سلسلة من الغنائيات المعتمة روحياً. وتبدو قصائد نيرودا التي كتبها عن الشرق في تميّز حاد عن قصيدة «باريس ١٩٢٧» المفعمة بالحنين إلى الوطن. وقد أثقلته أعوام نفيه بعيداً عن أمريكا اللاتينية، حافلة بشعور قوامه استفظاع الحياة في مراكز الاستيطان الاستعماري التي عمل بها. وقد أصبحت قصيدة «باريس ١٩٢٧» والنهر المتدفق فيها «النهر المتدفق... نحو المدينة الخانقة» في «رانجون ١٩٢٧». ونظر إلى سيلان في ضوء أكثر إيثاراً وذلك على الرغم من أنه يعترف بأنه قد عاش هناك «بين اليأس والإشراق» غير أن خيط سيرة الحياة ينقطع بعد «هاتيك الحيوات» ولا يرد ذكرٌ لسنوات نيرودا الباقية في جاوه وسنغافوره وزواجه الأول عن غير حب من ماريا أنطوانيتا هاجينار، وهي من مواطنات جاوه من أصل هولندي أو لعودتها إلى تشيلي في ١٩٣٣، وبدلاً من ذلك ينتهي هذا الجزء بأربع قصائد منفصلة لا رابط بينها تختتم في القول بأنه «ما من نور ساطع، ما من ظل جليّ، في التذكار».

يعود الديوان الثالث الموسوم «النيران الضارية» راعداً إلى الواقعة التاريخية كأنما فرضت القصائد ذاتها على الشاعر. و«النيران الضارية» هي تجربة نيرودا المأساوية المتفجرة بالانفعال في الحرب الأهلية الاسبانية. كان يعمل قنصلاً لبلاده في برشلونة أولا ثم في مدريد في الفترة من ١٩٣٤ حتى أواخر ١٩٣٦، وربطته صداقة وثيقة بجمع من الشعراء الاسبان تتناثر أسماؤهم على امتداد هذه القصائد: فديريكو جارسيا لوركا، مجويل هرنانديز، رافايل إلبرتي، ڤايسنت الكسندر. كان وينشيسلاد روسيز صديقاً برز وسط اللاجئين الذين رتّب نيرودا لدى عودته كقنصل لشؤون الهجرة في ١٩٣٩ سفراً آمناً لهم على متن «وينبيج» سفينة الركاب المؤقتة. غير أن الترتيب الزمني للأحداث في هذا الديوان يشوبه الاضطراب، فنيرودا ينتقل من القصائد التي تدور حول اسبانيا إلى قصيدة «في المناجم السامقة» وهي قصيدة تدور حول مناطق التعدين التشيلية في أنتوفاجاستا وتاراباكا (التي انتخبت نيرود نائباً عن الحزب الشيوعي في مجلس الشيوخ في ١٩٤٥) ربما ليظهر أن انغماسه وتجربته في اسبانيا هما اللذان مضيا به إلى إعلان التزامه السياسي في تشيلي. وقد أدى تحول نيرودا إلى الالتزام إلى قيامه بإعادة تقويم الوظيفة الحقة للشاعر، يقول: «بدأت اتطلع وأرى على نحو أعمق، في الأغوار المضطربة، للعلاقات بين البشر». وهذا الشاعر الجديد الملتزم سياسياً، التزم كذلك «بالنزعة الأمريكية» أي الاهتمام بهوية أمريكية لاتينية حقيقية وأصيلة، وهو ما يتجلى في القصائد الصادرة في ١٩٥٠ والتي أتم نيرودا نظمها في المنفى السياسي فيما كان مختفياً عن أعين الشرطة التشيلية.

في منتصف «النيران الضارية»، تظهر ثلاث قصائد في انتقال مفاجئ للماضي هي «أتذكر الشرق» و«جوزي بليس» الأولى والثانية. ومن ناحية السياق التاريخي تنتمي هذه القصائد إلى الديوان الثاني، لكنها ترد هنا فجأة كصدمات الذاكرة. كانت جوزي بليس هي خليلة نيرودا في بورما، «سيدته السمراء» وكانت عاشقة شديدة الغيرة دفعت تهديداتها العنيفة بنيرودا إلى سيلان حيث تبعته إليها مناشدة إياه مصالحة لم يقدر لها قط أن تتم. وقد عاوده رفضه لها غالباً وعلى نحو مؤلم، وهي تعاود الظهور في العديد من القصائد التالية. إنها تظهر هنا شبحاً مفارقاً للواقع التاريخي، رمزاً لمعاناة وندم نيرودا. أما القصائد الباقية في «النيران الضارية» فهي قصائد مذكرات. وتشير القصيدة الأخيرة الموسومة «المنفى» إلى الفترة حوالي العام ١٩٥١ التي أمضاها نيرودا منفياً في أوروبا، حيث تعلق في كابرى بماتيلده أوريتا التي أصبحت زوجته الثالثة في عام ١٩٥٥. غير أن المنفى يبدو خاوياً، والشاعر «شبحاً يلفه الحرج» و«روحاً انتزعت من جذورها».

وتهب موضوعة المنفى الديوان الرابع عنوانه «حياد الجذور» والذي ينوّع على موضوعة المنفى بحسبانه اقتلاعاً للجذور، ويعرض عودة نيرودا النهائية إلى تشيلي في ١٩٥٢ باعتبارها رحلة للعثور على الجذور وإعادة امتلاك ناصية

هويته (استمد العنوان من تمثال خشبي نحته من جذر واحد طويل المثّال الاسباني البرتو سانشيز الذي أهدى نيرودا الديوان له (وتظهر صورة للتمثال على غلاف الطبعة الأصلية) وليس هناك إلا قدر محدود من سرد السيرة الذاتية في القصائد الثاني عشرة اللهم إلا في القصيدتين المهداتين إلى دليا ديل كاريل زوجة نيرودا الثانية التي طلقها في العام ١٩٥٤. وقد دام زواجه بدليا ثمانية عشر عاماً، كانت حافلة بالأحداث السياسية شارك فيها الزوجان بصورة نشطة، الأمر الذي يعلّل المنظور التاريخي المتد إلى جانب المنظور الشخصي في قصائد «دليا». وتستحضر «المغناة المكسيكية» التي نظمها نيرودا هناك منفياً في عام ١٩٤٩. أما القصائد الباقية فتظل محتفظة بالمناخ النفسي لقصائد نيرودا الصادرة في ١٩٥٨ وهي تأملات متعددة الجوانب.

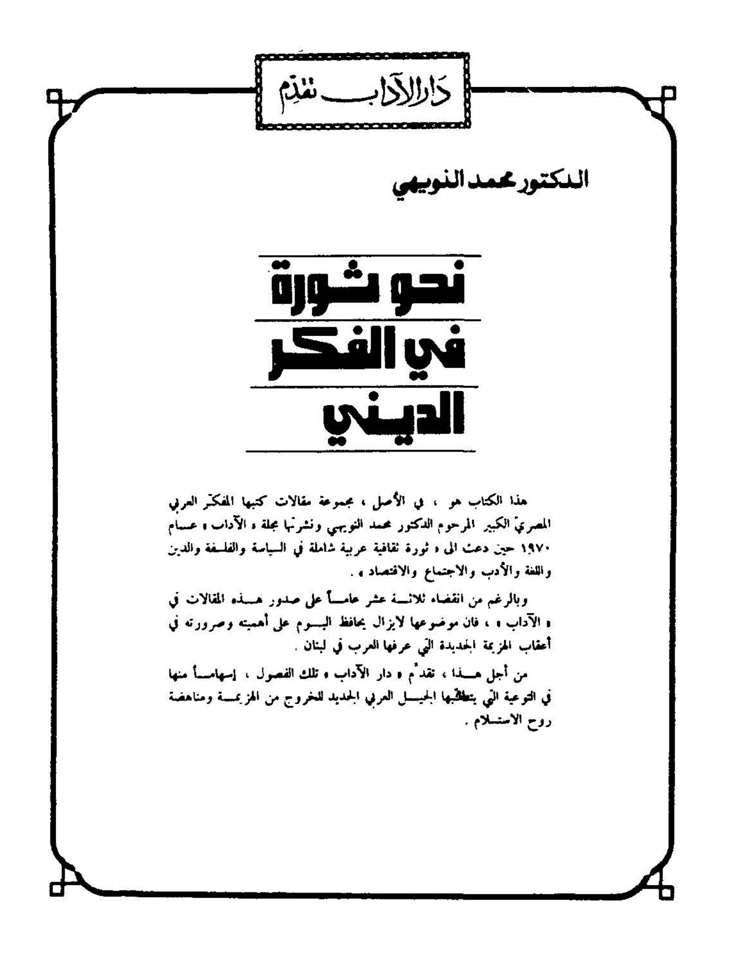
أما الديوان الأخير الموسوم «سوناتا نقدية» فهو أقل الدواوين من حيث طابع السيرة الذاتية، حيث أنه لا يعدو أن يكون قصيدة سياسية طويلة هي «الحدث» التي ينتقد فيها نيرودا النزعة الستالينية بقسوة، وفي الوقت نفسه ينغمس في الدفاع عن الذات. وعلى امتداد مقاطع القصيدة التسعة والعشرين يتتبع نيرودا على وجه التقريب إدانة خروشوف لعبادة الشخص في عهد ستالين لكنه ينظر إلى ستالين باعتباره تشويها مؤقتاً لا يمكن أن يحجب رؤيته للشيوعية ككل، يقول: «إن لحظة في الظلام لا تسلبنا النظر» وقد كان نيرودا ستالينياً مطيعاً، والعديد من القصائد أعدت لتهدئة ثائرة خصومه ومنتقديه. كان قد كتب في إجلال عام ١٩٥٤ «ستالين هو سمت الضحى، نضج الإنسان والشعب» أما الآن فهو يقول: «يختبئ وليد الرعب، الخوف، القمر، الشمس الملعونة، لذريته الملطخة بالدم».

وفي «سوناتا نقدية» يتم إبراز اثنين من نقاد نيرودا للتعامل معهما بصفة خاصة وهما: ريكاردو باسيرو (الذي يرد اسمه بيبيبا سيرو في «الحدث» وهو من أبناء أوراجواي وقد سار جنباً إلى جنب مع نيرودا في رحلاته على امتداد العالم، وبابلو دي روخا (سينورك، الشاعر المتلعثم) وهو من أبناء تشيلي، ومن معاصري نيرودا وقد دفعه حسده إلى كتابة مؤلف حافل بالتذمر بعنوان «نيرودا وأنا» (وقد انتحر دي روخا في وقت لاحق).

في الطبعة الأصلية من «إيسلا نيجرا» الصادرة في عام ١٩٦٤ كان النص الأخير قصيدة مهداة إلى ماتيلدة أوريتا (بعنوان «أقاصيص حب= ماتيلده» كانت بالمقارنة بقصائد الحب الأخرى تأملاً واحداً طويلاً حول الحب، إندماجاً روحانياً أكثر منها استحضارات منفصلة للذكرى. وقد حذف نيرودا هذه القصيدة من «إيسلانيجرا» في الطبعة الثالثة من اعماله الكاملة وجعلها القصيدة الافتتاحية لمنظومة قصائده الصادرة في عام ١٩٦٧ وهي قصائد حب نظمها في زوجته، وبذلك فإن مقطع «المستقبل فراغ» يغدو القصيدة الأخيرة في «إيسلانيجرا» وهي نهاية جديدة تفتتح بأكثر مما تختتم، وتتضمن تصوراً لعالم من الاحتمالات «أي فرحة أن نجد في الختام، طالعاً، كوكباً خاوياً».

في ٢٣ سبتمبر ١٩٧٣ توفي نيرودا في أحد مستشفيات سنتياجو إثر مرض فاقم من حدّته حزن الشاعر إزاء الانقلاب العسكري الذي أطاح بحكومة سلفادور الليندي الذي ساعد نيرودا في وصوله إلى السلطة. غير أن السيرة الذاتية للشاعر، شأن الذاكرة التي تسردها، تظل سفراً مفتوحاً، مبدعاً، ونابضاً بالحياة. يقول نيرودا: «كما لا أستطيع قياس الطريق، الذي قد يكون بلا وطن، أو تلك الحقيقة التي تبدلت».

قد لا يكون الإنسان جزيرة، لكن ذاكرته هي جزيرة قائمة بذاتها.



وَجهٌ للرِّيح ... وَميلاد آخر

يوسف طافش

يا هذا الوجه القابع في ذاكرتي
تتفيأُ ظِلَّ الهاجس ...
في مُنتصَفِ اللّيلِ
لتعبُرَ قافلةُ الأحزانْ
بين المقلة والأُخرىٰ... يتهادىٰ
شَفَقٌ ممزوج باللهب الأزرقْ
فُلْكٌ تحمل ثلجاً محشّواً بالجمرْ
وعروس البحر تُولولُ بين الأمواجْ

★ ★ ★

لن أتلو سِفْرَ الردّةِ...
لن أستجدي...
واحةَ ظلٍّ في الرمضاءْ
إني أتهيأُ للزمن الآتي
كمخاض الطين...
وميلادِ الصَّلصالْ
أضلاعُ الليلُ تُفرّعُ في الأسحارِ...
شظايا
والزينة تعلو كل بيوت الغرباءْ
وخطوطُ الطولِ...
خطوطُ العرضِ ...
كذاكرتي
تتوحَّدُ فيها الأزمانْ
كي أَضبطَ ساعاتِ الفرح الأَبَدِيّ
على نبضاتِ قلوب العشاقْ

★ ★ ★

يا كاهن ذاك المعبدِ
لن تصلبَني في أديرةِ الريحِ ...
على صهواتِ الوهمْ
أمهلْني بُرهةَ وجْدٍ صوفيّهْ
لأُخاطِبَ صمتَ الدهرِ...
وذُلَّ الفَجْرِ...
ضياعَ العمرِ...
وصبرَ المرِّ على المُرْ

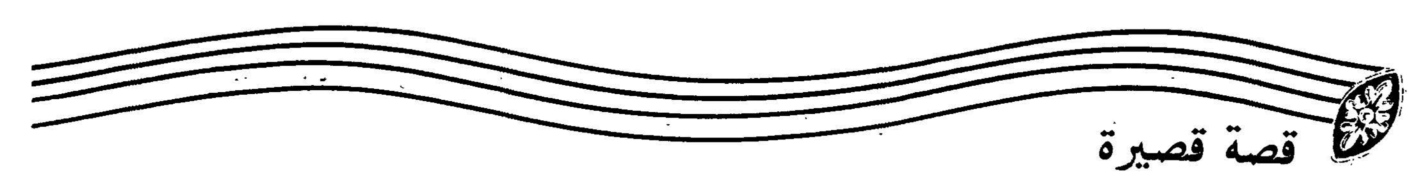
★ ★ ★

لن تسلبَني لغةَ الشمسِ ...
فإنَّ الأرض تدورْ
يتواثَبُ ومْضُ البرق
ليفضحَ زيفَ الأوسمةِ الطينيّهْ
فدمُ الشهداء كروحِ اللهِ
تَجسَّدَ فيهِ الخصبُ الأزلي
سقطَتْ أوراقُ التينِ...
تعرَّتْ كل الأسماءِ المثقوبهْ
آلافُ الأيدي تمتدُّ....
تشيرُ إليها
تتَّهِمُ الموتى والأحياء..

★ ★ ★

حلقات الذِّكْرِ حَفِظْناها
وألِفْناها... كملاجئنا
ما بين اللفَظةِ والأُخرىٰ
حرفٌ مرصودْ
ما بينَ الطَلْقَةِ والأخرى
هَدَفٌ مفقودْ
هذا كَفَني...
وأنا المجنونُ الحافي القدمينْ
يتيماً جاءَ... يتيماً عشتُ...
يتيماً في وجهِ سِهامِ القوسِ
يَرُدُّ الطعناتْ
ودمي يَلعَنُ مَنْ خَزَّنَهُ
في كُثبان الرملِ...
وفي أقبيةِ الحاناتْ
هذا المجنون الحافي القدمينْ
لم يبق وحيداً في رحم الليل القُطبِي
قد لامسَ بركان الفجرِ...
فغاصَتْ أطراف الكلماتْ
بالفِطْرةِ صار حليفَ النحلِ...
وصِنْوَ البرقِ...
ليُعْلِنَ أعيادَ الفقراءْ.

★ ★ ★



قصة قصيرة

عشّ الوقواق...



عبدالخالق الركابي

هل تظنون أن بحة صوتي هذه نتيجة مرض؟ أبداً... فانا لله الحمد لا أشكو من علة ما. كما وأنني لا أدخن سوى القليل... سيكارتين أو ثلاثاً... وعلى أبعد تقدير أربع سكائر لا أكثر، وحتى هذه السكائر الأربع لا أدخنها إلا عندما يعتكر مزاجي. ولماذا يعتكر؟ لكم الحق بسؤالكم هذا، فالله سبحانه وتعالى ما ابتلاكم بأخ مثل أخي (عذاب) عذبه الله في الدنيا والآخرة، فبسببه لا أكف عن الصراخ منذ شروق الشمس حتى غروبها... في البيت وسط طلبات العائلة التي يلاحقونني بها أينما تحركت... وفي الحقل حيث أمضغ التراب مع لقمة الخبز... وحتى على تخت المقهى هذا. وتأكدوا بأن موتي سيكون على يديه، فذات صباح جميل سينتبهون لتأخري في فراشي... فيأتون إلي ويهزونني... (عواد) استيقظ فاللحم قد نفد... (عواد) انهض فالابقار تكاد تموت جوعاً... (عواد) قم لقد تأخرت عن الذهاب إلى الحقل. لكن (عواد) لن يتحرك فقد مات واستراح منهم إلى الأبد، يومها لن ينفعهم البكاء والعويل. ولتشهدوا انتم يا جماعة الخير بأن أخي (عذاب) هو سبب موتي الوحيد، فها هو يفضحنا على امتداد القرية من جديد ويهرب من وحدته ليتحصن كالعادة بدغل الخندق. سبع سنوات مرت على خدمته العسكرية، وجماعته الذين جُنّدوا معه سُرّحوا منذ أعوام وعادوا إلى القرية فتزوجوا وملأوا بيوتهم أطفالاً وثلموا الأرض بمحاريثهم لعدة مواسم، سوى (عذاب) الذي ما يكاد يلتحق بوحدته لأشهر حتى يهرب لعام!.. لقد أفسدته أمي بتدليلها له لأنه (آخر النصيب) وجعلته دخواً مثل عشب ربيعي. وأبي بدوره ساهم بإفساده... تصوروا رغم تخطّيه السبعين لم أسمع صوته في يوم من الأيام يعلو في البيت. وبأستسلام غريب يراقب أمي دون أن يحاول زجرها أو منعها من التورط بشاداتها اليومية مع الجيران، تلك المشادات التي سرعان ما تتحول إلى معارك حقيقية تتخللها عمليات اغارة خاطفة مصحوبة بالصفعات وشد الظفائر وخمش الخدود وتطاير (الفوط) في الهواء. وان طلبت منه التدخل ووضع حد لتلك الفضائح نظر إلي بصمت ململماً باصابعه النحيلة المتجسّئة ورق السكائر والزناد وكيس التبغ ليدخل الحجرة وينام من فوره. في هذه الحالة لمن التجيء يا جماعة الخير؟ فإخوتي الخمسة أشبه بطائر الوقواق الذي يعمد إلى سرقة بيض طائر آخر ليضع بيضه هو في عشّه. وبيتي انا بمثابة ذلك العش المباح: فكل ما يهم أخي (جبار) لا يتعدى الإختلاء بامرأته الضامرة كالزنبور و... لعنة الله على الشيطان... ولا تمر سوى تسعة أشهر حتى تلد له طفلاً آخر. وعلى هذا المنوال تتابع ابناؤه الثلاثة ليثقلوا عنق عمهم المسكين (عواد)- أنا الذي تعاديني الدنيا بأجمعها- وأخي (جاسم) مذ اخضر شاربه واكتشف ان القرية ليست كل شيء في الدنيا فهناك مدن أخرى أكبر وأجمل، حتى استولى على بقايا حلي أمي التي جمعتها في زمن الليرة والقران والبيشلغ، وسافر بها إلى بغداد ليغيب مدة عام كامل عاد بعدها لعش الوقواق بيتي بأسمال ممزقة ولحية مسترسلة كلحية الدراويش- وبطبيعة الحال استحسنت أمي وفادته، بل وبللت كتفه بالدموع وهي تتنسم رائحته- ويا لها من رائحة!- دون أن يخطر لها أن تسأله عن مصير حليها التي سبق لها وأن رفضت أن تزهنها عندما تزوجت انا (عواد)- حصان العائلة المنبوذ- وما مرت سوى بضعة أيام حتى استولى (جاسم) هذه المرة على حلي أختي وسافر بها من جديد. ومنذ ذلك اليوم ما أن يعون من احدى رحلاته المتعاقبة بأسمال ممزقة ولحية مسترسلة كلحية الدراويش حتى يتردد تحت سقف المنزل صديد أغطية الصناديق وهي تطبق وتثقل بالأقفال، وأبواب الحجرات توصد، وأعين الجميع تترصده انى سار. وأخي (كرم) أبعد الناس عن الجود والكرم لشدة بخله يكاد يمنع أطفاله عن التغوط خوفاً من أن يجوعوا

سريعاً. وأخي (محسن) منذ التحاقه بالخدمة العسكرية قبل سنوات بعيدة لم يعد إلى القرية ولو لمدة واحدة لا في الأعراس ولا في المآتم. لكنه لا ينسى ان يبعث لي برسائله من فترة لأخرى طالباً مني المزيد من النقود- كأنني أسكّها في بيتي!- منوهاً بأنه يطلب بذلك حقاً مشروعاً، فعند موت الوالد اطال الله في عمره- هكذا يقول في رسائله دون حياء- فله نصيب من الإرث! وقبل ثلاث سنوات التقاه صديق من القرية في أحد شوارع بغداد وهو بملابس عسكرية واحدىٰ ذراعيه مضمدة. وعندما سأله الصديق عن سر ذلك الضماد أخبره (محسن) بأنه أصيب بشظية قنبلة في إحدىٰ المعارك. وبطبيعة الحال لم يخبره باسم المعركة الموهومة تلك ومتىٰ وقعت لأننا جميعاً نعرف بأنه لم تقع ثمة معارك في تلك الفترة علىٰ الإطلاق. وقبل أن يستفيق الصديق من دهشته أسرّ (محسن) في أذنه وهو يومئ بيده الملفوفة بالضماد لجهة ما من انه في سبيله للقيام بمهمة خطيرة!... ومرة أخرىٰ لم يوضح نوع مهمته تلك، فقد فوجئ الصديق به يقفز علىٰ ظهر شاحنة عسكرية صادف أن مرّت في تلك اللحظة، وأحاط فمه بقبعته التي عملها مثل بوق صاح من خلاله:

- كيف هي أحوال أمي وأبي؟

وغابت به الشاحنة. لكن (كيف هي أحوال أمي وأبي) هذه جعلت الوالدة تذرف ملء قربة دمعاً وامتنعت عن تناول الطعام لثلاثة أيام!

استحلفكم بالله يا جماعة الخير الا تكفي واحدة من هذه المشاكل لكي تنغص عليكم حياتكم؟ ألا تكفي؟... رحم الله أمواتكم... لكن يبدو ان أخي (عذاب) ليس من رأيكم، فهو يعتقد بأن الله لم يخلقه إلا لأجل غاية واحدة هي تعذيبنا فقط، وخير دليل علىٰ ذلك تسميته بهذا الاسم. ورغم حب أمي الشديد له لكن ذلك لا يمنعها من الاعتراف بأنه وهو جنين في بطنها لم يكن يهدأ أبداً. ولم يتركها تهنأ بنوم مريح ولو لليلة واحدة فشغله الشاغل كان الإمعان بالرفس كأنه في عجلة من أمره لإنجاز المهمة الموكولة إليه. وحتىٰ وحامها وهي حامل به كان غريباً، فقد توحّمت برماد السكائر!! وكانت تدخن بشراهة وتزدرد الرماد خلسة إلىٰ أن ضبطها أبي ومنعها عن ذلك وضيق الخناق حولها، فكانت النتيجة ان جاء (عذاب) إلىٰ الدنيا ووحمة حمراء تمتد علىٰ خده الأيمن.

منذ طفولته وهو طائر وقواق حقيقي، فلفرط الدلال الذي أحيط به لم يكن يتورع عن طلب أمور صعبة المنال بل ومستحيلة: ففي منتصف إحدىٰ الليالي أجفل من نومه وانخرط بالبكاء. ووسط نشيجه الملهوف أعلن عن رغبته بأكل (الجمّار!) وتنغّصت حياة العائلة فقد استيقظنا بأجمعنا وحاولنا بوسائل شتىٰ إقناعه بتأجيل طلبه ذاك لصباح الغد. لكن دون جدوىٰ، مما اضطر أبي- الذي كان يجبه كعادته بصمت- إلىٰ التوجّه للبستان مردفاً علىٰ كتفيه (عذاب) الذي عقد ذراعيه الصغيرتين حول جبينه وثمة شهقات يطلقها من وقت لآخر وانتفاضات تنتاب جسده تدل علىٰ بقية بكاء لم يستطع إفراغها بعد. ورغم ذلك شرع يضرب بقدميه صدر أبي وهو يحثه علىٰ السير سريعاً صارخاً به: (ديخ!) وكان علي- أنا المسكين (عواد)- حمل الفانوس أمامهما متعثراً بين خطوة وأخرىٰ من فرط النعاس. وفي البستان وقع اختيار (عذاب) علىٰ نخلة من صنف (الزبير) النادر. وعبثاً حاول أبي ثنيه عن اختياره ذاك، فقد ازداد اصراراً ولم يهدأ إلا بعدما غرز اسنانه الدقيقة في لحمة (الجمار) الناصعة البياض. بعدها مال برأسه جانباً واستغرق في نوم عميق. وفي احدىٰ ليالي الصيف كان يضطجع بين أبي وأمي في الفناء الذي يتوسط حجرات المنزل. وكان قد أجبر أبي علىٰ أن يسرد له عشرات القصص والحكايات حتىٰ أثقل النعاس أجفانه. وفجأة فتح عينيه علىٰ سعتها وأمعن النظر في القمر الذي كان قد توسط السماء. فتوجس أبي شراً. وكما توقع: مدّ (عذاب) سبابته الصغيرة نحو السماء معلناً بأنه يريد القمر!! ومرة أخرىٰ تنغّص نوم العائلة إذ كيف نأتيه بالقمر؟ وحاولنا إقناعه بالعدول عن طلبه المستحيل ذاك. لكنه فغر فمه فانكمشت الوحمة الحمراء إلىٰ أصغر حجم. وانطلق يجأر بصوت دونه هدير مطحنة. وسال مخاطه مكوناً حول فمه الفاغر هالة كانت تلتمع علىٰ ضوء القمر الذي لا بدّ له من الحصول عليه! وبطبيعة الحال كان علي أنا- (عواد) حلّال المشاكل- إيجاد الحل المناسب لهذه المعضلة. فهمست في أذن أبي الذي هز رأسه موافقاً. وجئت بطاسة مملوءة ماء جعلتُ صورة القمر تنعكس علىٰ صفحته. وبصوت حاقد طلبت من (عذاب) أن يتفضّل ويتناول القمر. وما أن غمس أصابعه وترجرج الماء وشرع القرص اللماع بالاهتزاز حتىٰ أفرغت غيظي بأن صرخت به طالباً منه الإسراع بالإمساك به قبل أن يطير. فغطس يده لتقع أصابعه علىٰ خوخة كنت قد أسقطتها في الطاسة خفية. عندها طوّقناه من جميع الجهات مانعين إياه النظر للأعلىٰ بعدما أصبح القمر في حوزته. ورغم حرارة تلك الليلة فقد اضطررنا للنوم في إحدىٰ الحجرات خوفاً من أن يتطلع (عذاب) إلىٰ السماء فيكتشف الخدعة. ووسط ظلام الحجرة الدامس سمعنا صرير أسنانه وهو يزدرد القمر، فحمدنا الله علىٰ ذلك. لكنه فجأة عاد إلىٰ البكاء. وعندما سأله أبي عن الأمر هذه المرة أجابه بأنه لو كان ما أكله هو القمر فما هو هذا الشيء إذن؟ وناوله نواة

الخوخة. وببساطة أجابه أبي بأنها نواة للقمر إن زرعها ولدت قمراً جديداً سينير ليالينا بعدما ازدرد القمر القديم. وصباح اليوم التالي سارع (عذاب) بزرع النواة في إحدى زوايا الفناء. وفي الليل أدرك صدق قول أبي فقد رأى القمر الجديد يشعشع بضوئه المخضوضر!

تلك هي مصائب (عذاب) وهو صغير، أما ما الذي حدث بعدما كبر ودخل المدرسة و... أو هوه... ذلك حديث طويل لا نهاية له... المهم ان تعلموا انه كان (يسقط) في كل صف لسنة أو اثنتين إلى أن شملته الخدمة العسكرية. يومها حمدت الله وقلت لنفسي: ارتحت أخيراً يا (عواد) فالجندية ستعلم أخاك كيف يصبح رجلاً.

في تلك الفترة ذاتها، بعد مرور شهر على التحاق (عذاب) بالخدمة العسكرية، انتبهنا لذلك المرض الغريب الذي أصاب الدجاجات في القرية. نعم؟ ما علاقة ذلك بمصائب (عذاب)؟ صبراً... صبراً فالله مع الصابرين، فهل يجوز أن أبدأ الحكاية من نهايتها؟ هل يجوز؟.. رحم الله أمك وأباك. نعود لحكايتنا يا جماعة: في أول الأمر بدت المسألة وكأن ثمة مرضاً غامضاً أصاب الدجاجات أدى بها إلى الشحة في إنتاج البيض. غير أن نسوتنا نحن الفلاحين خبيرات بمثل هذه الأمور، فلمسة واحدة من أصابعهن لمؤخرة دجاجة كفيلة بإظهار انها قد باضت منذ فترة قريبة، ولكن أين البيض؟ تلك هي المشكلة الأولى. وعندما شرعت الدجاجات ذاتها بالاختفاء أدركنا بوجود دخيل في المنطقة. لكن الغريب ان تلك السرقات كانت تحدث بغموض تام دون سماع نقيق دجاجة أو نباح كلب أو ترك أثر اللهم إلا القليل من الريش يتناثر باتجاه الغرب. وذلك كان الدليل الوحيد على كون السارق المجهول يعيش في غابات النخيل. لكن من هو؟ وهل هو غريب عن منطقتنا؟ في هذه الحالة لم لا تنبح الكلاب؟ إذن هو من أبناء المنطقة. وهل يعقل ذلك؟ هل يوجد ثمة من يسرق أهله؟ لا أطيل عليكم فما مرت أيام حتى شوهد جنديان من الانضباط العسكري يتجولان وسط الحقول وقبعتاهما الحمراوان تشاهدان من بعيد، وقد عقد كل منهما يديه خلف ظهره ممسكاً بعصا صقيلة يهزها بإهمال، وعلى الجانب الأيمن تدلى مسدس بقراب أبيض. في النهاية ولج جنديا الانضباط بيت المختار. وما مرت سوى لحظات حتى انتشر الخبر في القرية من أن (عذاب) هرب من وحدته، وذلك ما كان قلبي يحدثني به- انا (عواد) الذي أتشمم أخباره من بُعد فرسخ!.

في البيت استقبل الخبر بأشكال متناقضة: فأبي العجوز تحصن بصمته المعهود ولم يطرأ على ملامحه أو تصرفاته أي تغيير اللهم إلا أنه أفرط في التدخين لدرجة انه انهمك ليلاً بسعال مؤلم أطار النعاس عن أعيننا جميعاً. أما أمي فما أن سمعت بالخبر حتى شرعت دموعها بالجريان. ومسحت أنفها عشرات المرات حادجة بين لحظة وأخرى زوجها الصامت بنظرات إتهام وتأنيب لكونه لم ينجدها في محنتها وترك «آخر النصيب» عرضة للجوع والمرض. ولم تَنس ان تتحبّب لكنّتها- امرأتي انا المغضوب عليه (عواد)- فاختطفت الطفل الصغير من بين يديها بحجة انه انهك أمه المسكينة والأولى به أن يتعب جدته بعض الشيء. وفي النهاية رسمت على شفتيها الرخوتين إبتسامة ذليلة، راجية كنّتها العزيزة ألاّ تنسى إبقاء عشاء (عذاب)، ساخناً، فقد يمرّ عليها ليلاً ليقبل يدي أمه الحنون. ذكرت ذلك وانخرطت بالبكاء. واعترف لكم يا جماعة بأنني وجدت مثل هذا الخبرَ فرصة نادرة لي لأثأر لغمط حقوقي طوال هذه السنوات التي مرت فأرعدت وأزبدت وجلت بعيني في محجريها مظهراً لوالديّ- لأمي بشكل خاص- كيف ان الدلال أفسد هذا (الجرو الصغير) وكيف انني أنا (عواد) قد تحملت العناء والشقاء مذ كنت بهذا العمر- وربتُ على رأس أحد أطفالي- مذ هذا العمر وأنا أشبه بمكوك الحائك... قدم هنا... وقدم هناك... ويد في الشرق وأخرى في الغرب... لدرجة أنني نسيت نفسي وضحيت بمستقبلي فلم استطع الحصول على الشهادة الابتدائية إلا (بطلعان الروح)... والنتيجة؟ زأرت بكلمة (النتيجة) بصوت مدوٍ تردد صداه بين حجرات المنزل... بل وعبر الغابات القريبة. لقد كانت لحظة لا تنسى فالصمت ران على الجميع وأحتبسوا أنفاسهم في صدورهم اعترافاً بسطوتي أنا (عواد)- معيل العائلة الوحيد- النتيجة اننا أصبحنا مضغة بأفواه الجميع بعدما جبن (عذاب) وفضحنا بهربه من الجيش، هذا الهرب الذي تأكد بشكل حاسم عندما شوهد عمود دخان يتلوى صاعداً من قلب دغل الخندق. كما وأكد بعض الأطفال أنهم لحوا خطفاً، عند غروب الشمس، فتى بوجه ملتحٍ يمرق سريعاً ليختفي وسط الأدغال حاملاً تحت إبطه شيئاً لم يعرفوا ما هو بالضبط لكن المهم أن الريش كان يتطاير منه... وكانت هناك أمعاء طويلة تتلوى خلفه منسحبة على الأرض كالثعبان!... وبطبيعة الحال صدقت القسم الأول من الحكاية، لكنني أغرقت في الضحك وأنا أسمع القسم الثاني الذي يتحدث عن الأمعاء والثعبان ففركت أذن أقرب صبي لي حتى جعلتها تتورد كالبنجر لأن من طبع الأطفال المبالغة بكل شيء!.

واعترف لكم بأنني في البداية لم استطع عمل أي شيء سوى إحراق دمي بتدخين تلك السكائر الأربع وبث همومي حتى للحجر الأصم. وبقي (عذاب) طليقاً بين الأدغال لا يشاهد إلا

لماماً وبشكل خاطف: كأن يلمح أحد الأطفال منخريه وهو يطل بها من وراء جذع شجرة متشمماً الهواء. أو كأن ترتعد صبية على الشريعة وهي تفاجأ بعينيه تلتمعان من بين دغل صفصاف. أو كأن يجفل رجل عجوز يقضي حاجته قرب النهر فينتصب مذعوراً على وقع خطى سريعة مرقت بالقرب منه مخلفة نثار ريش يتطاير في الهواء الساكن لبعض الوقت ليستقر في النهاية على الأرض بكل هدوء. ومرت فترة أصبح في الإمكان ترصد مواضع تحركات (عذاب) المريبة وذلك بإرهاف السمع: فها هي صرخات (زهرة) تلعلع لترتفع لعنان السماء نادبة سوء حظ أيتامها لأن دجاجاتها لوحدها عرضة للسرقة. وذلك هو صوت (هضيمة)- تلك العانس التي مر عليها عشرون سنة وهي تحلم كل ليلة باقتراب موعد زواجها- يسمع وسط حشد من نساء القرية وهي تقص عليهن آخر أحلامها والذي رأت فيه دجاجتيها اللتين سرقتا منها قبل ثلاثة أيام، وذلك دليل واضح على قرب زواجها!... نعم... فالدجاجتان هما الهدية التي سيقدمها عريسها لها! وتلك هي (أم صالح) وفوطتها تطر من خلفها تعد بطريقتها الخرقاء المرتكبة دجاجاتها فتكتشف انها زادت واحدة!.. وبعدما تطرف بعينيها الصغيرتين بحيرة تعود وتعدها للمرة الثانية فتفغر فمها ذهولاً لأنها تراها قد زادت اثنتين!.. لا بل ثلاثاً!.. وفي النهاية لا بد لها من الاستعانة بابنتها (سعاد) التي تكتشف أن ثمة دجاجة قد سرقت منها!

وفي الحقيقة أن نجاح (عذاب) بسرقاته تلك وعدم ضبطه ولو لمرة واحدة أثار دهشتي. كما وان قصة تلك الأمعاء التي تزحف خلفه كالثعبان شحذت خيالي. وبعدما سرحت بأفكاري لبعض الوقت ودخنت سيكارة استطعت- أنا (عواد) الذي لا تخفى عليه خافية- اكتشاف لغز سرقاته الغامضة تلك، فما أنه لا يعقل ان يقتصر طعام عذاب على الفواكه المتوفرة في البساتين فلا بد له إذن من البحث عما يقتات عليه. وما الذي يتوفر عادة في القرى؟ البيض والدجاج. أما البيض فسرقته هينة قياساً لسرقة الدجاج. لكن لا يمكن الاستمرار بازدراد البيض لفترة طويلة لأنه في هذه الحالة... حسناً هناك الإمساك الذي سيدك الأمعاء! أما الدجاج فلا شك ان (عذاب) يعرف بحكم التجربة ان هذا الكائن التافه يمتلك سلاحاً ماضياً يشهره في وجه كل من يحاول سرقته وهو النقنقة بإيقاع سريع تتخللها صرخات مبالغ بها تلفت الانتباه. والذي يهم (عذاب) ان تتم السرقة بصمت تام، فكيف السبيل لذلك؟

سأقول لكم، في البداية يكون قد تزود بشريط من أمعاء شاة أو معزاة. بعدها يتم اختيار الوقت المناسب لتنفيذ العملية. ولا شك انه يفضل أن يكون ذلك قبل شروق الشمس حيث النوم يثقل أعين الجميع، أو بعد غروبها عندما تخلو الطرقات من المارة. ومن المؤكد انه سبق التنفيذ بعملية رصد سريعة قام بها قبل يوم أو اثنين وتأكد من جميع المداخل والمخارج والمواضع التي يكمن فيها الخطر. وهكذا يتسلل (عذاب) بخفة متناهية في ذلك الاتجاه. وهنا تواجهه أولى العقبات وهي محاولة كسب ود الكلاب. وبما أنه ليس غريباً عن منطقتنا فالعملية لا تقتضيه أكثر من إطلاق صفير خافت. ولا بأس من قذف عظمة سبق وان احتفظ بها في جيبه. عندها تنسجم الكلاب باتباع طريقتها المعهودة من هز ذيل وتشمم هواء وازدراد ما أهدي لها ومن ثم العودة إلى الاستلقاء ودس الأنف المدبب بين طيات الذنب الكث. وبذلك يكون (عذاب) قد قام بخطوة هامة جداً إلى الأمام. وبقيت الآن الخطوة التالية وهي الأصعب والأدق تنفيذاً، يكوّر الأمعاء في يده، وبهدوء وحذر خبيثين ثعلب ملتح- لا شك ان لحيته نمت وهو يعيش في الأدغال- يقترب من سرب الدجاج. وبلامبالاة أصيلة لا أثر فيها للافتعال يدع أحد طرفي الأمعاء ينزلق من يده ليستقر على الأرض. وبنفس الهدوء والحذر السابقين ينسحب بعيداً- حسب المسافة التي يسمح بها طول الأمعاء- ولأنني أعرف مبلغ خبثه فمن المؤكد انه يطلق صفيراً خافتاً ويترنم بأغنية ما في محاولة لئيمة لخداع ضحيته. وبما أن الدجاج- كما قلت من قبل- كائن غبي وتافه جبل على الجشع فإن إحدى الدجاجات سرعان ما تعقف برأسها جانباً قاذفة طرف الأمعاء المستقر بالقرب منها بنظرة غير مصدقة. وبغتة تصفق بجناحيها و.. قت.. قت.. قت... تغير على طرف الأمعاء وتبتلعه دون تردد. عندها تنتهي لامبالاة (عذاب)، فيتحول من ثعلب ملتح إلى ذئب ذي وجنة حمراء تكون في ذروة توردها لحظتئذ و... بوق... ينفخ في طرف الأمعاء الذي في يده و... قيق... تطلق الدجاجة صرخة مخنوقة تجمد على أثرها في موضعها ذاهلة بعدما انتفخت الأمعاء في حلقها ومنعتها عن الحركة. وبضربة خاطفة يغير (عذاب) على ضحيته ويركنها تحت إبطه. والعملية بعد ذلك بسيطة، فبعدما تطرف الكلاب بأجفانها ببلادة وتغرغر بهرير مكتوم تعود لتواصل النوم على أثر صفير آخر يطلقه (عذاب) الذي كل ما عليه الآن هو أن يلوي عنق الدجاجة فينتهي كل شيء ولا يبقى سوى قليل من الريش، يتتبع سيره نحو الغابات وشريط أمعاء يزحف خلفه كالثعبان!

ولكن هل تتصورون أنني تركته يهنأ بسرقاته تلك إلى الأبد؟ ذلك ما لا أجيب عليه بنفسي وبإمكانكم ان تسألوا (شهاب) الذي يعمل ناطوراً في بستان يحاذي دغل الخندق. حسناً... لقد قرر (شهاب) مساعدتي في القيام بغارة خاطفة لإلقاء القبض على ذلك اللص الأفاق. والحقيقة أن مساعدته لي لم تكن لوجه الله بل لأن محتويات كوخه القليلة كانت عرضة

لسطو (عذاب): ففي إحدى الليالي سرق علبة الشاي والسكر. وفي ليلة أخرى سرق كيس تبغه. كما واستولى على مدية رائعة ذات نابض ما أن يضغط عليه حتى يقفز النصل الفولاذي المرهف كأنما ركبه الجن. بل وسرق (عذاب) (التبلية) التي يستعملها (شهاب) لصعود النخيل!... وقد ملأ هذا العمل الدنيء (شهاب) حنقاً فتورد وجهه الكروي الممتلئ، وبصوت متهدج من فرط التأثر أعلن أمامي أنه لو كان (عذاب) بحاجة لحبل يشنق به نفسه لكان قد أعطاه إياه بكل ممنونية. أما أن يسرق (التبلية) التي هي مصدر رزقه... ولم يستطع الناطور المسكين الاسترسال في كلامه. وفي الحقيقة أن صمته ذاك كان أبلغ خاتمة. لكن وقاحة (عذاب) بلغت الذروة عندما حاول الاستيلاء على بندقية (شهاب) البرنو النادرة التي يعزها أكثر من روحه، لكن الله ستر وانتبه (شهاب) في اللحظة الأخيرة على وقع الخطى الثعلبية فأجفل من نومه وصرخ به فولى الأدبار، لذا قرر (شهاب) مساعدتي من تلقاء ذاته لأجل الإمساك بذلك اللص الذي لا يتورع حتى عن سرقة (التبليات)!

في منتصف إحدى الليالي قمنا بغارة مفاجئة على موضع معين سبق لـ(شهاب) أن ترصد فيه (عذاب) أكثر من مرّة. ولفترة تقارب نصف الساعة تراقصت ظلال النخيل والأشجار من حولنا على ضوء بطاريتينا. واصطفقت عشرات الطيور بأجنحتها وهي تمرق فزعة من أعشاشها لترتطم بالأغصان المتشابكة. لكن مع الأسف كانت النتيجة الوحيدة التي انتهينا إليها هي أننا لم نقع سوى على لبادة بالإضافة لوسادة وبطانية صوفية. والغريب أنني اكتشفت أن تلك الأشياء كانت من ممتلكاتي انا ولا شك أنها سلبت من بيتي! أما كيف وصلت لـ (عذاب)؟ فذلك ما لم أفكر به طويلاً: إنها هي... لا شك أن أمي هي التي أعطته هذه الأشياء خفية! ولأول مرة في حياتي أرسلت أقذع الشتائم بحق أمي - أرسلتها في سري بطبيعة الحال - وبوجه صارم لا أثر فيه للتأثر أو الشفقة طويت تلك الأشياء وقذفتها على كتفي وعدت بها إلى البيت لأستقبل بصراخ أمي وعويلها كأنني حملت إليها (جنازة عذاب) لا فراشاً اغتصب من (حلالي)!!

قد تقولون إن (عذاب) سلم بجلده بعد تلك الغارة؟ لكنني اجيبكم بأنكم واهمون، فقد شددت الحصار حول الدغل، وجعلت كل فلاحي المنطقة عيوناً لي تترصده أينما تحرك فاضطر في النهاية إلى الالتحاق بوحدته، ولكن ليس لفترة طويلة فسرعان ما استغل إجازة منحت له وهرب ثانية. ولأنه سمع بقولي الذي كررته على سمع كل من التقيته من أنني سأكسر ساقيه إن تخطى عتبة بيتي، اتخذ طريقه نحو دغل الخندق كما تتخذ الحمير سبيلها تلقائياً إلى معالفها. وأصبح من المتعارف عليه طوال السنوات السبع التي مرت أنه كلما كثرت سرقات الدجاج في القرية وتلوى عمود دخان صاعداً من دغل الخندق وشوهدت قبعتان حمراوان تلوحان وسط خضرة الحقول وجنديان من الانضباط العسكري يتخذان طريقهما نحو بيت المختار، أصبح من المتعارف عليه أن يعلم الجميع أن (عذاب) قد هرب!

والآن... اسمحوا لي بايقاد سيكارتي الرابعة هذه... ها أنذا أشعر بالدوار فالدخان ينزل في صدري كالكبريت، ولكن ما العمل؟ فـ (عذاب) أحرق دمي وأورث حلقي هذه البحّة اللعينة. لقد نفد صبري بعدما تعدد هربه بهذا الشكل فصممت على تأديبه في آخر مرة مهما كلف الأمر. وأقسمت أمام الجميع انه لن يفلت من يدي هذه المرة سواء اختفى في باطن الأرض أو صعد إلى السماء السابعة!

وهكذا وضعت خطة محكمة، واستعنت بأغلب شباب القرية. وطوال نهار كامل مشطنا دغل الخندق شبراً شبراً حتى وقعنا على كوخ قصبي كان قد نصبه في أكثر المناطق كثافة. لحظتئذ صرفت على أسناني باصرار واقتحمت الكوخ ببندقية مشرعة وكلي عزم على الإمساك به ولو اقتضى الأمر قتل أحدنا. ولكن...

انظروا... كان قد غادر كوخه منذ أيام تاركاً لي هذه الورقة المجعدة التي يقول فيها إنه قرر الالتحاق بوحدته مفضلاً قرقعة المدافع على سماع ثرثرتي التي ألاحقه بها باستمرار، طالباً مني أن أكف عن تشبيه بيتي بعش الوقواق لأن هذا الطائر ليس له عش!

أتسمعون يا جماعة؟... ليس له عش!... انه يسخر مني - لكن ذلك لم يؤلمني قدر ألمي لقوله عني بأنني ثرثار... هل حقاً أنا ثرثار؟!

بغداد

الحُلم البرتقَالي

عصام ترشحاني

حاولوا أن تروا مهجتي
أن تعودوا
الى حلمي البرتقاليّ،
ففيهِ أراقب صمتي،
وأُصغي
الى دمدمات الآلهة...
حاولوا أن تروا قمتي،
إنني أوغل الآن،
في لوني القزحيّ...
أستبطنُ اللغةَ البكرَ.
وأرنو..
الى يقظتي...
حاولوا أن تكونوا الضحية.
للابديّ
وان تشهدوا...
رؤيتي...

★ ★ ★

لن أطوفَ على النازلات التي
انشبتْ موتها
في حنايا الشجر...
لن أطوف على التهلكات التي
أزهقتْ رعبها
في الحجر...
لن أسوّف بالمشأمة...
انني ألمح الآنَ،
خوف الندى...،
والصدى والصورْ...
انني ألمح الآنَ،
ما يشبهُ الجائحةْ...

فاحذروا ساعةً،
ينزف السلم فيها
مِنَ الاعينِ الجارحةْ...

★ ★ ★

للارض ان تستميلَ،
ربيعاً من الدم،
للشعر أنْ...
يتضوّر ضوءاً،
كقلب الصباح،
وللحزن أن،
يستردَّ منازلهُ المُبْعَدَةْ...
للعشبِ أنْ،
يتجذّر بين الجنوبِ،
وغرب الجنوبِ،
وللبحر أنْ،
يتجامع كالموت والشهوة الشاردةْ...
ها هنا..
في المكان الذي
سوف يخضلّ بالنار والحلم،
ينمو الرجالُ،
وتنمو البنادقْ،
وينمو على كل نبض من الارض
حبّ الوطنْ...
هاهنا..
ما وراء انتشار الجسدْ...
أتجولُ،
- حيث الجبال توسوس للبرق-
حيث الجذورُ،
تُزاحم أوراقها بالغضبْ..

أتجوّلُ،
جسمي مروجٌ،
ورأسي لهبْ..
هاهنا..
تقتفي القبرات ندائي
ويأتي غد الغرباء اليّ،
فأغسلهُ، إنّ في دمنا المذهلات،
من الخصب أغسلهُ بالمياه المضيئةِ،
والحب والانفجار،
ونمضي معاً..
هل أحدّد؟
انّ فلسطين قبلتنا..
وكما تنزل الغابةُ،
قبل الصباحِ
الى الحرب
كما يخرج الموت للموتِ
يعلو هتاف الخيول الندية
ان فلسطينَ،
معبودة البندقيةْ
فلسطين حربة الفقراءِ
فطوبى..
لكم أيها الصاعدونَ،
الى رقصة الفجر،
طوبى لكنّ صبايا السهول،
صبايا الجبال،
وانتنَّ تُنشدْنَ للشمس
وتركضْنَ،
نحو اعالي الدماء...

★ ★ ★

أدب الخيال العلمي

بقلم

رؤوف وصفي

« ... كثيراً ما أجلس وحدي في الليل أحملق بعيني عقلي في ظلام الزمن الذي لم يولد بعد.. وأتساءل بأي شكل وصورة ستتطور آخر الأمر تلك الدراما العظيمة وفقاً لقدر لا يحيد وغرض لا يتغير.. »

رايدر هيجارد

تميزت سنة ١٩٧٢ بنشر كتاب كان مثار جدل شديد وهو كتاب «حدود النمو Limits To growth[١]» الذي يرسم مستقبل العالم، وقد أعده فريق من العلماء بمعاونة نماذج من الكمبيوتر. وتتنبأ الدراسة بكارثة شاملة ما لم تهب البشرية للحدّ من نمو السكان واستهلاك مواردها الطبيعية.

ووفقاً لنماذج الكمبيوتر فإن المنحنيات التي تمثل عدد السكان والإنتاج الصناعي والمحصولات الزراعية والمصادر الطبيعية كلها تبلغ الذروة في مستهل القرن الحادي والعشرين ثم تنهار وتحل الكارثة العظمى.

وقد أثارت الدراسة موجات عارمة متناقضة، فقد قال البعض ان الكتاب كان تنبؤاً حسابياً دقيقاً لمصير يجب أن نبذل جهدنا لتفاديه، بينما أوضح البعض أنه مجموعة من الافتراضات الضعيفة التي لا تستند إلى أي أساس علمي، ولا يزال الجدل محتدماً... والوقت يمر.

لقد أصيب كثيرون بالدهشة عندما خرج الكتاب إلى الناس. ورفضوا الاعتقاد بأن الكارثة ممكنة أو محتملة إذا لم نغير من أسلوب حياتنا، ولكن كتّاب الخيال العلميّ لم يدهشوا، فقد كانت الدراسة أخباراً قديمة لهم، ذلك أنهم كانوا يعكفون على صنع نماذج للغد، ويخضعونها للتجربة لسنوات عديدة.

إن ما حاول العلماء تحقيقه بنماذج الكمبيوتر يشبه شبهاً كبيراً الشيء الذي ظل كتّاب الخيال العلمي يفعلونه عشرات السنين.. وبدلاً من استخدام الكمبيوتر لصياغة مستقبل المجتمع العالمي، استخدم كتّاب الخيال العلمي خيالهم البشري. والخيال يُخرج من الصامت صوراً تفيض بالحياة ويحوّل المحسوس إلى معنى، فنرى المستقبل المجهول أو أعماق الكون وقد تحولا إلى أفكار متموجة هائمة ننعم بجمالها الفني وقوتها المعنوية.

ما هو الخيال العلمي؟

أطلق النقاد إصطلاح «**الخيال العلمي** Science Fiction» على ذلك الفرع من الأدب الروائي الذي يعالج بطريقة خيالية إستجابة الإنسان لكل تقدم من العلوم والتكنولوجيا سواء في المستقبل القريب أو البعيد، كما يجسد تأملات الإنسان في احتمالات وجود حياة من الأجرام السماوية الأخرى[٢].

أهداف الخيال العلمي

يهدف الخيال العلمي إلى عرض الحقيقة العلمية بأمانة وصدق وبنظرة مستقبلية وإن تغلفت بغلاف له تألّق القصة، وهو يعالج أيضاً الأفكار الاجتماعية والعلمية بشكلها الصرف.

وليس من هدف أدب الخيال العلمي التنبؤ بالمستقبل، بل إنه يقوم بشيء أهم من ذلك بكثير، فهو يحاول أن يصور لنا المستقبل الممكن. وإذا نظرنا إلى الجنس البشري كأنه مهاجرة ضخمة خلال الزمن تتجول خلاله آلاف الملايين من البشر خلال القرون المتعاقبة، فإن كتّاب الخيال العلمي هم المستكشفون

(1) A report to the club of Rome, **Limits to Growth** (New York: New American Library, 1977).

(2) مجدي وهبه، معجم مصطلحات الأدب (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٤) ص ٥٠٣.

الذين يطلقون قصصهم التي تنذرنا بالصحراء الجرداء التي أمامنا أو التي تبهرنا بأنباء الوديان والجبال المتألقة التي تقع وراء الأفق مباشرة. إنه لا يوجد مستقبل فقط يأتي ويكون محدداً من قبل وجامداً لا يلين، فإن المستقبل تبنيه شيئاً فشيئاً ودقيقة بدقيقة تصرفات البشر، ودور الخيال العلمي هو أن يظهر أيّ نوع من المستقبل قد ينشأ من بعض التصرفات البشرية.

أهمية الخيال العلمي

هل وقفت مرة على شاطئ رملي منبسط على حافة البحر ورحت ترنو إلى الأمواج الصغيرة التي تتدافع عند قدميك، بعد أن تكون الأمواج الكبيرة قد استنفدت طاقتها واندفع الماء إلى أبعد مدى على الشاطئ؟ إنك ترى الأمواج الصغيرة وقد اختلط بعضها بالبعض تتدافع عند الشاطئ، وإذا كانت الشمس في الزاوية المناسبة لرأيت بوضوح ما يطلق عليه العلماء «نماذج التداخل» حيث تتشابك الأمواج الصغيرة بعضها مع البعض، تجتمع أحياناً لتؤلف موجة أقوى، أو قد يلغي بعضها البعض فتؤلف بقعة ساكنة من هذا النموذج.

إن الأفكار العديدة التي تظهر في صفحات كتب ومجلات الخيال العلمي تُحدث مثل هذا الأثر في عقول القراء، فبعض هذه الأفكار تدعم وتقوى، والبعض الآخر تفقد قوتها وتنخفض آثارها، ومن ثم فلأكثر من جيل يهتم كتّاب الخيال العلمي بالمشاكل التي يواجهها العالم الآن مثل التلوث والحرب الذرية والتضخم السكاني والتكنولوجيا الشاردة وتقييد الفكر وغيرها من أنواع التهديد التي تواجه البشر كمفآجات مروعة.

وبينما تنتهي مهمة العالم إلى حد كبير عند ترجمة معلوماته إلى جداول أو رسوم بيانية، فإن كاتب الخيال العلمي تبدأ مهمته من نقل القصة الإنسانية حيث أن الأساس العلمي للمستقبل الممكن لقصته هو الخلفية فقط أو الوسيلة، فأحسن القصص من أدب الخيال العلمي التي تؤثر على أجيال من القراء، هي التي تدور حول الناس وقد يكون هؤلاء الناس من غير البشر أو من الآليين، ولكنهم «أناس» بمعنى أن القارئ يشعر بهم ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم وأخطارهم ونجاحهم أو فشلهم.

ولا يكفي في قصص الخيال العلمي إظهار الحضارات من الكواكب الأخرى أو وصف المجتمعات التي قد تنشأ في المستقبل، فكاتب الخيال العلمي يجب أن يوضح كيف تؤثر تلك الحضارات ومجتمعات المستقبل.. على الإنسان.

إن مستقبلنا في أيدينا إلى حد كبير، فهو نتاج تصرفات البشر، فنحن الذين نصوغ الغد أو نحاول ذلك على الأقل، والمأساة هي عندما نفشل وأعظم الجرائم طراً هي عندما نفشل حتى في أن نحاول.

إن الخيال العلمي يقف كجسر بين العلم والفن، بين مهندسي التكنولوجيا وشعراء البشرية، ولم تشتد الحاجة إلى شيء كحاجتنا إلى مثل هذا الجسر.

الأساطير الحديثة.

قضى جوزيف كامبل مؤلف كتابي «الأقنعة»[٣] و«البطل ذو الألف وجه»[٤] قدراً كبيراً من حياته يدرس الأساطير القديمة، وقد أشار إلى أن الإنسان الحديث ليست له أساطير حقيقية يستند إليها، وأن الأساطير القديمة قد انتهت ولم تنشأ أساطير جديدة تحل محلها.

ويصر كامبل على أن الإنسان في حاجة إلى الأساطير لتعطيه نوعاً من المعنى العاطفي والاستقرار للعالم الذي يعيش فيه. والأساطير نوع من التنظيم على المستوى العاطفي نواجه به الحياة والموت والكون على اتساعه، وهذا ما يبعث على الخوف أحياناً، كما أنها تعطي أساساً عاطفياً للحقائق المجردة وتربط الواقع بتركيب شامل يشرح الأمور المعروفة وغير المفهومة من تصرفات الإنسان وأيضاً تضع تصوراً للكون الذي نعيش فيه.

وحتى تحقق الأسطورة أهدافها يجب أن تثير في الناس الشعور بالرهبة، كما يجب أن تكون ركيزة عاطفية لتساعد الأفراد من أعضاء المجتمع خلال أزمات الحياة كالانتقال من مرحلة الطفولة إلى المراهقة وتكيف الشخص مع مجتمعه أو مواجهة الموت الذي لا مفر منه.

والخيال العلمي- عندما يكون في أحسن مظاهره- يؤدي مهام الأسطورة الحديثة حيث أنه يحاول أن يثير لدى القارئ شعوراً بالعجب عن مظاهر الكون الخارجي وأيضاً الكون الداخلي الخاص بالإنسان.

ومن المثير للاهتمام أن الخيال العلمي له قراء كثيرون بين الشباب، وهم الذين يحاولون أن يجدوا مكانهم في الكون، وكم من قصص الخيال العلمي عن أبطال يجوبون الفضاء ويسافرون عبر نفق الزمن، يقاومون الظلم في عالم المستقبل. وكل هذه

(3) Joseph Campbll, **THE Masks: Primitive Mythology** (New York: Penguin Books, Inc., 1976).

(4) Joseph Campbell, Hero With a Thousand Faces New Jersey, Princeton Univ. Press, 1968

القصص في الحقيقة محاولات لإثارة خيال الشباب ودفعهم إلى فعل الخير والاقتداء بهؤلاء الأبطال. وعلى هذا المستوى العاطفي يمكن للخيال العلمي أن يؤدي دور الأسطورة الحديثة أما على المستوى الفكري فإنه يحاول أن يشرح لغير المتخصصين: ما هي العلوم؟ ويفسرها بأنها نظام من التفكير وسعي إنساني صرف يمجد العقل على ظلام الجهل الذي يدعو إلى الحيرة ويتسم بالفوضى، وكثيراً ما يكون مخيفاً أو في تعريف حديث هو التخيل المنظم للتطلّع الإنساني.

وليس من قبيل المصادفة أن عدداً من الجامعات في الخارج تقدم برامج من الخيال العلمي تلقى نجاحاً كبيراً، حيث توضح الجمال الحقيقي والعظمة الصادقة للعالم والكون من حولنا، سواء أكانت مجرة تزخر بملايين النجوم أو نقطة ماء تكتظ بالحياة الدقيقة الخفية.

إن مجالات الخيال العلمي لا تقل اتساعاً عن الكون نفسه كما أنها طويلة طول الزمن، وتزود قراءها بنوع من الإثارة والشعور بالعجب لا يجدونه في مكان آخر.. فيمكن إذن أن نعتبر قصص الخيال العلمي نوعاً من الأساطير الحديثة.

المستقبل والتغيير:

لعل أهم مظهر من مظاهر دور الخيال في الوقت الحاضر، هو ما يمكن أن نلخصه في كلمة واحدة: التغيير. إن الخيال العلمي هو أدب التغيير، فكل قصة من قصصه تنهل من معين واحد.. إن غداً سيكون مختلفاً عن اليوم، وربما يكون الاختلاف كبيراً. فقد توقعت البشرية منذ زمن طويل أن يكون الغد كاليوم تماماً أو يكاد، فالتغيير شيء مثير للقلق يدعو للخوف والرهبة، ولكننا في العصر الحديث نتحدث عن صدمة المستقبل Future Shock ونتوق للأيام الجميلة الماضية حيث كان كل شيء معروفاً وفي مكانه المناسب.

ويبين الخيال العلمي بشكل واضح أن التغييرات- سواء كانت طيبة أم سيئة- هي جزء متلازم من الكون، ومقاومة التغيير تفكير عفّى عليه الزمن، فلا بد للعالم أن يتغير باستمرار، وأكثر مناهج العمل نجاحاً للبشرية هو الذي يحدد كيف ننشئ بيئة تستوعب كل التغييرات التي يمكن التنبؤ بها.

ولعل الدور الأخير للخيال العلمي هو أنه يعمل كمترجم للعلوم لدى البشرية، وهذا بالطبع سلاح ذو حدين، فالعلم يبني ولكنه قد يدمّر، والتكنولوجيا قد تنهي الحضارة أو قد ترفعها إلى أبعد زوايا خيالنا.

الشعور بالعجب:

إن الشعور بالعجب الذي ينبعث في روع قارئ أدب الخيال العلمي من غرابة الأحداث، هو شعور مزدوج.. فأولاً جرأة الكاتب العجيبة في تخيل مثل هذه المواقف المثيرة، ولكن على مستوى ذهني أعمق- وربما لا شعورياً- هو الإثارة في أن العقل البشري يمكنه أن يصل إلى هذا الحد من القدرة على التخيل واستيعاب مثل هذه الأفكار المروعة. ولنأخذ مثالاً من قصة «الكون THE Universe» للكاتب روبرت هينلين(٥)، عن سفينة فضاء ضلت الطريق. فالهدف هنا هو البحث عن الحقيقة التي نتصورها كإدراك مادي للعالم الطبيعي. لقد انقضت أجيال منذ إطلاق سفينة الفضاء هذه، وقد اعتقد الجهلة المنحدرون من الملاّحين الأصليين، أن سفينتهم هي الكون بأسره. وينشأ صراع بين الطبقة الحاكمة في سفينة الفضاء- والتي تسمى من قبيل التهكم بالعلماء- والبطل المتفتح العقل الذي يشق طريقه إلى غرفة القيادة الرئيسية التي طال نسيانها، حيث يكتشف النجوم المتألقة عبر الكون الحقيقي، ويدرك أن الكون أكثر اتساعاً وعظمة مما ظن أحد. ويقدم الكشف المذهل عن وجود النجوم كلحظة من الانتصار العقلي الهادئ، أقل مما يبدو كنشوة، ولعل هذا يمثل تناقضاً بين القيم التي تؤكدها القصة والاستجابة العاطفية التي تحاول أن تثيرها.

إن ظهور النجوم المفاجئ من قصة «الكون» هو مثل واضح تماماً للاتجاه العام لقصص الخيال العلمي في أن تنحو نحو لحظات من الرؤيا العجيبة، أو ما يطلق عليه «الشعور بالعجب Sense of Wonder»، سواء كانت الأحداث تتسم بالنشوة أو ربما تكون ميالة للرعب في بعض الأحيان، كما قد تتجه نحو الرمزية كما في قصة «الكون»، حيث أن سفينة الفضاء تثير الاهتمام في حد ذاتها، وكاستعارة عن عالمنا الذي نعيش فيه.

قصص الفضاء:

تدور الكثير من موضوعات أدب الخيال العلمي عن غزو الفضاء والانطلاق من الكرة الأرضية إلى أعماق الكون، وهناك دائماً رواد فضاء يخاطرون بأرواحهم في سبيل أن يمتد الجنس البشري إلى الكواكب الأخرى يبحث عن عوالم جديدة ليعيش عليها.

---

(5) **The Universe** (London: Granada Publishing, 1977). **Robert Heinlein**

ويؤكد كتّاب الخيال العلمي بأننا نقف اليوم على الحد الفاصل بين عصرين عظيمين للفترة الإنسانية في تاريخ الحياة على كوكب الأرض، العصر الذي ظل فيه الإنسان سجيناً مستسلماً لقبضة كوكب الأرض، والعصر الذي يشق فيه الإنسان طريقه إلى الفضاء.. يتطلع لغزو الكون.

وقصص الفضاء الحديثة التي يطلق عليها «أوبرا الفضاء Space Opera» ترتاد الكواكب الواحد تلو الآخر.. ثم تتحول إلى النجوم وينشئ الجنس البشري إمبراطوريات فوق هذه الكواكب. وتتحدث رواية اسحق أزيموف «المؤسسة Foundation»(٦) عن تكوين إمبراطورية جديدة من بين أطلال إمبراطورية تتداعى، ويجعلنا المؤلف نشعر بالتغيرات الاجتماعية التي تصاحب إنشاء الإمبراطورية الجديدة وذلك من خلال مغامرات عدد من النساء والرجال.

وعلينا أن نتذكر دائماً أن هناك مسافات هائلة بين الكواكب والنجوم، ويخبرنا كتّاب الخيال العلمي بأن سفن الفضاء قد تتجاوز سرعتها سرعة الضوء- أي أكثر من ٣٠٠،٠٠٠ كيلو متر في الثانية الواحدة!- وهذا يتعارض مع النظريات العلمية في الوقت الحاضر على الأقل، وكذلك مع النظرية النسبية لأنيشتين.

وقد ينتابنا الشك إزاء هذا في أن كتّاب الخيال العلمي تنقصهم المهارة الروائية لتحويل جزء محدود من الفضاء إلى مسرح لأحداث قصصهم. وهم يعرضون فشلهم بالطواف في اللانهاية.. ولكن هذا الشك لا يستند إلى دليل قوي، فالرغبة في التوسع في غزو الفضاء إلى أبعد حدود الخيال البشري لا يرجع إلى ضعف في المقدرة الروائية بل إلى تغير عاطفي في العلاقة بين الإنسان وكوكب الأرض.

ونقرأ في مجموعة قصص للكاتب جيمس بليش أطلق عليها «مدن في الفضاء cities in Flight»،(٧) قصة يتخيل فيها أنه بسلسلة من الاختراعات أمكن لمدن كاملة أن تطير بسكانها في الفضاء وتطوف الكون اللانهائي، دون التقيد بحدود الزمن.

وإذا كان في قدرة الإنسان أن يعيش في عالم آخر، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما الذي يدفعه إلى ذلك؟ والتفسير الذي تقدمه قصص الفضاء هو أنه قد يأتي اليوم الذي تصبح فيه الحياة فوق الأرض مستحيلة بسبب ما قد تتعرض له من دمار شامل سواء بفعل الإنسان أو الطبيعة.

وفي كثير من الأحيان يحاول النقاد ربط ظروف اختراع سفن الفضاء بانفجار أول قنبلة ذرية، وكأنهم يحاولون تفسير اختراع سفن الفضاء كوسيلة لحماية استمرار الحياة فوق الكواكب الأخرى، إذا ما تعذرت الحياة فوق الأرض نتيجة لتدميرها بالأسلحة الذرية!.

لكن قصص الخيال العلمي تؤكد أن تطلع الإنسان إلى غزو الكون ليس في كل الأحيان وسيلة اضطرارية للهروب من كوكب الأرض، بل قد يكون السفر سبيلاً لبعض رواد الفضاء ممن يتسمون بالشجاعة في أن ينطلقوا من هذا العالم، إذ أنهم يتصورون أن تقيدهم بكوكب الأرض نوع من السجن والمنفى، كما في قصة إدجار رايس بوروز التي أطلق عليها «جون كارتر في المريخ JOHN CARTER OF MARS»(٨) وأيضاً العديد من قصص هذا الكاتب الشهير الذي بعث بأبطاله إلى المريخ والزهرة والمشتري حيث يتقابلون مع مخلوقات عجيبة يحاربون معهم ضد الظلم والاضطهاد.

ويؤكد كتّاب الخيال العلمي أن رواد الفضاء يعانون من انهيار الارتباط العاطفي بكوكب الأرض بوصفه مكاناً يحد من حرية الحركة في الفضاء، وتصبح الجاذبية الأرضية بذلك عبئاً يحاول الإنسان التخلص منه، كما في قصة هـ. ج. ويلز «أول رجال وصلوا إلى القمر First Men on the moon»(٩) وفيها يخترع بطلها العالم (كافور) مادة عجيبة تبطل تأثير الجاذبية الأرضية، وهكذا يتمكن من الانطلاق إلى القمر في سفينة فضاء مع صديق له أديب يدعى (بدفورد)، وهناك تأسرهما مخلوقات قمرية غريبة أقرب إلى الحشرات الضخمة، ويستطيع بدفورد الهرب بعد قتل العديد من سكان القمر ويبقى العالم كافور يُجرى دراسات على المخلوقات القمرية، وقد استطاع الاتصال بكوكب الأرض ليبلغهم بنتائج أبحاثه فوق القمر، وتنتهي القصة والعالم كافور يتساءل: لِمَ أتينا إلى القمر وما هو هدفنا؟

ويبقى الخطر الأكبر للإنسان الذي يريد الانطلاق إلى الفضاء، في هذه الرغبة الشديدة التي تعتمل في داخله وتعوقه عن اتخاذ الخطوة الحاسمة.. إنها قوة الخوف من المجهول، وهي لا تقل في تأثيرها عن الرغبة في الحرية والتخلص من قيود كوكب الأرض.

وعندما يتخذ الإنسان هذه الخطوة الجريئة ويقتحم الكون

(6) 1979). Isaac Asimov, **Foundation (New York: Panther** Books,

(7) 1981). James Blish, **Cities in Flight (London: Arrow Books** Limited,

(8) Edgar Rice Burroughs, **John Carter of mars (London: New** English Library, 1975).

(9) H.C. Welles, **First Men on the Moon (London: Fontana** Books, 1981).

اللانهائي، فهو لا يحتفظ بكل مقومات الحياة الإنسانية الأرضية، فهناك بالتأكيد في محيط الفضاء جزر أخرى يستطيع أن يقف عليها بثبات ويبني فوقها حضارة جديدة، لكنه لا يتوقع أن تكون البيئة الجديدة مطابقة لكوكب الأرض الذي كان يعيش عليه.

ويحاول الإنسان أن يتأقلم مع البيئة الجديدة الغريبة التي تصادفه في رحلاته عبر الفضاء، كما حدث في قصة « رمال المريخ Sands of Mars »[10] للكاتب آرثر س. كلارك، عندما استطاع الإنسان أن يطور أحد أنواع النباتات التي تنمو فوق كوكب المريخ لتنتج الأوكسجين الذي يمكن أن يتنفسه، وهكذا يتحول الكوكب الميت إلى بيئة ملائمة لحياة الجنس البشري.

اللقاء بالكائنات الأخرى:

إن على الإنسان في الفضاء أن يكيّف نفسه لبيئات أخرى غريبة ومختلفة، وأثناء ذلك قد يلتقي بمجموعة من الكائنات الذكية غير البشرية، يطلق عليها كتّاب الخيال العلمي.. الغرباء Aliens، ولعل أشهر لقاء بين الجنس البشري والكائنات الغريبة هو ما جاء في قصة « حرب الكواكب War of the Worlds »[11] للكاتب هـ. ج. ويلز، وهي عن غزو سكان المريخ لكوكب الأرض..

« ... إن من لم يشاهد أبداً أحد الأحياء من سكان المريخ، لا يستطيع أن يتخيل الرعب المروع الذي ينتج عن ظهوره، فالفم الغريب بشفته العليا المدببة وغياب حافتي الحاجبين والذقن تحت الشفة السفلى، واهتزاز الفم الذي لا ينقطع وتنفس الرئتين ذا الضجيج في جو غريب غير مألوف، وثقل الحركة بسبب الجاذبية الأرضية والعينين الضخمتين .. كانت كل ملامحه حادة وقوية ومشوهة وغير بشرية على الإطلاق... »

ومن أغرب الكائنات ما قدمه الكاتب هال كليمنت في قصة « الإبرة needle » التي تحكي عن كائن هلامي دقيق جداً لا يعيش إلا باحتلال أجسام الكائنات الأخرى الأكثر صلابة، وقد دخل إلى جسم شاب آدمي عن طريق مسامه فأحدث فيه تغييرات بيولوجية مروعة!

وقد تكون هذه الكائنات هائلة الحجم مثل « السحابة السوداء black cloud » التي تتكون من غاز النيتروجين المتضمن كائنات دقيقة ذكية، وكانت تهدد كوكب الأرض بالدمار، في قصة بالاسم نفسه للكاتب وعالم الفلك فريد هويل.

كما قد تكون الكائنات دقيقة جداً مثل التي ورد ذكرها في قصة « الصور لا تكذب pictures dont lie » للكاتبة كاترين ماكلين، عندما غرقت سفينة فضاء تحمل كائنات دقيقة من كوكب آخر في بركة ضحلة بالمطار الفضائي لكوكب الأرض، فقد كان الغرباء ذوي أحجام ميكروسكوبية ولهذا لم يظهروا في الصور التي التقطت لهم، ومن ثم لم يكن هناك أي دليل على قدومهم إلى كوكب الأرض!

ومن أغرب الكائنات التي يمكن أن يقابلها الإنسان، نباتات ذكية.. كما في قصة « يوم النباتات Triffids The Day of the » للكاتب جون ويندام، وتدور أحداث القصة حول نباتات ذكية يبلغ طولها حوالي المترين وتسير على ثلاثة نتوءات كالجذور المقطوعة، وتطلق من سيقانها سماً مميتاً للبشر، وكانت تهدف إلى غزو كوكب الأرض!

إن تدفق الأفكار العلمية التي يندر وجودها في الفروع الأخرى من الأدب، والرحلات إلى أعماق الكون والانطلاق إلى آفاق المستقبل، كل هذا يكوّن مزيجاً فريداً تفيض به قصص الخيال العلمي ويجعل من قراءتها متعة لا تنسى. فعندما تتسع آفاق العقل البشري ليحيط بالعوالم الفضائية التي لا يستطيع أن يراها، ولكنه يؤمن أنها هناك، وعندما يتلاءم مع هذه الدوامة الكونية الهائلة التي تمتد بلا حدود، عندئذ يصبح الإنسان جديراً بالانتساب إلى هذا الكون الرائع.

رؤوف وصفي
عضو الإتحاد الدولي
للكتاب الخيال العلمي

(10) آرثرس. كلارك، رمال المريخ، ترجمة إمام إبراهيم أحمد (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٧).

(11) H. G. Wells, **War of the Worlds (Wisconsin, Golden** Press, 1979) P.2

تداعيات يومية عن الشوق والمنفى

جنيد محمد الجنيد

حملت همومي وخبأتها في كتاب البكاء
وقلت له:
شريكان نحن معاً في الجراح
شريكان نحن معاً في ليالي المنافي
شريكان نحن معاً في انكسار عيون الهوى
شريكان نحن معاً في انتظار الفرح
فوزّعني لحظة بين أوراقه وتجمعت في الذاكرة:
تمر الشوارع مكتظـــة بحنين التسكـــع فيها..
تجيء المقاهي على غير عادتها، وكل مقاعدها الآن..
ترتادها الأسئلة
تطل العبارة مشطورة في الشفاه..
تحاصرها الفاصلة
تطوف ديار الهوى في جنون
وتسأل أي الجهات تخبىء عنها فتاها الجميل
وأبكي..
ويبكي..
ونمضي شريطا طويلا على رحلة الذاكرة

* * *

على صفحة الإغتراب وقفت طويلا
ومرت بقلبي العصافير تقرأ من سورة الحزن:
يادمعة العين إن الرحيل المفاجىء يأخذ في ليلة الوصل
أحلى فتى
نقيـــــا كيوسفَ تشرق شمس النبوة في وجهه
حزينا كيوسفَ في البئر ينتظر القافلة
صبورا كيوسفَ في سنوات العطش
جميلا كيوسف في كل شيْ
وتطلـع خـارطـة العشق مرسومـة فوق منديل دمعي
مشوهة الإتجاهات.. منزوعة من إطار الدليل
وكل حقائب قلبي موزعة في المحطات.. هاربة من
عيون الحراسة، محمولة فوق ظهر التعب

* * *

على وتر الشوق تنتحر الاغنيه
وتأتي المواعيد منهكة في ثياب الكآبه
فأحكي لنجم بعيد عن الحب شيئا
وأرسم أحلى الصبايا اللواتي نصبن خيام الهوى
واسترحن على عشب قلبي وقت الظهيرة
وأحكي لفنجان شاي تبقى على طاولات الحديث
عن الحزن شيئا
وأبكي فتى ضيّعته ليالي الخريف

* * *

أمر على الصفحات الحزينة مثلي
وأكتب فوق هوامشها:
عاشقان من الرعب ينفصلان
ولم تكتمل بعد دائرة العشق فوق عيونها
وترسمني دمعة
عاشقا..
عاشقا..
عاشقا..
بعد لم يصل الصفحات الأخيرة
وأبكي..
ويبكي..
ونمضي شريطا طويلا على رحلة الذاكرة

عدن

قصة قصيرة

دمعة أمل

سهام يوسف

دخلت القاعة الزجاجية التابعة لوزارة السياحة حيث يعرض مجموعة رسامين من مدارس فنية مختلفة، وتنقلت بين اللوحات وتباين وقوفها أمام كل لوحة تبعا لوضوحها وتناسق ألوانها.. فعلاقتها بالأدب كعلاقتها بالفنون الأخرى يقربها منها يجذبها إليها ما كان واضحا معبرا من غير عقد ورموز، فقد لف واقعنا ما يكفي من الغموض لجعل كل منا بحاجة إلى مصباح ديوجين للبحث عن الحقيقة.

وجذبتها لوحة رمادية يتصدرها قلب أبيض ارتسمت عليه ملامح وجه باسم تتساقط من عينيه قطرات دمع حمراء.. وقفت تتأمل القلب الدامع الدامي.. وطال وقوفها.. إنه قلبها الذي بكى كثيرا وكانت ابتسامتها تموه دائما تلك الدموع..

وبرفقة دمعة مبتسمة عادت إلى آخر محطة.. إلى حيث التقته....

في حفل زفاف.. كان مستغرقا في حديث ضاحك مع إحداهن.. إنها تعرف الفتاة.. صيادة لكل أنواع الطرائد.. ولكن هو.. هو من يكون؟؟ ذو جاذبية خاصة.. وشخصية مميزة من ذلك النوع الذي يشدك إليه دون أن تدري لماذا..

وقفت تحادث مجموعة من الاصدقاء وتسترق النظر إليه.. لم تحاول يومها أن تسأل من يكون..

ومر عام وربما أكثر كانت في اثنائه المعارك تحتدم وتخف وطأتها.. فتفتح الطرقات وتغلق تبعا لرغبات القناصة ومزاج «العناصر غير المنضبطة».

وكان اللقاء الثاني... في عيادة طبيب عيون..

جلست تنتظر وصول الطبيب وتقلب صفحات مجلة اشترتها وهي في طريقها إلى العيادة. وشعرت أن هناك من ينظر إليها، فرفعت بصرها لتجده جالسا في المقعد المقابل.. إنه هو.. النظرة إياها.. نظرة مركزة في غير وقاحة.. وعادت إلى مجلتها لتخفي ارتباكها، ولكن ماذا تفعل بوجهها الذي خذلها؟ نظرت إلى ساعتها.. فتحت حقيبتها واغلقتها.. وعادت إلى مجلتها، ثم إلى المرضة الجالسة وراء مكتبها منهمكة في حياكة خيوط مزركشة.... وأجالت بصرها في أرجاء الغرفة وأصابع يديها تتشابك في أوضاع مختلفة.. على أحد المقاعد أم وطفلها يتحادثان.. وعلى الجدران شهادات طبية.. صورة تذكارية للطبيب وزملائه يوم تخرجهم.. ومجموعة أقوال وحكم..

وعاد نظرها إلى المقعد المقابل.. لا زال هناك ينفث دخان سيكارتـه وشبح ابتسامة منتصرة يلوح من وراء السحب المتصاعدة.. ونظرت من جديد إلى ساعتها.. وشعرت به يغادر مقعده باتجاه المرضة.. سأل عن سبب تأخر الطبيب ثم عاد وجلس ولكن.. على المقعد المجاور لمقعدها..

وتسارعت دقات قلبها وخشيت أن يصله صوتها ..وفاجأها سؤاله:

- هل تعملين في مصرف (...) منذ فترة طويلة؟

وأجابته بعينين تتساءلان وصوت أفقدته المفاجأة نصف قوته:

- وكيف تعلم أني أعمل هناك؟

- إني صديق شخصي للمدير وأتردد بكثرة إلى المصرف لمتابعة أعمالي، والغريب أني لم أرك إلا يوم أمس. ربما كان السبب بابك المغلق دائما. أو.. سوء حظي..

ابتسمت بصمت.. والتجأت إلى صفحات مجلتها، فلم تر أمامها إلا مجموعة خطوط بيانية وجاء صوته من جديد:

- وأنت.. ألم تريني من قبل؟

أجابت بسرعة وصورته مع تلك الفتاة ماثلة أمامها:

- كلا طبعا.. أين يمكن أن أراك؟

- في المصرف..

- وأجابت صادقة هذه المرة: - لا لم يحدث..
فضحك وهو يقول:
- يبدو أن كلينا كان بحاجة لطبيب عيون منذ زمن..
وما كان باستطاعتها إلا أن تضحك.. وأنقذها صوت الممرضة داعيا إياها للدخول إلى غرفة الطبيب..

وصباح اليوم التالي وقف بباب غرفتها وتلك الابتسامة التي تنطلق من كل جزء من وجهه تحييها..
- كيف صحة الآنسة..

ولفظ أسمها الكامل.. وارتسمت المفاجأة على وجهها.. واتسعت عندما تابع ضاحكا وكأنه يتلذذ بصدمها بالمفاجآت المتلاحقة:
- وكيف حال المنطقة الشرقية؟

وابتعد تاركا اصداء ضحكة محببة.. وعلامات استفهام..
من هو؟ ومن اين له كل تلك المعلومات؟ ولم تر خلال ذلك اليوم غير صورته على صفحات أوراقها وفي وجوه الزملاء والمراجعين.. ولم تجرؤ على سؤال احد عمن يكون..

ومنذ ذلك اليوم أصبحت تختار ثيابها بدقة تفوق كثيراً الأناقة المعروفة عنها، وتطيل وقوفها امام المرآة.. فلقد كانت دائما تهتم بمظهرها إرضاء لذاتها، أما اليوم.. فالسبب مختلف، ولم تعد تغلق باب مكتبها كالمعتاد.. كم أصبحت تمقت ذلك الحاجز الخشبي الذي حجبه عنها كل تلك الفترة!

كانت تتحدث على التلفون وتدون بعض الملاحظات أمامها عندما سمعت:

- Good morning miss..

أعادت السماعة وهي تردد:

- Good morning...

حتى في التحية له أسلوبه..

ودخل الغرفة وأخباره تتتابع سلسة ممتعة.. وسأل عن أخبارها.. فقاطعته:

- ألا ترى أنه لا يجوز أن تعرف كل أخباري وانا لا أعرف حتى اسمك؟

وأجاب بغرور محبب:
- اعتقدتك تعرفينه، فالجميع هنا يعرفني.. على كل حال، أدعى (..)

إنه على حق. لقد سمعت الاسم ولكنها لم تكن تعلم انه صاحبه..

وتتابعت زيارات المكتب القصيرة والتي كانت تحمل في ظاهرها طابع العمل والمراجعات.. وذات مساء كانت جالسة في فراشها تقرأ كعادتها حين رن جرس الهاتف.. ورفعت السماعة وعيناها مركزتان على الاسطر أمامها.

- Good evening..

المفاجأة من جديد..

- Good evening....

- ولكن من أين حصلت على الرقم؟
- استمحيك عذرا.. وقبل أن أتابع - اذا أزعجتك سأنهي المكالمة وانسى الرقم.. ولن أستعمله اطلاقا.
- لا طبعا لم تزعجني ولكن هناك حقيقة اريدك ان تعرفها.. إني لست واحدة من- إياهن-
فأجاب ضاحكا:

- أعرف أنك صاحبة «الأنف العالي».. هكذا وصفك من حذرني من المغامرة.. ولكني من هواة تسلق الجبال العالية.

كانت أحاديثه تسعدها، ولكن صراعا في داخلها لم يتوقف يوما.. أتراه كان صادقاً أم أنه يحاول إثبات تحديه في الوصول إلى القمم؟

وكان قلبها دائما إلى جانبه، يدافع عنه.. صارحته ذات يوم بشعورها هذا.

- لست المرأة الاولى التي ألتقي بها في حياتي، فأنت قد سمعت ولا شك، بأني محاط بالكثيرات سواء في عملي أو مجتمعي..
- لهذا أرفض ان اكون رقما يضاف إلى مجموعتك..
- أنت لست رقما.. انت حالة فريدة.. مميزة، وقد أكدت لك ذلك مرارا..
- أخشى ان تكون بيّاع كلام..
وضحك..
- في هذه الحالة، أنت الزبون الوحيد..
- ما أدهاك! ..لقد أوكلت قلبي محاميا عنك يقارعني الحجة بالحجة.. يفحمني ويقهقه منتصرا..
- هنيئا لي بهذا المحامي البارع.. الصادق..

وتأزمت الأوضاع الأمنية وزرعت الاحياء قذائف عشوائية وامتدت الحواجز والأسلاك في كل مكان.. وصمت الهاتف...

لم تعد تسمع صوته، أوتعرف عنه شيئاً، فالوصول إلى مقر عملها بات مستحيلا.. كل شيء صار مملا.. القراءة.. الاحاديث... حتى الموسيقى التى كانت تعشقها، أصبح وقعها

مزعجا.. والصامت الاكبر إلى جانب سريرها يزيد من وطأة كل شيء..

ولم يبق لديها سوى استعادة ما مضى.. كانت تسترجع في لحظة أية كلمة، أية ابتسامة.. أية لحظة صمت فاقت ببلاغتها كل الكتب والمؤلفات..

ورن الهاتف.. ومدت يدها - يسبقها قلبها - ترفع السماعة

- Good morning

- كم حاولت الاتصال بك طوال ايام القصف ولكن عبثا.. فالحواجز ارتفعت بكل الاشكال.. ولكن قلبي كان يعلو فوق الحواجز.. فوق الاسلاك... فوق الانفاق.. الم تشعري به بجانبك؟

هزت رأسها، فقد احتجزت دموعها كلماتها..

- كنت أخشى ان اسافر دون ان اودعك..

- تسافر؟؟ إلى اين؟

في غمرة تلك الايام السعيدة لم يخطر ببالها يوما انهما قد يفترقان

- إن بقائي هنا وفي وضع كهذا معناه القضاء على مستقبلي.. سأعود، ولكن.. متى؟ لست أدري.. إني مسافر هذا المساء وأمنيتي أن يكون وجهك آخر من أرى قبل أن اغادر ارض الوطن..

إنها امنيتها ايضا.. ولكنها أمنية تحول دون تحقيقها كل بوابات العبور ومن يقف عليها

فأجابته بألم:

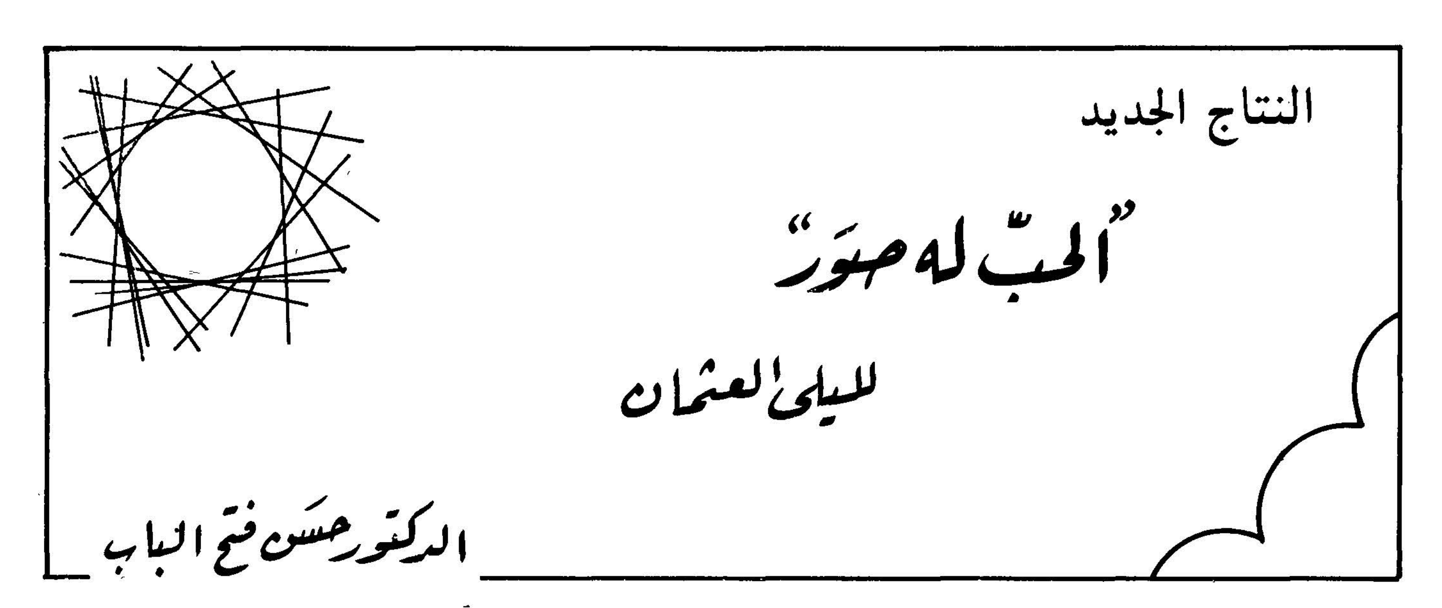
- محاميك سيكون هناك..

وأغلقت السماعتان في آن واحد..

لقد طالت المؤامرة التى حيكت ضد هذا الوطن قلبها ببعض من خيوطها واعتصرته.. أما وجهها فما زال يبتسم رغم كل شيء..

وابتعدت نحو لوحة أخرى تشرق فيها شمس أمل ذهبية أمل عودة.. وأمل لقاء..

سهام يوسف



النتاج الجديد

"الحبّ له صور" لليلى العثمان

الدكتور حسن فتح الباب

بعد مجموعاتها القصصية الثلاث «أمرأة في إناء» و «الرحيل» و «في الليل تأتي العيون» تطلع علينا القاصة العربية الكويتية ليلى العثمان بمجموعتها الجديدة «الحب له صور»[1] لتواصل بها مغامرتها الإبداعية المتميزة في فن القصة القصيرة، ولتعمق الخصائص الجمالية التى اتسم بها أسلوبها في التعبير عن دقائق حياة المرأة النفسية، وتثري المضمون الإنساني من خلال التقاط أشد أوتاره رهافة وحساسية.

فالانتقاء والتكثيف هما العنصران الاكبر بروزاً في عملها هذا الجديد، وتعمّق البعد الواقعي من خلال النسيج الوجداني هو الاكثر تميزاً في تجربتها. ومن ثم تكتشف ليلى العثمان في «بعض الأشياء لا تنتظر» و «حاجز النار» و «الجدران تتمزق» و «لا خبر.. لا» و «الرؤوس إلى أسفل» أفضل خصائصها الفنية وتركز عليها في خصوبة وحيوية قلما تشهد مثيلها في أعمال كاتبات القصة العربية وفي معظم الإنتاج القصصي عندنا بوجه عام.

وتتمثل القيم الفنية التعبيرية في امتلاكها خاصّية الفن الأولى وهي القدرة على إحداث المفاجأة والدهشة عبر خيوط درامية مشدودة وأسلوب صافٍ لا تبالي كاتبته بقواعد التزيين المتداولة والتلاعب البديغي الشكلي. فالكلمة عندها تأتي بكل براءتها، بصورتها البدائية ورنتها الموسيقية، ومع ذلك فهي تبني الجملة بناء قاعديا رصينا دون تهافت أو إسفاف. ولا يفسد هذا الأسلوب الرمز الغامض، فهي تتناول موضوعاتها ومضامينها من طريق التوفيق بين السرد القصصي والكتابة العصرية المكثفة التى اصطلحنا حديثا على تسميتها بالأسلوب البرقي القائم على الجمل القصيرة السريعة التى نعرفها عند همنجواي قديما والمدرسة الفرنسية في القصة حديثا.

والصدق الفني والبساطة الواعية هما سر هذه الجاذبية والتوهج اللذين يشدّان المتلقّي لقصص ليلى العثمان فتنفذ إلى الفكر والوجدان. فالمواقف والأفكار تتسلسل بدون زخرفة بهلوانية ودون هذا الإطار التجاري الإستهلاكي الذي ما زال يطبع كثيراً من القصص التى تزحمنا بها المكتبة العربية مؤلفة أو مترجمة. فهي تتناول نماذج حية بسيطة من الواقع وتصور احتراقها الداخلي المتصاعد وصراعها عبر المتناقضات.

ويبدو واضحا مدى ثراء تجربة الحياة والإبداع عند ليلى العثمان. تجربة حياتية من خلال معايشة النماذج التى صوّرتها في قصصها معايشة حميمة ودقيقة، معايشة امرأة تعلمت طبيعة المرأة وطبيعة الرجل.. تعودتها.. عرفت منها كيف تنظر إلى جمالها وقبحها.. كيف ترى الحياة والأشياء.. غدت صديقة لهذه النماذج، تصغي من كل جوارحها إلى أحاديثهم وتتفرس في ملامحهم النفسية. وقد ظلوا معها إلى أن انتقلوا إلى قصصها الفريدة.

معظم هذه القصص مزيج من الشاعرية والواقعية القاسية التي تهتك كل الستور حتى تلك التى ما زالت محرّمة في النظرة التقليدية. وهي تضع الإنسان أمام نفسه. أمام قضيته وأزمته في مواجهة صريحة. ويتعانق أو يتقاطع الواقع والحلم لنرى حقيقة العالم الاجتماعي المحيط بنا، وحقيقة النفس، ولا سيما حين تستخدم أسلوب التداعي (الفلاش باك) لتعبر عن المرأة في كل أطوارها ووظائفها. كما تلعب قدرة القاصّة على التقاط التفاصيل الصغيرة دوراً مؤثراً في الكشف والتوصيل. ففي اللوحات النابضة المتتابعة المرهفة للاغتسال بالماء المثلج والتى شكلت قصة «الحب له صور» وهي التى تحمل المجموعة عنوانها تنجح ليلى العثمان في تصوير التمزق والتناقض في قلب المرأة التى كبلتها أغلال الرجل، وحين أرادت أن تنفلت أوشكت

(١) منشورات دار الآداب ١٩٨٣ - بيروت

على الضلال وغابت عنها الحقيقة فضيعت ما حسبته استقلالا وفقدت الاستقرار.



على أن العنصر الجديد الذي شدّني إلى هذه المجموعة هو تبلور الإلتزام الاجتماعي فيها، وكانت ملامحه خابية في مجموعاتها السابقة. وكنت أتوقع ذلك التطور الذي أغراني تحقُّقه بالكتابة حين قرأت «الحب له صور». شعرت بالامتاع الفني في مطالعتي «امرأة في إناء» والأعمال الأخرى.. واستمعت مع صاحبتها إلى أدق وأخفى همسات الأنثى.. الذات الفردية في علاقتها مع نفسها ومع الآخرين. وانتظرت التعبير عن المرأة الأم والرجل الذي لا يقل عنها تمزقا في مجتمعنا. فيكفي كل هذا الإنتاج القصصي العربي عن المآساة المرأة لعبة الرجل وضحيته تحت ركام القرون البالية، ويكفي الكتابة عن انفصام الشخصية والوحدة والاحتقار والضياع. فليس الفن لعبة جميلة مسلية في يد حاذقة ولا هو تعبير غنائي ذاتي، وإنما هو وعي حيال زمن ومجتمع، وعي اجتماعي ووعي جمالي تتغذى جذورهما من الواقع المعيش. وتلك هي وظيفة الفن الحقيقية: رؤية وكشف للواقع الإنساني حتى نفجر غدا أقل قبحا ومآساوية إن لم يكن مشمولا بالعدل والصداقة.

ولم يطل انتظاري، فها نحن نتعرف أكثر على ليلى العثمان التي تحمل هموم عالمنا حتى تطاردنا أشخاصها وحوادثها بعد أن نفرغ من صحبتنا لها، حتى في قصص الحب التي تبرع فيها. وفي القصة الأولى التي تصور فيها ببراعة أيضا الشخصية المريضة نفسيا لإصابتها بعقدة «السادية» نراها لا يفارقها الهم الاجتماعي، فهي تدين الواقع والزمن الموبوءين بالمستنقعات النفسية والفكرية من خلال تصوير الإحباط «.. حتى أولئك الذين عرضت مؤخراتهم من طول استقرارها على المقاعد الوثيرة في وظائف لا يحملون ما يؤهلهم لسد فراغاتها إلا ما حصلوا عليه من أوراق التوصية والوساطة أو شهادات لم يحصلوا عليها بعرق الجبين، بل بالعرق المبللة به الهدايا والأوراق النقدية المتراصة».

وقصتها «بعض الأشياء لا تنتظر» التي تجمع فيها بين جرح المجتمع وجرح المصير القدري لتكتمل مأساة الوجود البشري تحدث في النفس رجة حتى النخاع، وهي عمل فني متكامل، وقد وظفت فيه الكاتبة كل ما أنضجته من القيم الجمالية الفنية وما أدخرته طويلا من الإحساس بعذابات الإنسان.. احتشد كل هذا الزحم ليتفجر بعد ذلك في هذه القصة التي لا تنسى والتي سيطرت فيها الكاتبة على أدواتها رغم عنف التفجير سيطرة لا تتاح إلا عند استواء ثمرة النضج للمبدع الأصيل.

«طابور هذا أو تعبان عرق يمزقه الانتظار واللهفة والرهبة أن يرفض الطلب وتمزق الأوراق في وجه صاحبها.. شهقت!! ذاك الدلال الذي تعودته كل مرة غير متوفر اليوم. المسؤولون من الأصدقاء لا يعلمون أنني اليوم سأنحدر إلى طبقة الكادحين وأقف في الطابور.. طابور الذين لا يعرفون مسؤولية مثلي.. ولا يتدللون كل يوم مثلي»

كم كاتبة عربية تملك كل هذا الصدق المغلف بالسخرية والشجن والإحساس بمسؤولية الكلمة؟ الكلمة التي تبلغ ذروة الفن الواقعي من خلال مواجهة الذات وتعريتها بلوغا لتعرية القبح في مكان وزمان ما؟ من ذا يملك هذا التجرد الإنساني النبيل وهو طريقنا الوحيد إلى الفن الحقيقي الذي يكشف الزيف ويتحداه؟!

وهذا النفاذ الذي ينمّ عن ثقافة المبدع وعمق وعيه والذي ينتقل من تصوير الوجود الفردي إلى الوجود الجماعي كما نراه في الفقرة الآتية:

«الوقوف ومشاركة غير المدللين متعة!! والنزول أحيانا من أبراجنا العاجية يجعلنا نرى عن كثب خرائط الوجوه، المتعبة فنشعر بمعاناتها التي لا نعرفها»!!

تسرية عن النفس التي ربض القهر داخلها!!. ومثلما نراه أيضا في قصة «حاجز النار»: «انتم تمتلئون بالذهب..إلخ» فالطبقة تورث السادية والحساسية الشديدة التي تبدو في القدرة على التقاط الصورة القوية البسيطة التي قلما ينتبه إليها الكاتب في رحلة التعبير المليئة بأحجار «الكليشيهات الجاهزة» التي يندر أن ينجو منها القلم.

«ببطء يتحرك الصف! أنهار العرق تنهمر من جسدي! أحسها تنزلق بين ساقي المتعبتين ولعلها كذلك مع الآخرين.. عدوى تعب الوجوه..»

وأكثر هذه الصور ذات الحساسية مستقاة من نبع الأمومة أو الأنوثة بوجه عام، طبيعة فنية تتميز بها ليلى العثمان كما لانراها بمثل هذه الرهافة الحانية عند غيرها. والأمثلة لا تحصى إذ لا تكاد تخلو منها قصة بل مقطع واحد. وهي تتميز جميعا بحسيتها، فلا اصطياد للخيال لأن الواقع أغنى منه لمن ينفذ إليه: «غَدٌ ثالث وبطاقة الزيارة في يدي جناح حمامة، سيحمل الأم سيفرح قلب عبلة- زوجة من مصرنا في عذاب رحلة البحث عن لقمة العيش أنشب الداء اللعين أظافره في ثدييها- حين ترى وجه أمها الحاني قرب سرير المرض! والموت المرتقب.. وسترتاح في إقامتها وصدر امها مرقد وثير لأطفالها»

«... قلمه الزاهي يخط توقيعه الأنيق وترفع الورقة بيد الفراش إلى حيث الأختام، بعدها إلى الخطاط.. ومن ثم تعود إليّ عروسا متأهبة يدمغها المسؤول بتوقيع جديد كعريس يدمغ عروسه إلى الأبد».

وخاصية القدرة على إحداث المفاجأة غير المبترة بل المنتزعة من أحشاء الواقع تلك التى تتميز بها ليلى العثمان كما أشرت والتى تعرف في التأليف الموسيقي باسم «الكريشندو» تبدو في ختام هذه القصة الذي يثير بنا نفس الإحساس الذي تفجره رواية «المخدوعون» لغسان كنفاني.

وفي «حاجز النار» نشهد تصويراً آخر لظاهرة الطوابير ودلالتها على تشيُّؤ الإنسان من خلال قهره. وهذا التصوير- والمكان هنا المطار- يحمل قيمة فكرية أخرى هي إدانة مأساة التمزق العربي على مستوى «الفسيفساء» الدولية كما سماها اليهودي اللعين كيسنجر، حين قال: «سأفجر الفسيفساء العربية!!».

«والطابور بطيء.. طابور هنا لأهل البلد.. وطابور آخر لغيرهم.

والدم واحد لكن الطابور لن يصبح واحدا أبدا في الحدود العربية»

وتكاد تصرخ ليلى العثمان لمأساة التمزق هذه في الصرخة التي تخيلتها تصدر من ذلك الضابط الذي صورته مملوءاً بالحقد وهو يعمل في المطار «حاجز النار» حيث يتجسد ذلك التمزق:

«في لحظة.. تمنيت لو أعود إليه.. إلى صدر ذلك الضابط.. أبكي مؤكدة له أنني أشتري تعاسته بكل هذه الأساور فقط.. ليبتسم. ويرتاح.. ويثور على هذه الفواصل ويصرخ بأعلى صوته: «نحن أمة واحدة.. فلتتكسر كل الحواجز. افتحوا لنا الطريق.. وزقوا الناس المنتظرة وعلى وجوهم خيبات الأمل.. امسكوا بأيدي الاطفال.. قولوا لهم زمنكم سيشهد الوحدة والالتحام».

«آه.. لو يفعل ..آه.. لو تتحرك الجمرة ويثور!! عندها سوف يبرد هذا الخط الطولى.. وسوف تهمد النار المشتعلة وتبني أجسادنا في الداخل. تنمو نمواً سلياً لا اعوجاج فيها .. ولا تشوهات. لكنه لم يفعل! وابدا.. هو لن يفعل.. هناك سيف يلمع.. وهناك موت حتمي.

ظل يمارس ساديته على كل الوجوه.. وكل الاسماء.. والطابور الطويل وردة ذابلة والأطفال تنام على صدور الأمهات.. وكثير منهم افترش أرض المطار التي كانت باردة كالثلج»

وتبلغ ليلى العثمان الذروة مرة أخرى في تصوير الآم المخاض والولادة في مرحاض لفتاة غرر بها زوج أختها في قصة «الجدران.. تتمزق..» أما «الطاسة» فسوف يخلدها سجل القصة العربية الكويتية التى سجلت ذكريات أيام الغوص قبل عصر النفط الأسود، وصورت التقاليد الشعبية وما تحفل به من أساطير سحرية، والإنسان الكويتي الكادح. ويبهرنا التصوير الحيّ الدقيق التفاصيل للبيئة ولشخوصها.

وبعد، فليست هذه دراسة نقدية، وإنما هي رؤية انطباعية جاءت ثمرة قراءة أولى عاجلة لهذه المجموعة القصصية المتميزة، فالهم الكبير يشغلنا ويعتصر قدراتنا ومع ذلك فإن هذه المجموعة لا تبعد كثيراً عن هاجسنا الشاغل.

جدليّة الفضاء الإجتماعي وأشكال الدفاع الذاتي

"مشروع تحليل سوسيو- ثقافي" للافواه *

المنصف وناس

مدخل توضيحي

هذه المجموعة القصصية تمتدّ عبر زمن لا متناه وتتّخذ أشكالاً حوارية كتعبيرة أساسية وتحاول ربط السّلوك الاجتماعي والثّقافي بالوضعية النفسية للبطل أو لمجموعة الأبطال. فالكيان القصصي يُعالج ظاهرة التهميش الحضاري كتعبيرة ثقافية وسلوكية، ومن ثمّ لا.. يمكن الحديث عن البطل الإشكالي الذي بلوره لوكاتش في كتابه «نظرية الرّواية» أو حتى البطل المحوري لمفهومه الكلاسيكي. فالمجموعة القصصية تعيش حالة من التذرّر الكّياني وتعدّد مصادر النفوذ والتأثير والفاعلية: المرأة- العرق- رفض المجتمع- التهميش... هذه الأقطاب الثّقافية لا تمثل كياناً حضارياً متجانساً ومتكاملاً من حيث الفاعلية والتأثير، وهو مَا يعطي ديناميكية متميّزة لهذه المجموعات الهَامشية بالنسبة للنظام الاجتماعي المركزي Le Système Social central من حيث سُلسَّم القيم والتوزيع الاجتماعي للعمل، والمركزية بالنسبة لمنطقها الدّاخلي الخاصّ وتركيبتها الثقافية. فالمجموعات اللاّشكلية informelle تسعى إلى بناء كيان مستقّل ولكن منغلق ومحدود، فهو لا يتجاوز العدد المعروف والمحدّد من الأشخاص في محاولة منها لخلق جوّ خصوصي.

ولذلك تعيش هذه الشخصيات حَالة قصوى من الوعي الحادّ للمعطيات الحضارية والأشكال الإجتماعية.

(١) مكوّنات الكيان القصصي:

مَا هو المنطق الدّاخلي الذي يتمحور حوله العمل القصصي: «الأفواه»؟

مَا هي خصائص التركيبة الجَمالية لهذه المجموعة القصصية؟

لقد أدّى التحريك الجماعي لأحداث المجموعة القصصية إلى تلاشي البّطل الرئيسي وانفجار أشكال من التعبير الجماعية على المستويين الاجتماعي والأنطولوجي. ولذلك تتمتّع هذه الشخصيات بنوع من الاستقلالية المرجعية تجاه النظام الاجتماعي الشّامل، فيستمدّ البّطل قيمته من انغلاقه الثّقافي وانتقاله من القيم الجماعية إلى القيم الذّاتية المنعزلة. لقد استطاع «الربيعي» أن يقدّم لنا حركية جمالية ومضمونية تتميّز بالتعدّدية من حيث الشخصيات والأدوار داخل الفضاء الاجتماعي. فالبطل يرفض الهوية التي يمنحها له المجتمع ويمنح ذاته هوية بديلة تمكّنه من الانعزال عن العالم الخارجي.

(*) الأفواه «مجموعة قصصية للرّوائي العراقي» عبد الرحمان مجيد الربيعي- منشورات «دار الآداب» بيروت

هذا التحرّك الجماعي يتّسم بالمركزية الذاتية أي اعتبار الذات محور العالم، فتتفجّر كلّ أشكال التعبير التي تكبتها الرّقابة الاجتماعية من شرب للعرق وتحدٍ «للأنا الأعلى» واستهزاء بالسّلطة الحاكمة وانتقاد لاذع للقوانين العائلية. هذه الممارسات المحرّمة في المنطق الاجتماعي تبيحها المجموعات الصغرى كردّ فعل ضدّ وضعية التهميش الحضاري. منذ البداية يمكن أن نقول بأنّ من عناصر ثراء هذه المجموعة القصصية الرّبط الجدلي بين حاضر وماضي البطل أي العلاقة الموجودة بين واقعه الحالي وتاريخه النفسي والاجتماعي. لقد أكدّ الربيعي أنّ كلّ بطل هو مجمل من التجارب النفسية والحضارية التي تصنع واقعه العملي والخصوصي. هذا الانعزال عن العالم الخارجي ليس وليد الصدّفة بقدر ما هو ردّ فعل ضدّ أشكال من الإحباط والفشل المخطّط. فالميزة الثّانية لهذا العمل أنّه يضع السّلوك الحضاري للفرد في إطار العلاقة الجدلية مَاضي- حاضر من خلال ربط الميكانيزمات النّفسية بالتجارب الأنطولوجية. انّ العلاقة بين الماضي والحاضر تأسيس لكيان حضاري وتحديد لهوّية البناء المستقبلي للبطل داخل أيّ عملٍ قصصي. الإبداع القصصي يلعب دور الذّاكرة الحضارية والثّقافية لأيّة مجموعة من المجموعات[1] ومن ثمّ- كما يقول مورينو Moréno- تكون ردود فعل المجموعة على ضوء الذاكرة الثقافية.

إن الإجابة عن أيّ سؤال من الأسئلة يقتضي رجوعاً إلى المخزون الجماعي حسب عبارة «كاردينار» Kardiner واستلهاماً للتجربة الذّاتية.

ومن ثمّ يركّز علماء الأنتروبولوجيا على أهمّية المتصوّر الجماعي في صياغة الإجابة على السؤال المطروح باعتبار القيمة المرجعية لهذا المتصوّر.

ولعلّ مَا يتميز به مجموعة «الأفواه» القصصية هو أنّها خلقت وتخلق أشكالاً من دينامية الجماعة في علاقتها بالمحيط الاجتماعي والثّقافي في مختلف صيغه ومظاهره. فالمجموعة القصصية تتّخذ الجماعة le groupe بطلاً رئيسياً يتحرّك فيؤثّر في العالم الخارجي، على عكس أعمال قصصية أخرى كلاسيكسة في لبوسها الفني تتمحور حول منطق «البطل- الفرد» «البطل- الجماعة» «والبطل- المحور». هذا التّجاوز للشّكل الكلاسيكي ولّد حركية إضافية ودينامية تفاعل مع المحيط الاجتماعي.

ولعلّ مَا يمكن أن نشير إليه هو أنّ هذه الجماعات اللاّشكلية تتمتّع بتجانس ثقافي Homogeneité Culturelle أي أنّها في قطيعة مكرّسة مع الفضاء الثّقافي الشّامل لأسباب ذاتية (الأفواه) ولأسباب مبدئية «المدى». هذه القطيعة الثقافية محدّدة لمسار المجموعة القصصية وبناء الأقاصيص على أكثر من مستوى لأنّها تولّد دينامية الفضاء الدّاخلي[2] ولذلك تكمن أهميّة العَامل الثّقافي في إبراز التكامل أو التنافر بين الجماعة والمحيط الخارجي.

إنّ العنصر الثقافي يكسب الجماعة قدرة على مواجهة العالم الخارجي والإحراز على تماسك وترابط البناء الداخلي.

(٢) سوسيولوجية الفضاء الاجتماعي:

هل يعرف الفضاء الاجتماعي تجانساً أم تغايراً؟

مَا يمكن أن نشير إليه منذ البداية أنّ الفضاء الاجتماعي أو الجغرافي إن صحّ التعبير مكوّن فنّي وقصصي وعنصَر- بطل أي انّه يفعل فعله ويؤثّر تأثيراً مباشراً على الزّمان والمكان. هذا التّوظيف لعامل الفضاء توظيف ناجح عند الرّوائي عبد الرحمن مجيد الرّبيعي لأنّه استطاع تحويله إلى عنصر فاعل ومؤثّر في البنية القصصية: **(في المدى الممتدّ أمامه ليست هناك أيّة حياة، ثمة رؤوس نخل بعيدة تشير إلى أنّ العَالم مَ زال مليئاً بالحياة، وان بَعْد هذا الخلاء المقطوع هناك بشراً تتوزّعهم أهواء ومشارب)**[3]

ولذلك يأخذ الفضاء شكل الطموح والمعاناة والنّضال من أجل فرض الذّات وتحقيقها على مستوى التّاريخ والزّمن، فبقدر مَا يحكم الفضاء الاجتماعي على العناصر الفّاعلة فيه بالتهميش والضّياع بقدر ما تتدعّم لديهم فكرة التحدّي المضادّ والاقتناع بأهمّية النّضال في دفع هذه القوّة الضّاغطة. هذا الفّضاء يدعّم منطق الهيمنة التي يُعاني منها عناصر المجموعة القصصية، لأنّه يعيد إنتاج الاستغلال والقمع والضّغط في كلّ أشكاله. لقد حوّل «الربيعي» الفضاء الاجتماعي داخل كل قصة إلى شاهدٍ حضاري على طبيعة العلاقات المجتمعية والبّناء السّوسيو- ثقافي القائم. ولعلّ في ذلك تكمن الأهمية الثّقافية لهذه المجموعة القصصية من حيث صياغتها الفنّية وتبليغها المضموني.

فالفضاء الاجتماعي لا يأخذ في كلّ المناسبات نفس المحتوى ونفس الدّلالة كما تعوّدنا ذلك في قصص أخرى، بل يصبح رمزاً من رموز التحضّر والتّقاليد الرّاقية، ولذلك يختفي الفّضاء الضّاغط والمهيمن ليحلّ محلّه فضاء تتعايش داخله كياناتٌ متنافرةٌ في جوهرها ومتواصلة في ظاهرها:

(كما أنّ البستان كان يعمّر بمجموعاتٍ أخرى من الشّاربين ولكن لا أحَد منهم يتعدّى حدوده، إذ كانت هناك

---

(1) G. LUCHAS: La théorie du roman Paris

(2) B. Malinovski: uneThéorie scientifique de la culture Ed. point, Paris

(٣) قصة «المدى» صفحة ٢٩، المجموعة القصصية

تقاليد يجري احترامها من الجميع دون إتّفاق مسبق على ذلك)[٤]

لقد خلق هذا الصّنف من الفضاء تقاليد تعايش اجتماعي، وهو الذي كان دائماً مصدر تهميش مستمرٍ للعناصر الاجتماعية، وهو ما يدلّ على توظيف جمالي وفنّي لعنصر الفضاء في المجموعة القصصية. فلم يعد الفضاء مجرّد كيانٍ ستاتيكي ثبوتي كما تعوّدنا أنْ نرى ذلك في الإبداع القصصي الآخر، بل تحوّل إلى عامل فعلٍ وحركية.

أمّا الجانب الآخر للفضاء الاجتماعي فهو أنّه يمثّل حماية وأمناً للمتعايشين داخله وخاصّة لهذه الكيّانات المحكوم عليها اجتماعياً بالتهميش والضّياع:

(ولم يكن أحد يُضايقهم في جلستهم تلك، حتى أن بعض فلاّحي البُستان كانوا يحملون إليهم الفجل والخسّ كهدايا ولذا لا يبخلون باعطائهم بعض النّقود أو الزّجاجات الفارغة مكافأة لهم على ذلك »

لقد وفّر هذا الصنف من الفّضاء أمناً داخلياً لمرتادي المجلس وخلق بينهم وبين بقية العناصر الأخرى من مزارعين صغار وشرطة متمرّدة نوعاً من التعاطف والتفاهم من خلال تبادل البّضائع والمنتوجات.

هكذا يمثّل الفّضاء الإجتماعي شكلاً من الاشباع للحاجيات الذّاتية autosatisfaction **والرّغبة في الاندماج داخل الهياكل الثّقافية والاجتماعية اللاّرسمية**. وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى أنّ أبطال هذه المجموعة القصصية يتمحور مجهودهم حول خلق هياكل نشاط وحركية لا رسمية من أجل تسهيل عملية الاندماج. فإذا كان الفّضاء الرّسمي يمثّل القهر الجسدي والثّقافي في مختلف هياكله، فإنّ الفضاء الاجتماعي اللاّرسمي يسّهل الإبداع وحرّية التعبير وحركية الفعل الإنساني كما نشاهد ذلك في قصّة «الأفواه».

أمّا في قصّة «هموم عربية» الرّائعة فيأخذ الفّضاء شكل الخارطة السّياسية القومية حيث يحاول المواطن عمران أن يوحّد البلاد العربية واصفاً الجراحات المشتركة وأشكال القمع السّياسي التي يعيشها المواطن العربي.

فما هو الدّور الوظائفي للفضاء الاجتماعي؟

إنّ القيمة الوظائفية لهذا الفّضاء تتحدّد في مهام أربع:

أولاً: ضمان الادماج الثّقافي والاجتماعي للعناصر الاجتماعية المهمّشة وخلق هياكل تواصل حضاري.

ثانياً: مواجهة الهيمنة الجسدية والثقافية التي يمثّلها الفضاء الرّسمي في مظهره السّياسي والاقتصادي.

ثالثاً: ضمان فرصة التعبير الجسدي والثّقافي خاصّة في واقع يتميّز بالاستلاب والهيمنة.

رابعاً: إتاحة الفرصة أمام الجماعات اللاشكلية من أجل أن تحقّق ذاتيتها التّاريخية.

إنّ هذه الكيانات الهامشية لم تستطع أن تحقق استقلاليتها كاملة لأنّها تريد في النهاية الهروب من المواجهة وعدم التصدّي لهذا الواقع الزّاحف والضّاغط.

وهي حالة يمكن وصفها بالجدلية في مفهومها التّاريخي كأنّها تعكس صداماً عنيفاً بين كيانات متناقضة في أساسياتها وبناءاتها الجوهرية.

فما هي مواصفات الفضاءين؟

الفضاء الرّسمي	الفّضاء اللاّرسمي
★ فضاء كابت وشمولي يعتمد منطق الإحباط والهيمنة الجسدية	★ فضاء متحرّر يرفض الكوابت ويعتمد التعبيرة التّلقائية
★ فضاء سكوني تسوده التعابير السلطويّة والأيديولوجيا الدّينية في الكبوتية	★ فضاء حركي وديناميي وجدلي جوهره تسوده وضعية لا دينية
★ الفضاء احادية في الرؤية وسيطرة لا عقلانية	★ فضاء جدلية اجتماعية متكاملة وحماية للكيانات المهمّشة

(٣) المكوّنات الفنّية للعمل القصصي:

لا يمكن الحديث في هذه المجموعة القصصية عن أداة فنّية متكاملة ومتجانسة في كلّ قصص الكتاب، ذلك ان كلّ قصّة تتميّز بأسلوب خاصّ إلى حدّ أنه يمكن الحديث عن فسيفساء من الأشكال والأدوات التعبيرية. فالفرق واضح بين قصّة «ثرة على مائدة الملك الضليل» التي تعتمد التوظيف العقلاني للتراث وقصّة «الأفواه» التي تعتمد التحليل النفسي - الاجتماعي للأبطال وربط السّلوك الذّاتي بالوضع السوسيو- ثقافي للعنصر. فهي مزاوجة بين المعالجة النّفسية والاستقراء السوسيولوجي في شكل تپليغي موفّق ومركز.

ويمكن تلخيص الخصائص الفنّية لهذه المجموعة القصصية كالتّالي:

- الرّبط الجدلي بين الوضعية النّفسية والواقع الإجتماعي واعتماد طريقة التحليل النّفسي للشخصية.
- تجاوز الشّكل الكلاسيكي في الكتابة والاستغناء عن مقولة البّطل المحوري واستبدالها بالمجموعة.
- توخّي اسلوب المزاوجة بين السّرد والاستطراد والحوار.

(٤) الأفواه، ص. ٨١

– التقديم الاجتماعي للشخصيات وإتاحة المجال أمامها للنّضوج والاكتمال بدونما توجيه قسري واعتباطي مخالف لأبجديات الإبداع الحقيقي.

– العودة إلى التراث وتوظيفه في أطروحات حديثه كدلالة على الوعي بالحاضر والماضي.

– القدرة الفائقة على التنقّل بين أمكنة متعدّدة ومتغايرة، هذا التنقّل يكون على مستوى الزّمان والمكان:

Synchronique et diachronique

لقد أثبت الربيعي قدرة على التنقّل بين مختلف الأمكنة (مدن- قرى- مؤسّسات) ووصفها وصفاً دقيقاً يدعو إلى الاستغراب والإعجاب. ففي هذه المجموعة القصصية يسير الزّمن سيراً غير عادي، ويجد القارئ صعوبة في ملاحقة الأحداث ومتابعتها: مثلاً في قصة **الأفواه أو هموم عربية**. ولعلّ عنصر المباغتة كان محدّداً في اكتساب الأقاصيص نكهة خاصّة وقدرتها على النّفاذ إلى الأعماق والتأثير.

هذا من ناحية، أمّا من ناحية أخرى، فإنّ البّناء القصصي متماسك ويتمتّع بارتكازات منطقية تفسّر سرّ ترابطه ومتانته على أكثر من مستوى.

ملحوظة أخيرة:

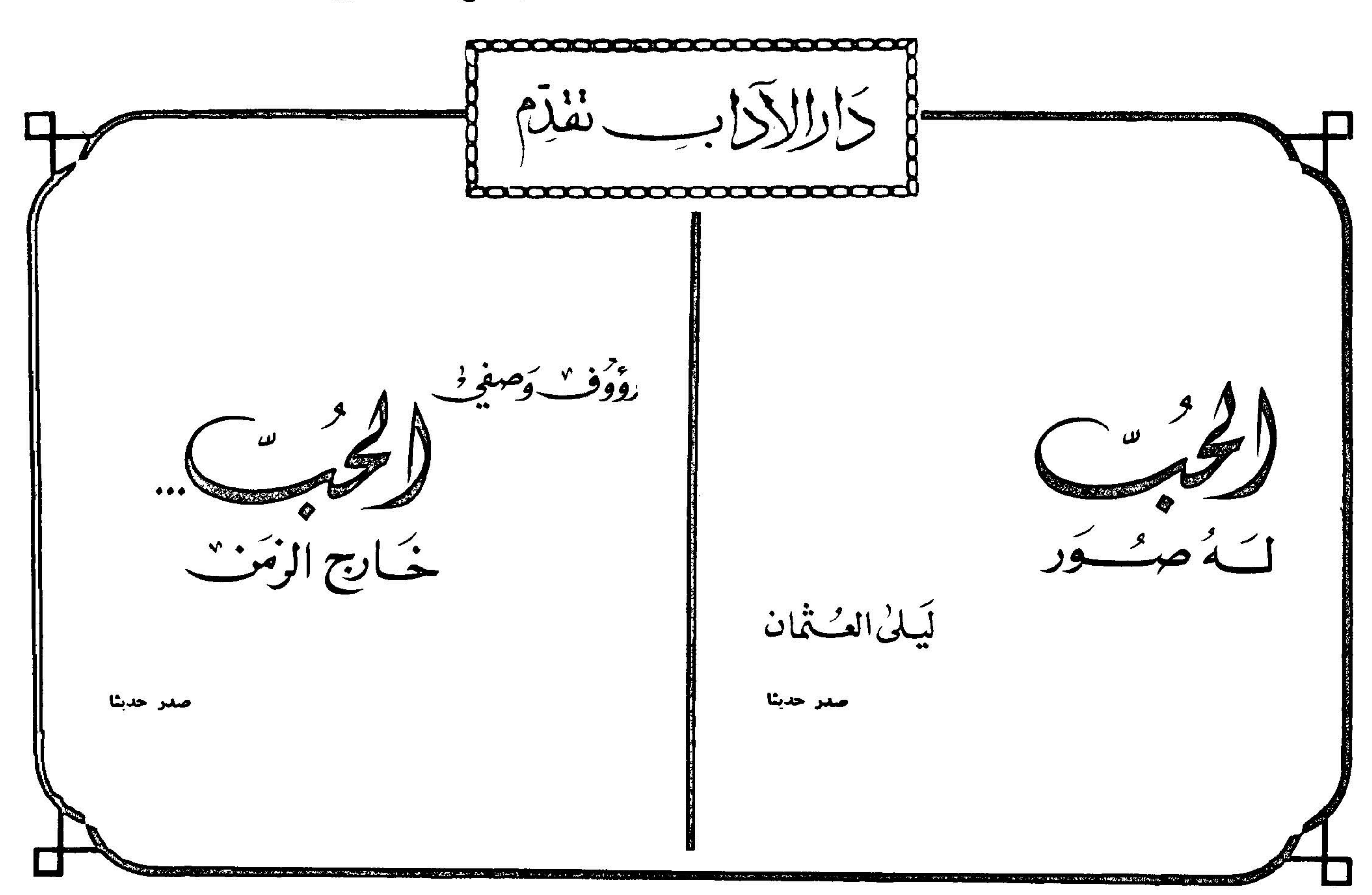
إنّ علم الاجتماع الثّقافي مَا يزال بكراً من حيث حضوره الزّمني وميادين اهتمامه خاصّة في قضايا الكتابة الرّوائية والقصّصية حيث لا نجد على الإطلاق محاولات في هذا المجال كالتي وقعت في أوروبا: لوكاتش وغولدمان وكويزني[٥]. لقد بقيت الثّقافة العربية محتاجة إلى تعريب هذه الوحدة المعرفية أي علم اجتماع الثّقافة وخاصّة في ميدان الرّواية التي واكبت التحوّلات الحضارية والسّياسية في الوطن العربي الذي عرف العديد من الهزّات المتنوعّة والمتعدّدة.

إنّ علم اجتماع الثّقافة ليس إلاّ جزءاً من علم الاجتماع لكنّه يسمح بتحليل العديد من ميكانيزمات الإبداع وفهم طبيعة المنطق الدّاخلي المحرّك لها.

إنّ الخوض في أشكال علم اجتماع الثّقافة يسمح بتحديد هوّية الثقافة العربية المستقبلية وعلمنة التعامل مع الإبداع وخلف مفاهيم عقلانية تطهّر العقل العربي من العاطفية والدوغمائية.

تونس

(٥) يمكن أن نشير في هذا المجال إلى جهود الدكتور طاهر لبيب في مجال علم اجتماع الثّقافة العربية



قصة قصيرة

المهاجر والظلال

رضوان ابو شويشة

– ظل أول –

تتصاعد حلقات البخار من قدح القهوة الآيرلندية. ورجل عربي يتابع الحلقات المتواترة أمامه في اهتمام.

قرأت جريدة الصباح. ومقدمة كتاب.. وهو ما زال يرتشف قهوته بشغف كما لو كان يتنفسها. ويعشقها.. في حانة «بالى براك».. الهاجعة فوق جبل (كيلانى) على الطريق الممتد من «دبلن» إلى «ويكلو».

لفت انتباهي وجود العربي في هذه القرية الصغيرة.. ملتقى هواة صيد السمك في مواسم القُدّ والاسقمري..

ذهب إلى المشرب. قامة طويلة. سوالفه تمتد إلى أسفل الذقن، شعر الرأس يختفي من المقدمة. هاجمه الصلع في منتصف العمر..

عاد بقدح آخر من قهوة الكحول. تلك القهوة العجيبة: مزيج من قشدة اللبن. وجريش البن. والماء الحار، مع الويسكي والسكر.

.. جلس منحنياً على القهوة.

..تراءى لي أنني عرفت الرجل من قبل. عدت أتامله. وذاكرتي تبحث وتدور... رفع رأسه، وسألني مباشرة:

– «أهذا أنت يا مفتاح؟»

أجبته بدهش فوري:

– نعم، هذا أنا.

قال. وهو يرفش سوالفه الطويلة: «أنا خليل غازي.. هل نسيتني؟»

... تذكرت خليل غازي.. شابا مهذبا. ومحبا للزهور. وطالب دكتوراه في الرياضيات عام ٦٨.. لكم تغيرت ملامحه!..

أتتني صورته الأولى وزهرة القرنفل الوردي التي يحجزها كل يوم من متجر بشارع «الغرافتن».

صافحته بحرارة. وسألته بتشّوق عن أخبار السنوات التى مرّت.. أجاب في اقتضاب:

– «بخير أنهيت دراساتي. وسهّل لي زواجي الحصول على الإقامة والعمل المريح، وجواز السفر».

تبادلنا لفائف التبغ والمجاملات.. وتحدثّنا عن الأسماك التى يمكن صيدها في الخليج الصغير.. فقال خليل وهو يرمق القدح المشعشع:

– كنت أذهب إلى بقعة كثيرة الأسماك في دنليري.. ثم أصبحت أفضّل الحانة بدل البحر في إجازتي»

وقام إلى الهاتف العمومي يتحدث مع زوجته عن دعوتي للعشاء معها في فندق «الكورت» القريب.

– ظل ثان –

.. ميرى– أمرأة في الثلاثين.. جميلة، حمراء الشعر، قصيرة القامة، جسم ممتلئ، بضّ، وجه مدّور مُنمّش بعينين زرقاوين.

قدّمني إلى زوجته:

– «مفتاح صديق قديم يجدّد ذكرياته في دبلن»..

منحتني ابتسامة بدون معنى.. بانت غمازتان على خديها..

أشارت إلى مائدة في الركن.. وسبقتنا بخطوات سريعة تتطاوح بثديين ثقيلين. كان المطعم خاليا من الرواد باستثناء رجل عجوز وراهبة شابة... انكببنا على عشاء لذيذ صامتين...

نادى خليل الساقي وطلب المزيد من الشراب..

خرج الرجل العجوز مستنداً على ذراع الراهبة..

وفجأة، وفي دفعة واحدة تكدرت ملامح خليل. هزّ رأسه، وقال لزوجته بصوت خثر ثقيل:

– «الحمقاوات يذهبن إلى الشاطئ ويتعرّين تحت الشمس»

ثم سألني بجدّ:

– «ألا تعتقد مثلي أن الشمس في دبلن هذه الايام– دفعت الجميع إلى الخبل؟»

وغادرنا دون كلمة..

قالت ميرى بهدوء.. تخفي قلقاً خفياً

– «أعتذر، عن سلوك خليل.. شرب برميلاً من قهوة الكحول... أيظن أنني جننت حتى أتشمس عارية أمام الناس..! هراء.. أنت تعرف خليلاً عندما يسكر»

فوجئت بإقحامي.. فقلت، وأنا أتأهب للانصراف:

– «أعرفه، أعرفه إلى حد ما؛ وكان ذلك قبل زمن طويل»...

...وأنا أجتاز باب المطعم.. لحق بي خليل. وجهه منهدّ مهموم. أصرّ على أن يمشي معي مجاملة إلى الباب، ودّعني:

– «أراك غداً في حانة القرية– الساعة العاشرة والنصف».

– ظل ثالث –

خرجت عابراً حديقة الفندق.. وسكة حديد القطار.. ماراً بالممشى الضيّق المؤدي إلى الخليج وأكواخ الصيادين..

.... وبمهل.. بمهل اتّضحت صورة المرأة المستلقية بين الحشائش.. شيئاً فشيئاً اقترب... المرأة المستلقية بين الحشائش... حمراء الشعر.. عارية الصدر.. العالم تحت الشمس مكان صغير..

جلست على الشاطئ الذي انحسر عنه الجزر مخلفاً أكواماً من الحصى الرمادي الصغير.. أرقب المنارة البعيدة وراء جزيرة «دولكى» وأحدق بأنوار البيوت المعلقة على رأس الخليج..

.. وأمامي ميرى فوق الحشائش، الساعة العاشرة والنصف يوم أمس.. على الشاطئ منذ الفجر– كان حظي عاثرا– لم اصد غير سمكة صخرية سامة..

... غبّرت صنانير نصف بوصة. وطعوم الديدان الحَلَقيّة بصنانير الريش الملون.. بدأت الرمي على مدى أقرب إلى الشاطئ. وسحب بكرة الصنارة دوريا.. فسمك القد لا يقترب– أحيانا– من طعم ثابت..

الساعة العاشرة والنصف. ازدهي يا صنانير الريش الملّون– البحر متحّرك– سأظل هنا إلى آخر العمر حتى تأتي يا ريشاتي الملونات برُفقة القد البض.. تفرح انتظاري الطويل الفارغ.. امتلئي يا ريشاتي الجميلات.. وجئت، ثقلك لذيذ شهيّ أجذبك إلى الشاطئ تشديني إلى البحر.. ستة أرطال تقريبا..

شاب أشقر الشعر واللحية، سألني عن الوقت، وقال:

– «لم أشاهد سمكة قدّ بهذا الحجم تصاد من الشاطئ»..

.. جميلة، مضيئة بالفضة، ولجة ماء الأطلس. وحنان قمر الحصاد.. عيناها واسعتان..

تنتفض..

تختلج..

ضربة على الرأس.. طفحت عيناها.. عدت إلى الكوخ..

ورائي كان الشاطئ مقفراً إلى ما بعد الجسر.. وأمامي وسط الحشائش الطويلة تستلقي امرأة..

.. أوه.. ميرى! أتظنينني لا أعرف! أتظنيننى أعمى! أو أنني قدّيس السمك الذي يشغله القدّ الجميل..!

ولا يكترث لـ«اللّغم الغافى» بين الحشائش ولو... ولو أنه غير لائق مراقبة امرأة خلعت ساترة الصدر تحت الشمس..

خجلت من النظر إليك وأنا عائد إلى الكوخ.. لكنني لم أستطع كبح رغبتي في مراقبتك بالمنظار المقرب من النافذة.. ورأيتك مع الشاب الأشقر الشعر واللحية.. وأنتما تتشاوران، وتذهبان متشابكي الأيدي خلف القلعة الخربة.. إلى مغارة منجم الحديد المهجور وسط غابة أشجار السام.. الساعة العاشرة والنصف– تفتح الحانات– ذهب خليل إلى الحانة، دخلتما المغارة.

.. الساعة الثانية والنصف– تُقفل الحانات– خرجتما من المغارة..

تساءلت:

– من يملك هذه المرأة؟

أجاب هدير البحر:

«لسان ترثار يغزل الحرير»

.. عالمك يا ميرى متساقط الأسنان. وأفكر في (اللاّت والعزّى) عندما أرى وجه زوجة خائنة..

أكتشفت زيف ميرى.. هذا ما سأقوله لخليل..

بدأت سفينة إضاءة تعمل وسط البحر المضطرب منذرة السفن بقدوم ضباب كثيف.. وصفر قطار البضائع البطيء بصوت خامل كصياح البجع قبل أن يموت..

ومن صفحة البحر إلى اشجار السام تحركت ظلال غامضة تنتشر كالغبش. وتهيم حيرى كأسراب الجراد بعد غيبوبة الشمس..

– ظل رابع –

في حانة «بالى براك».. قلت لخليل من الألف إلى الياء..– وفيا كان يلاحظ دوائر قهوة الكحول– قال بصوتٍ مصمتٍ دون أن يلتفت اليّ:

– «هه.. ارتفعت مئة حلقة بخار من هذا القدح»

طرابلس – الجماهيرية

الأغنيَة الأخِيرَة

سَعدالدّين كليب

وحيداً تسير المسافات فيّ
ويرحل فيّ ارتطام الصدى . . والخواء
وحيداً على الحزن أنقش صمتي
أبعثر فيه الرجاء
ومن دون قصدٍ
ألملمُ بعضي . . وأدلقه في ارتخاء
فلا وقت للامس
هاتي يديكِ فقد عقّني الصبرُ
وآغتالني خنجر الإنتظار
وحيداً بجوف الصراع ألوب
وأصطحب القهر والحلم والمستحيل
إلى أينَ ؟ ! . .
ليس مهمّاً
ففي الحلم متّسعٌ للضياعْ
وفي الجرح متّسع للنزيف
وحيداً أغوص بجرحكِ
أنزف عنك الدماء
وأركض فيك . . لعلَّ الأنين
يموسق فصلاً جديداً
فقد ضاقت الأرض ذرعاً بفصل العواء
وأنتِ تنامين تحت الرماد
بدون حفيفٍ . . ودون صرير
غريبٌ جمودك في الليل جدُّ غريب
أيا أنتِ . .
لكنما أين أنت
كأنكِ ما عدتِ أنت
وصوتي بسمعك صوتٌ مريبْ
هراء بقاياك فيّ
هراء بقاياي فيك
ولكنّ حبَّك أكبر مني وأقوى

فها أنت بيني وبيني
ولا أنتِ لحمي ولا أنت دميّ
فهل أنت أمّي
ولكـن . . .
ويثقب خوفي الصدى والخواء
وحيداً تهاداني الوهمُ بين قُراه
فمن زفرةٍ كافرهْ
إلى لعنة عاهرهْ
ومن مخلب الرعب أهرب ليلاً
الى المقلة الراعفهْ
فقد كنتِ يا جعبة الجدْبِ
لي غيمةً ماطرهْ
لماذا إذن راح يهطل فوق رؤاي النعيق
لماذا المشانق تنبت بين الدماء وبين العروق
لماذا سماؤك قفراءُ . .
أرضك يبتاعها القحط جهراً
وأحلاكم البيض ما عاد فيها بريقْ
فما كنت أعلم حين أتيتك
أحمل بعضي على كتْف بعضي
بأنك قهري
وهوّة صحوي
وسكين حقدٍ يمزّق أحشاء روضي النحيل
ويفتك دون حنينٍ
بأنسجة السنبلهْ
فقد كنت أحسب أنك رعشة قمحٍ
وثورة بيدرْ
وما كنت أعلم أنك ـ صبحاً وليلاً ـ خليّةُ عسكرْ
وأن هواي . .
يعيش على أضلع المقصلهْ

حماه

نقد العقل السياسي تتمة المنشور على الصفحة ٢٩

منتظماً زمنياً يصلح لأن يكون تقدماً منطقياً، لا من حيث الامتداد فقط، بل من حيث الفهم. وبما أنه ليس من وجود ولا من ممارسة سياسيين إلا «بايديولوجية وتحت تأثيرها» (كما يقول «ألتوسير») فإنه لا يبحث عن فهم النظام السياسي في ذاته بل في «الايديولوجية». وينبغي البحث عن فهم النظام الايديولوجي هو بدوره في النظام الديني. وليس فهم الأمر الديني من جوهر الدين، إلا إذا نظر إلى الحشو على أنه تفسير (كما تفعل مختلف «الأبحاث في الظواهر الدينية»). وينبغي البحث عنه في الفيزياء الاجتماعية (بالمعنى الأقوى للعبارة الوضعية القديمة التي كانت أساساً لتسمية علم الاجتماع). وتضفي كل ايديولوجية عضوية معنى على العالم، ويصنع العالم معنى، يتفاوت في درجة اعداده، لكل مجتمع بشري. ومن جهة أخرى ليس في الجماعات تماسك لأن للعالم معنى، بل في العالم معنى لأن التماسك في الجماعات مطلوب. وليس في مقدور هذه الجماعات غض النظر عن توفير وسائل التماسك تحت طائلة الانقراض. حتى وإن لم يتعد ذلك في البدء تنسيقاً بين المكان والزمان: تنظيماً مكانياً لمسكن وترميزاً للزمان الفلكي. أما الحد الأدنى من التماسك فأرض تستند إلى مركز، وتاريخ يستند إلى أصل. ولا يحتاج الكون إلى زمر حية ليستمر في وجوده، أما الزمر البشرية فتحتاج إلى معالم كونية لتستمر في كينونتها. والوسائل الكفيلة بادراك المعنى هي الوسائل الكفيلة باستمرار البقاء. والسؤال العام الذي تطرحه الانتروبولوجيات السياسية هو: بأي شرط يمكن استمرار بقاء الجماعات؟ وهو سؤال سريعاً ما يحملنا إلى مضمار انثروبولوجية دينية. ولا يوضع «العملي» في مقابل «الديني» - كما كان ماركس يرى - لأن اسرار الدين تترجم أسرار الممارسة البشرية. وإذا تحولت هذه الأخيرة إلى اختبار لمجرى الأمور، وبشكل خاص لمجرى الأفكار، أمكن بالفعل، وفي الغاية النهائية، اتخاذها عذراً للكسل النظري، ولفضالته: اعاقة التقدم وانتشار المعرفة. وإذا كانت الممارسة تمثل (كما هي الحال في «الاطروحات عن «فيورباخ») «الحل العقلاني لكل الأسرار التي تنحرف بالنظرية نحو التصوف» فإنه ليس في الإمكان التصرف وكأن الحل الملتمس باستمرار ليس بحد ذاته إشكالياً بدرجة عالية، إلا في حال الانتقال بالسر إلى حله العمومي عن طريق تصوف عكسي.

وإليكم في كلمات قليلة النتائج العامة التي ما لبثت أن اكرهت على الوصول إليها.

إن العلاقات السياسية الأساسية لا تفسر بنفسها، ولا بالأشكال الجلية التي تتخذها، ولكنها لا تفسر كذلك بالظروف المادية للحياة. ولا يقتصر الأمر على أنها لا تختصر إلى مجرد عكس لقاعدة اقتصادية، بل يتعداه إلى أنه لا يمكن استنباطها منها لا من قريب ولا من بعيد. وبعبارة أخرى، ليست السياسة «اقتصاداً مركّزاً» (لينين). وتشهد ملاحظة المجتمعات الحديثة بأن بنى السلوك السياسي لا يغيرها تغييراً جذرياً تبدل نهج الانتاج، وبأنها مستقلة عن درجة نمو القوى المنتجة. وتُفرض هذه البنى على المجتمعات رغماً عنها، وعند الاقتضاء «ضد» ها، لا بوصفها استبهامات بل طرق سلوك. والاختبار «الاشتراكي»، على الرغم من ايجازه التاريخي، مقنع في هذا الصدد. وقد حققت «الاشتراكية الموجودة في الواقع» عند تطبيقها جميع ما كانت نظريتها تحظره عليها، بل حتى ما كانت تفترض أنه مستحيل. وعادت تسوق إلى كل مكان وفي كل حين، وان على درجات متفاوتة، أشكال الوجود الاجتماعي الدينيةالتي كان مفروضاً أن تكون علاقات الانتاج الجديدة قد استبعدت تكرّرها. وهذا هو البرهان الواضح على أن في أصل الواقع الاجتماعي بوصفه كذلك «قوة» غير خاضعة للمراقبة، قوة لا عقلانية في الظاهر، تبطل قواعد المنطق وتطلّعات المناهج. وهذه القوة التي تستعصي نتائجها على خطط الأفراد وإرادتهم القاطعة، أما إنها توارثها الدراسة التقليدية للمؤسسات السياسية، وإما أنها ينظر إليها حين تدخل في الحسبان، على أنها إلى حدٍ ما رُقية صوفية تدفع «علماء السياسة» للهجرة «إلى أرض العجائب». وعندها يذكّر بـ «الجزء الحُلمي»، «الجزء السحري»، «الجزء الزائـف المظهر» بوصفه راسباً مثبّطاً لا يمكن التغلب عليه. وهذا معناه اغفال اعطاء الفكر نصيبه، وأن العالم إذا كان قابلاً للوصف محلياً فهو كذلك على جميع الصعد ومن جميع النواحي. ولا يرخّص لأحد بنقل ما في فن من الفنون من تعثر وعجز إلى موضوعه؛ ولا بتحويل تحديد مؤقت ووقائعي للمعرفة إلى عقبة كؤود في طريق استقائها. وفي علم السياسة الرسمي، وهو آخر علم من العلوم الباحثة في الأمور الخفية معترف بمنفعته العامة وملقّن في مؤسسات الدولة، نجد كل عام جماعة من ادعياء المعرفة يصرحون بعدم قابلية الوقائع التي يعجزون عن تفسيرها للتفسير، وكأن الواقع هو المذنب لا تفسيراتهم. وإذا كان لا ينكر أن «اخفاق العلم أمام السياسة صريح وواضح[٥١]»، فلا يستنتج من ذلك أن السياسة بطبيعتها عصية على البحث العقلاني، بل يستنتج أنه قد يكون للبحث مصلحة كبرى في اتخاذ أدوات أخرى، بعدماتكشّف ان علم السياسة الكلاسيكي الذي تتبناه الأنظمة والمؤسسات عاجز حيال المنطق الداخلي للأمر السياسي بقدر ما كان علم النفس القديم الباحث في ملكات النفس عاجزاً إزاء واقع الحياة النفسانية.

ولا يشكل الوعي جوهر حياة الأفراد النفسانية بأكثر مما تشكل المؤسسات والتمثيلات السياسية جوهر الحياة السياسية للجماعات. وليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم السياسي، وانما وجودهم الاجتماعي الذي يحدد هذا الوعي هو الخاضع بالذات لنظام منطقي من العلاقات المادية الاكراهية. ويدوم وجود هذا الأخير عبر مختلف الاشكال المؤسسية أو القانونية أو الفلسفية المتعلقة بكل نمط من انماط البنية الاقتصادية التحتية، لأنه من طبيعة غير طبيعتها. ولا ينتج الناس هذه العلاقات باتحادهم «طوعاً» بعضهم وبعض، بل تنتجهم هذه العلاقات التي تتناسل داخلها اتحاداتهم. وتملك الجماعات البشرية المنظمة، كالأفراد تماماً وإن بطريقة أخرى، لاوعياً من نوع خاص ابرز اعراضه الديانات وبدائلها الايديولوجية، ولسوف ندعوه «اللاوعي السياسي». ولا يصدر هذا اللاوعي عن طبيعة سيكولوجية قاعدتها التمثيلات المفصّلة على أنموذج واحد، ولا هو صادر، بدرجة أقل، عن طبيعة روحانية أو مُساريّة (على الرغم من تشابه غير موفق في التسمية مع اللاوعي الجماعي الذي قال به «جونغ»). وهو غير محدد بالأشكال الرمزية الفضفاضة بل باشكال ثابتة من التظيم المادي ليست الأشكال الأولى سوى نسختها المكزوزة أو بصمتها. ودراسة هذا اللاوعي السياسي، أو علم الأحلام الاجتماعية إذا شئت، ليست إذن من اختصاص المضار الذي تجول فيه علوم الروح، بل من اختصاص المضار الذي تجول فيه علوم الطبيعة (الذي يشمل الأول بالطبع). وهي تفترض في جميع الأحوال انقلاباً في الرؤية النظرية، أو انعكاساً في مراكز الفائدة يجعل من المترسّب عنصراً مكوّناً ومن اللاعقلاني عقلانياً، على التوالي والواحد عن طريق الآخر.

وتبدو الأديان والايديولوجيات وكأنها في نهاية المطاف ممارسات تنظيمية (لا تمثيلية ولا رمزية). ويمكن في منحى أول معالجة مواد البناء الايديولوجية الدينية بوصفها مادة بناء حُلُمي لجردة قاموسية بالموضوعات. وقد يكون في وسع دراسة للموضوعات من هذا النوع أن تفترض الحصرية رأساً (أو تعداداً كاملاً للموضوعات، وهي ليست لا محدودة)، في الحدود التي يدور فيها نحوُ الجماعة حول نواة منطقية مستقرّة مطابقة لخطيطات تنظيمية فطرية تتكفل بالاحاطة (على غرار تصورات «العقل» المطلق الاستعلائية) بالتعددية اللانهائية للأحداث الاجتماعية، هذه التعددية التي ستتولى حقب التاريخ المتعاقبة أمر «استيعابها». وعندها قد تصبح شروط تكوين المجاميع البشرية واستقرارها (هذه المجاميع التي تشكل دراستها الموضوع الخاص بالنظرية السياسية) مسلحة بتماسك شكلي قابل للوصف، قابل للغرز عن طريق الفكر، بالرغم من أن لها، أو بالحري لأن لها، باعتبارها أجزاء لا تتجزأ من المنطق الخاص بكل ما هو حيّ، قاعدة عضوية مادية.

وإذا لم تُنقض هذه الطروح نجم عن ذلك أنه ليس للاوعي الجماعة من تاريخ بأكثر مما للفرد؛ أو، بعبارة أخرى، أن جوهر تاريخ البشرية السياسي ليس تاريخياً. ولقد انتهت الانثروبولوجية الثقافية إلى التسليم بأن الناس قد «فكروا» جيداً على الدوام. فلنسلم في القوت الحاضر بأن الناس قد «عملوا» جيداً على الدوام- أو سيئاً لا همّ. (وهذا ما تبدو فيه الاستعارة العيادية غير مطابقة، أو طوباوية: يمكن فك رموز التكوينات الايديولوجية كما لو كانت اعراضاً، ولكنها اعراض تتمتع بطبيعية ليس لمفهوم الشفاء فيها من معنى قابل للتحديد). وقد يكون من الواجب على هذا أن يُميّز في تاريخ البشر بين درجتين زمنيتين على الأقل، درجتين مطابقتين لنظامين منطقيين متميّزين: نظام علاقة الإنسان بالأشياء، ونظام علاقة الإنسان بالإنسان. وغني عن البيان أن تداخلهما أمر واقع، إذ الهدف الدائم لعلاقة الإنسان بالإنسان هو بعض الأشياء، وأن علاقة الإنسان بالأشياء تتم على الدوام عبر إنسان آخر: تمثل هذه الوساطة المتبادلة المتجددة بشكل لانهائي مكوكاً في منوال الصراعات الاجتماعية. ولكن لا يمكن فهم الاتحاد الذي لا مفرّ منه بين النظامين دون القيام مسبقاً بتمييز تصنيفي بين نمطين للوجود. فعلاقة الإنسان بالأشياء خاضعة لتاريخ متحرك، وعلاقة الإنسان بالإنسان غير متحوّلة، بل هي خاضعة لنظام كالنظام الذي تخضع له فصائل الحيوان. ولهذا فإن العلاقة الأولى من طراز جمعي ومنفتح («التقدم العلمي والتقني») والأخرى من طراز تكراري ومحدود («فأفآت التاريخ»).

ولا نزال نؤدي غرامة الكبوة البروميثيوسية[٥٢]، والانزعاج الذي صادفه «بروتاغوراس»[٥٣] للمرة الأولى والأخيرة في مغامرته الافتتاحية منذ خمسة وعشرين قرناً[٥٤]. فما أن اكتشف بروميثيوس، في اللحظة الأخيرة، من بين كل الحيوانات الأخرى التي سبق لـ «ابيميثيوس»[٥٥] أن جهزها بشكل متناغم، «الإنسان العاري، الحافي، الخالي من كل ستر، الأعزل من كل سلاح»، عشية اليوم «الذي كان ينبغي أن يخرج فيه الإنسان من الأرض ليتراءى في النور»، حتى هرع متفجعاً طائفاً بالآلهة بحثاً عن مَلَكة أو اثنتين لمساعدته على الخطف. وقد أراد أول الأمر أن يستأثر بسرّ «الفن السياسي الذي يعتبر فن الحرب جزءاً منه»، لكنه اضطر للعدول عن ذلك لأن السر كان تحت حراسة مشددة داخل حصن سيد الآلهة ذي الأبواب المزودة بالحرس العتاة. وإذ لم يسعفه الحظ انثنى إلى محترف «هيفايستوس»[٥٦] و«اثينا»[٥٧] الذي تمكن

من النفوذ إليه دون أن يلحظه أحد. وكانت الصورة الورعة التي صورت بها روح الغزو البروميثيوسية، والتي انتشى بها قرننا التاسع عشر، قد اهملت هذا التفصيل: تظهر سرقة النار في الأصل الخرافي وكأنها كل ما تبقى؛ كما يظهر «بروميثيوس» وكأنه بطل غامض لم يحقق سوى نصف نجاح. ومذّاك صار الناس التقنيون، وقد غدوا يملكون مبدأ الفنون النفعية، في حال تسمح لهم بالبقاء، لكنهم لم يكن في وسعهم العيش الا مشتتين غارقين في التعاسة. وما أن «سعوا إلى التجمّع وإنشاء المدن لحماية أنفسهم- كما يلاحظ «بروتاغوراس»- حتى آذى بعضهم بعضاً لفقدانهم الفن السياسي؛ الأمر الذي أدى بهم إلى التشتت والهلكة من جديد». وإذ رأى «زفس» ذلك رق لهم وأرسل إلى الأرض «هيرمس» المتعدد الحرف متوسلاً إياه ليحمل إلى الناس الحشمة والعدل دواءين ملطفين لنقص لا سبيل إلى شفائه. وانقذت البشرية من الخمود البيولوجي، لكن «زفس» كان قد احتفظ في سره بالسياسة، أو فن التعايش دون أن يضر بعض ببعض. وكل شيء متضمَّن في هذه الخرافة التي تأخذ بخناقنا.

كل شيء- وقبل كل شيء حاضرنا وأحلامه وخيباته. فلقد تخلّى «زفس» عن مكانه، لكن الخلط الفئوي بين المُلكين لا يفتأ يفسد حساباتنا ويتعهد خيبة املنا مهدهداً إيانا بآيات رجاء لا مبدأ لها. وان كت «قصة بروميثيوس الحقيقية» ليؤبّد سراب «الأزمنة الحديثة» التي تنتظرنا هناك، وراء أبواب المستقبل، فيما مفاتيح «المملكة» في عهدة المهندس الأميركي تارة، والمفوّض السوفياتي طوراً- من غير أن ننسى جميع الذين يرتدون البرنس الأبيض فوق السترة الجلدية. وإنها لسذاجة تكنوقراطية: الظن بأن متابعة التقدم التقني ونشره (بالأمس سكك الحديد، واليوم الأدمغة الالكترونية المتناهية الصغر) يحملان معها حل المعضلة السياسية. وإنها لسذاجة علمية: الظن- والسبب ان العلم من طبيعته التقدم- بأن علم المجتمع، وهو يخطو إلى الأمام، سيجعل المجتمع نفسه يتقدم. أي أنه سيحقق داخل الموضوع المطلوب معرفته وجود المزايا الخاصة بمسار معرفته. وقد أضاف بعض المتشبثين بالـ «مفهوم العلمي للتاريخ» إلى هذا الخطأ في الطريقة تعمياً للأهداف بإسنادهم خلسة إلى «الرهان» السياسي خصائص «الهدف» المادي. وها نحن ألفنا: «الحرية: إنها علم وسائل الاتصال زائداً اختياراً حراً للكفايات». وإنه ليذكر أيضاً، وبدوافع بديهية، ما إذا كانت روسيا بالأمس قد دغدغت أحلام الغرب، بأكثر مما تفعل اليابان اليوم، بشعار: «الاشتراكية، إنها الكهربة زائدة نفوذ السوفيات». ولم تقدم عملية الجمع العجائبية هذه النتائج المرجوّة، مع انها كانت تبدو بسيطة. وبامعان النظر فيها يتبين أن العبارة لم تكن معقدة وحسب، بل كانت كذلك عرجاء بشكل قاطع، لأن «زائد» ها- وهو لفظ- محور- كان يضع داخل علاقة تبادلية مجاميع ليست من طبيعة واحدة. وكما أنه لا يجمع مُثمَّن السطوح وحصان الركوب، لأنها يؤلفان مجموعاً لاغياً بل لا يؤلفان مجموعاً على الاطلاق، فإنه لا ينتظر شيء من جمع ثلاثة ميغاوتات واستيهام، أو من جمع آلية تقنية ولعبة منطقية خاصة بالعلاقات. وربما كانت الصيغة اللينينية قد أمّلت وهي ترصف مجموعاً معلوماً وقابلاً بالتالي للاخضاع- انتاج الطاقة المادية- إلى جانب مجموع مجهول وغير مخضَع في الواقع- ممارسة علاقات الهيمنة- أن تخضع الثاني للأول، وكأنها تطرد بالرُقى صفاقة أجهزة السلطة. لكنْ السحر لم يفعل فعله كما هو معلوم. وإذا كانت الكهرباء قد وصَلت فإن البحث عن نفوذ السوفيات ما يزال جارياً. وليس الذنب ذنب السوفيات ولا ذنب الكهرباء، وإنما هو قبل كل شيء ذنب عملية جمع غير منطقية.

إن التمييز المبدئي بين فضاءي المواجهة هذين، والأول منها متحرك والآخر ثابت، يقاطع ويؤسس التمييز الواقعي الذي يضع الموضوع التقني بمقابل الموضوع الجمالي أو الخرافي أو الديني، أي نوعين من أنواع المحفوظات. فالمحراث السومري لا يهم سوى علماء الآثار لأنه لا يفيدنا بشيء. أما ملحمة «جيلقامش»[٥٨] فيمكن أن تلفت أياً كان، لأن مادتها الخرافية تخترقنا من داخل. ويرتقي الإنسان بالأداة، ولكنه يجمد بالكلام. وهو يتجدد بوساطة يده ويكرر ذاته بوساطة وجهه. ومنتجاته المادية- من أدوات وآلات ومقاود- تفتح أمامه بلا انقطاع عالماً جديداً، ومنتجاته الرمزية تحبسه بلا انقطاع كذلك داخل ذاته. ولكن النقب ما يلبث أن ينطبق، وينفتح السياج لجميع الناس. وبانقلاب مفاجئ غير مقعول يبطل التجدد ويبدو التكرار دائم الجدّة. ويّمحي نمو التقنيات تدريجياً وهو يتقدم على امتداد الشعاع الموجِّه الذي تمّ تدوينه، بينما تجعل المراوحة الرمزية كل حقبة تواجه ذاتها وهي تواجه جميع الحقب الأخرى في زمن الحضارة اللولبي. ولا تزال الأدوات التي كانت مستعملة في القرن الاتيني الخامس قبل ميلاد المسيح غريبة عنا لأننا ننتج من القمح في الهكتار الواحد عشرة اضعاف ما كان ينتجه مستأمَنو اثينا، لكن نصوص القرن الخامس لا تنفك تثير تساؤلاتنا لأنه ما من فيلسوف يستطيع ان يزعم اليوم أنه يفكر خيراً مما فكر افلاطون. ولا في وسع زعيم سياسي ذي قدرة متوسطة مهدّدة في استقلالها أن يدعي أنه سيفعل خيراً مما فعل «ديموستين» لاحباط محاولة امبراطورية مجاورة بسط هيمنتها. ولا أي نحّات أن يقول إنه خير من «فيدياس». ولسوف يكون النمط

الأول من مواد البناء في أحسن الأحوال «وثائقياً»، والنمط الثاني «نموذجياً». وسيكون هناك من جهة تجميع آثار، ومن الأخرى أوراق ثبوتية تلقى في ملفات هي قيد الاعداد إلى ما لا نهاية. وليسمح لنا بأن نرى في هذا التقاطع الجدلي لزمني البشرية الاجتماعية برهاناً آخر على انها تلعب لعبةَ الخاسرُ فيها هو الرابح. والإنسان التقني- المخترع والمكتشف والعامل- ينتمي إلى طراز الفاتحين، ونسخته الثانية، أناه الآخر وعدوه الحميم- الكاهن والمناضل والمواطن- يحسّ في باطنه احساس المغلوب. وانتصارات الإنسان الوحيدة هي تلك التي يحققها على الأشياء، ولكنها لا تُحدِث «احساساً». فقطع ألف كيلومتر في الساعة لا خمسة ولا عشرين، أي استبدال السير على القدمين أو الحصان بالانتقال بالطائرة، لم يجلب إلى «المدينة- الدولة» قدراً أكبر من العدل، ولا قدراً أقل من الاكراه في العلاقات الاجتماعية. لقد نشأ عن ذلك تغير في فهمنا للأشياء، لا في «معنى الحياة». والمعارك الحاسمة التي تحرك بشكل منقطع النظير أكثر ما تحرك اهواءنا واحلامنا ومصالحنا هي تلك التي يخوضها الإنسان في كل حقبة، «من أجل سلام الناس وسعادتهم وحريتهم»، ولكنها معارك يمكن بالتحديد اثبات اخفاقها سلفاً (الأمر الذي لا يفقدها شيئاً، «بل على العكس»، من فائدتها ولا من ضرورة خوضها). فالعالِم مرصود لحل المعضلات (أو لكي يطرح بشكل علمي بعض المسائل التي لا حلّ لها، كما يحدث في الفيزياء أو الرياضيات). وأما الذي يجمع في جامعة واحدة رجل الدولة والفنان والفيلسوف فهو أن نشاطاتهم إشكالية بصورة أساسية. وفي نظر الوضع البشري أن خصيصة الفنان هي، كما قال تشيخوف ذات يوم، ان يطرح اسئلة دون أن يتدخل للرد عليها؛ وخصيصة الفيلسوف أن يأتي بحلول لمعضلات لا تتقبل حلاً علمياً؛ وخصيصة المسؤول السياسي أن يضع في الورشة مشاريع غير قابلة للتحقيق. وبهذا المعنى يتحدد مضمار السياسة كما يتحدد مضمار الاحراجات التطبيقية. وإذا كانت الفلسفة علم المعضلات المحلولة، حسب كلمة لـ «برونشفيك»، فإن الفلسفة السياسية ستتميز بدورها عن فلسفة العلوم بأنها «علم المعضلات التي لا حلّ لها». ولن تجوز الصخرة الذروة.[٥٩] فالواقع البشري يولد من تقاطع خرافتين: «بروميثيوس» و«سيزيف». ولكننا سنظل على الدوام معاصرين لـ «سيزيف»، وقد يكون في هذا أعظم انتقام له من «بروميثيوس».

لقد تساءل ماركس في مؤلفه «مقدمة عامة لنقد الاقتصاد السياسي» (١٨٥٩) كيف وسع المنتجات الفنية المنتسبة إلى الماضي أن تبقى قائمة بعد زوال قاعدتها المادية. وها هو يلاحظ أن «ليست الصعوبة في أن نفهم أن الفن الاغريقي والملحمة مرتبطان ببعض اشكال النمو الاجتماعي. بل الصعوبة هي هذه: إنهما ما زالا يوفران لنا متعة فنية، ويشكلان في بعض الأحوال قاعدة قياسية، وهما في نظرنا نموذج لا يمكن بلوغه.» لقد كشف مفكر التاريخ الاقتصادي عن الصعوبة، ولكنه لم يظهرها قط؛ وكذلك كان سعيه أقل لحلها، إلا بشكل يبعث كثيراً على السخرية بسذاجته التطورية، شكل حنين رقيق من الممكن أن توحي إلينا به نحن البالغين «الطفولة التاريخية للبشرية». «أطفال أسوياء، هذا ما كانه الاغريق». والذي كتبه ماركس في هوامش نظريته، في المناطق الحدودية التي ليست بذات أهمية كبيرة في تاريخ الفن، هو في الواقع مسألة حاسمة مشتركة جذرياً بين الظواهر السياسية والنفسانية والجمالية. وإذ لم يكن في وسعه، بمقتضى افتراضاته المسبقة، ان يعترف حيال هذه «العجائبية» بمبدأ قاعدة أخرى، أو بأمارة حكم «آخر» (منطقي ومتسلسل تاريخياً)، فإنه لم يكن أمامه من خيار سوى أن يرى فيها مجرد استثناء لقاعدته، فضلاً عن أنه غير قابل للتفسير. وإن الاغراء لكبير في أن تنقلب مقولات ماركس عليه- للراشد راشد ونصف- وأن يرد عليه بأن البشرية في عهده، عهد القاطرة البخارية والبندقية ذات الطلقة الواحدة، لم تكن بعد إلا في مراهقتها التاريخية، وأنها كانت تعاني آنذاك ازمة طرافتها الشابة باحثة في سكرة انتاجية وتقنية عن ضمان لتحرر سياسي. ولقد نضجنا مذّاك بما يكفي لمعرفة أن البشرية قد ولدت في كثير من المجالات راشدة، مالكة تماماً لوسائلها السياسية والشهوية والخرافية. وها نحن أولاء إذن «كبار» بما يكفي لاظهار اعترافنا بالجميل لجميع أشكال التعبير النظري الصادرة عن المجتمعات الصناعية في مراهقتها، والماركسية في طليعة تلك الأشكال. وقد يكون في وسعنا أن نقول بدورنا عن المراهقين ذوي المواهب الخارقة الذين عاشوا من قبل ما كان يؤكده ماركس عن الروائع الملحمية أيام الاغريق والرومان: «إن ما نصادفه من سحر في أعمالهم الفلسفية لا يتعارض والتقدم البسيط للمجتمع الذي ازدهرت فيه. إنه بالحري نتيجته؛ ولا يفارق الخاطر أن حالة الفجاجة التي ولدت فيها هذه الفلسفة، بل الحالة الوحيدة التي كان من الممكن أن تولد فيها، ولّت إلى غير رجعة».[٦٠]

وقد اكتشف البحث عن اشكال الحياة كما تمثلها المتحجرات الحيوانية والنباتية على مر العصور بحثاً صحيحاً يعير اهتماماً خاصاً للواقع التقني، وبالتالي لظواهر الانقطاع، اكتشف في «الهيئة الاجتماعية»، بدءاً بالخطوة الأولى للتخزين الزراعي الذي يستتبع تحضر الجماعة وانتهاء بعملية تجميل الكوكب المعاصرة، وجوداً دائماً لنص اقليمي ووظيفي اختلف حجمه ومداه طبعاً، دون أن تختلف العلاقات بين مكوناته

من النبف، ذلكم هو: «متحضّر - بربري - متوحش» (كما يقول اليّروا - غوران). ولنقل إنه نموذج «الاحتياطي الصغير للدفع» مقتطعاً من كتلة غذائية احتياطية (بربري - متوحش) ومصروفاً نحو مركز تحويل (متحضّر). ولسوف يقول مؤرخو التاريخ إنه ثبات شكلي صرف؛ ويضيف مؤرخو العلم إنه فرضية غير قابلة للإثبات. ولكن ما لا يقدر هؤلاء ولا أولئك مع ذلك أن يعارضوه هو المسلّمة التي يتميز النشاط السياسي من النشاط العلمي والتقني تبعاً لها بأنه لا يعرف التجديد ولا الاكتشاف. ومع هذا تستمر المسيرة مردّدة بحق أنه «ليس هناك دروس في التاريخ». وكل لحظة من لحظات التاريخ السياسي للمجتمعات تمثل الدرجة الصفر؛ وكل جيل يمسك بالخيط من أوله. ويردّد في الوقت نفسه أنه يبتدع - هيستريات تحقيق الذات، والهلوسات الجماعية، والفصامات الطائفية، والهذيانات الدفاعية، والأخرى التفسيرية الخ...

وكما أن المراهق يتعلم المضاجعة دون أن يعلمه إياها أحد، ولكن من دون أن يمارسها «خيراً» مما مارسها جدوده، فإن كل حقبة اجتماعية تعاود اختراع السياسة وكأنها لم تكن قط، وهي هي سياسة كل زمان، الإشكالية بصورة جوهرية. أفلا تكون هذه القربى المزدوجة بين السلطان السياسي والميثولوجيا والشبق الجنسي نابعة بالتحديد من أن زمن الخرافة وزمن غريزة الحب شريكان في البنية نفسها، بنية التكرار؟ والموسوسون بالسلطان والمهووسون بالجنس شركاء في الفتنة نفسها، فتنة العقم العقيمة. والافتقار إلى الابداع الممكن هو الذي ينقلب، في الحالين وللأسباب عينها، إلى هوس؛ وكما أن المرء يريد هنا أن «يرى»، لا بالرغم من أن ما يمكن أن يجري من جديد بين جسدي رجل وأمرأة غير الذي سبق ان جرى مائة مليون مرة منذ مائة ألف سنة لا يُرى، بل لأنه لا يُرى، فإنه يريد هناك أيضاً «تجربة حظّة»، بأي ثمن، لأن جميع الحظوظ الممكنة سبقت تجربتها في اللعبة التي تصنع قوة معينة بمقابل عدد من حالات العجز. ولكم تبدو اللعبة غير مستكملة ومنتهية في آن... وهذه الدائرة تقلق وتأسر، مفضية في لامبالاة إلى الرذيلة والفضيلة. وليس لدائرة السياسة من مستلزمات سوى شكلها الخاص، فهي تترك لكل فرد الحرية في ابتداع اتجاه الطواف ومسافة الرحلة. وتشغل حرية الفاعلين التاريخيين فضاء الريب الفاصل بين التكرار الضاحك والتكرار الباكي، أو إذا شئت بين الصورة الساخرة والمأساة. وطابع الإشكال في هذه الحرية هو أنها ليست سوى شيء واحد هي و«سخرية التاريخ». ان في وسع المرء أن يفعل عكس ما كان يريد؛ وهو متأكد من أنه يكرر، لكنه لا يعرف قط سلفاً ما الذي سيتكرر (ما إذا كان المتكرر سيكون نابليون الأول أو نابليون الثالث، دانتون أو كوسيدير، ديغول أو بولنجيه، لينين أو پول پوت، الخ...) وقد لا يكون من الأمانة الشكوى، كما كان يفعل الآخر، من أن الأموات يثقلون جداً على دماغ الأحياء - والنظر إلى «التقاليد» على أنها مؤامرة من موتى التاريخ - دون ان يُلاحظ على التو بأن الاحياء يتمتعون بملكة اختيار موتاهم المفضّلين، أو انتقاء المتآمرين الذين يرغبون في رؤيتهم يتبخترون في حاضرهم.

ولسوف يكون هذا المفهوم، شئنا أم أبينا، صدى لبعض المعالم المقامة منذ زمن طويل على امتداد طريق معرفتنا. وهو يزهو في الواقع بأنه ليس جديداً. ولو قدر له لسوء الحظ أن يكون جديداً كل الجدة لكان برمته مغلوطاً. إذ أنه منذ أن كان هناك، من سبعة آلاف سنة، أناس متحضّرون يحكمون أناساً متحضرين، وإلى جانبهم أناس آخرون يخطّون ما يخطر في بالهم عن هذه الأوضاع، فإن قانون الاعداد الكبيرة ومجرد الحسّ السليم يوحيان بأن طبيعة الظاهرة السياسية أو الدينية أو الايديولوجية سبق أن استُشعرت مرات كثيرة، بل سبق أن انكشف سرها وانجلى. فأهلاً إذن بالحسرات على ما سبقت مشاهدته، وبالإحالات المذعورة على «القدماء»، وبكتب الشعائر والطقوس: «هـذا من مأثورات "كونت"»، «دوركهايم»، «برغسون»، «لوروا - غوران»، «ميرسيا الياد»، الخ...». ولنشتطّ في التهكم: «... بوسييه»، «جوزيف دوميستر»، «موراس»... ». «السياسة» المستقاة من الكتب المقدسة. الخ... وليس التمثّل النقدي للأعمال الكبيرة الماضية مجرد تأدب بل هو تحوّط، ما دام صحيحاً أن الأمور التي تقل معرفتنا بها هي الأمور التي نكثر من ترديدها. ومثل هذه الدراسة لا يمكن إنهاؤها في نظر أي كان ووفقاً لتعريفها، وقد يكون في التصريح بسد بابها ما يفوق الصلف. ومن ناحية أخرى يصعب دائماً على المؤلف التمييز بين ما يعرف أنه استعاره وما يعتقد أنه قادر على الإتيان به. فليترك لنا مجرد الحق في أن نطمح إلى زحزحة بعض الحدود الصغيرة بين مضامير سبق تعدادها، وكذلك رسم بعض الطرق الواصلة بين مفاهيم معروفة وأخرى قد تزداد المعرفة بها أكثر فأكثر. وأما جملة الاعتراضات أو الدعابات التي لن يفلت عرض بهذا الاقتضاب من إثارتها لدى فكر مطلع اطلاعاً متوسطاً، اعتراضات سيكون ابرزها على غرار («كيف يجرؤ بعد شخص» تلقّى دروساً «أن يتكلم في السياسة بشكل عام؟ وفي الدين وكأنه مقولة فذة؟ وأن يجمع، تحت اسم «جماعة» الصالح لكل شيء، حقائق فيها من التباين نوعياً ومن عدم القابلية للاختزال ما لصفّ طويل من الناس أمام أحد المخابز، أو

لحزب سياسي، أو لدولة- أمة عصرية؟ » الخ ...) فغرض هذا الكتاب ان يجيب عليها منهجياً وبالتفصيل.

والحقيقة أن طموح هذه المحاولة ليس أقل تطرفاً من تواضعها. فالأول يتمّ في الثاني ويعبّر عن الاثنين بكلمة واحدة هي «النقد». ولأن تكون المعايير تسمح بتمييز الحقيقي من الزائف، حينما يكون النقد موجهاً إلى الشروح، أو تمييز العملاني من غير الفاعل، حينما يكون موجهاً، كما هي الحال هنا، إلى الاجراءات، فإن إقامة مبادئ التمييز بعد التفكر والروية يحدد جوهر كل نقد. وعلى هذا فإن «نقداً للفكر السياسي» ليس له من فائدة «ايجابية» أكثر مما له من فائدة سلبية: إنه يستهدف معرفة الحدود اللازمة لكل عمل سياسي. وبهذا المعنى فإن من طبيعته احباط الرغبة و«قطع الحماسة». وإذا كانت الايديولوجيات قد خلقت لتسويغ الأمل، فإن نقداً عقلانياً لمفهوم الايديولوجية سيكون من شأنه تسويغ القنوط (من الأولى). ولكن البحث عن الأسباب غريب عن اختيار الغايات كما هو غريب عن نزعات العاطفة- إنه ذو مزاج استنكافي، فهو ليس مع ولا ضد، بل خارج هذا وذاك. ولن يكون في الواقع لأي تقصّ عن شروط الإمكان (امكان المعرفة والسلوك على السواء) من نتيجة ملموسة سوى أن يقصي عن يقين بعض الإمكانات. ولسوف يتجلى (لكي يكون كلامنا على طريقة «پوپير») بالشكل الأوحد الذي هو صيغة «انك لا تستطيع». وعلى سبيل المثال: إنك لا تستطيع عقلنة خياراتك إلا ابتداء من لاعقلاني أول. إنك لا تستطيع تصور مجتمع يكون في وقت معاً صالحاً لأن يعاش فيه ومنفتحاً، أي بلا أرض. انك لا تستطيع تصور أرض بلا حدود. إنك لا تستطيع اغلاق إقليم- فكروي أو مادي، رمزي أو سياسي- دون أن تخضعه، بفعل إغلاقه وواقع هذا الاغلاق بالذات، لتشريع من خارج الإقليم. وكذلك، وبشكل أشد فظاظة، فإنك تستطيع أن تندفع في عمل دون الاعتقاد بشيء ما، ولا أن تعتقد بشيء ما دون الاعتقاد بأحد الأشخاص. وإذا طمحت إلى أن تستبدل بمجموعة من الأفكار الصحيحة «الميثولوجيا البالية» التي «تجلّى إفلاسها»، فاعلم أنك لن تستطيع نشر أفكارك «بين الجماهير» دون أن تنقلب إلى ضدها (وقبل كل شيء إلى خرافات). إنك لا تستطيع أن تأمل في أن يكون لشعار «فلنتّحد، وغداً تصبح الاشتراكية الدولية هي النوع البشري» أثر ذات يوم، لأن فكرة الجماعة الشاملة هي فكرة الدائرة بلا محيط التي تفترض داخلاً بلا خارج، أو كلاً بلا تجميع، أو حتى موقفاً بلا معارضة. وعندما تصبح الاشتراكية الدولية هي النوع البشري، يصبح البشر ارقاماً كما في دليل الهاتف. وقد يكون في الإمكان مضاعفة الإحراجات

والمناظرات التي من هذا النوع، والتي هي أجزاء من .بة هي حظريّ لا أمريّ. خطاب لا يشترط أي سلوك خاص، ولا يـ يـن نماذج ايجابية. خطاب لا يشير إلى خلقية وإنما إلى «انضباطية» سياسية بالمعنى الذي أضفاه الفيلسوف «كانط» على الكلمة: تعيين الحدود التي يتم داخلها استعمال ملكة من الملكات. وتتمفصل هذه الانضباطية على «قانون» للفكر السياسي- يراد بذلك مجموعة من المبادئ «القبْلية» في طليعتها عدم الاكتمال، تحدد للجماعات البشرية الاستخدام المشروع (الممكن) لأهليتهم للعمل والتنظّم بشكل جماعي.

ويستخدم هذا التعيين الذاتي الناجم عن تحديد نظري للممكن وغير الممكن الصيغة «النقدية» العامة. ومن الممكن تلخيصها طبيعياً بما يلي: «هاكم من جهة ما تملكون الحق في انتظاره من النشاط السياسي، ومن الجهة الأخرى ما لا تستطيعون مطالبته به، تحت طائلة خيبات متوقّعة تمام التوقّع». لكن «نقداً للفكر السياسي»- بوصفه نظام الخيبات المكفولة- يتميز من الميزان القياسي العام بخصيصتين مفاقمتين ومفارقتين تجعلان منه، بمقتضى غرضه بالذات، نقداً «منكوداً» مرتين.

١) تعترف «النقدية» الكلاسيكية بأن خصمها أللدود هو «العَقَدية» التي يضعها المذهب في مقابلها كما توضع القضية في مقابل نقيضها. فكل تقدم للعنصر الأول يفترض أن يترجم بتقهقر من الآخر. والكانطيون مغتبطون بأن الكتب المدرسية قد هزمت الفلسفات الماورائية النظرية القديمة، مستخدمة لذلك نقداً للاستعمال غير المشروع لملكة المعرفة. والپوپيريون مغتبطون اليوم بالضجة القائمة حولهم بأنه وضعوا، بوساطة معيار القابلية للتزييف، خطاً فاصلاً بين العلوم الوضعية والفلسفات الماورائية الجديدة (كالتحليل النفساني، والماركسية، الخ...) مع العلم بأن «نقداً للفكر السياسي» يقدم ما هو استثنائي، ذلك أنه لا يطمح إلى اثبات زيف العقدية بل إلى اثبات مشروعيتها كشرط لوجود التجمّعات البشرية. وإذ كان لا يخضع الأفكار المتلقاة إلى اختبارات للكشف عن صحتها بل للكشف عن واقعيتها، فإن محكّه ليس: «صحيح أم زائف؟» بل: «ممكن عملُه أم غير ممكن؟»، «ممكن تحقيقه أم غير ممكن؟». وبهذه الطريقة يقيم الوجوب الاستعلائي للوهم داخل تكوين الحقائق السياسية. ولقد أكملت النقدية الكلاسيكية مهمتها حين أثبتت الطابع المغلوط لنظام من الشروح: ان الوهم ليخلي مكانه للحقيقة متبدّداً بمجرد برهنته. وعلى العكس من ذلك فإن مهمة النقدية السياسية تتمثل في إظهار السبب الذي من أجله قد لا يكون في وسع أي

برهان على الوهن المنطقي لمختلف مناهج الاعتقاد أن يسعى إلى إنصافها. وما جيء بعد بشيء حين أُبدي أن الفلك الايديولوجي أو الديني يختلط بفلك «القضايا غير القابلة للتزييف»، بمنأى عن تكذيبات التجربة. والمشكلة هي في معرفة السبب في أن ما قد ينبغي نظرياً أن يُتوقف عن (اعتباره مشروعاً) لا يمكن أن يستمر في كونه بالواقع (موضوع انخراط). و«حقيقة» ما ليس قابلاً للتزييف هي فعاليته، أي قدرته على الدمج الفاعل بوصفه مبدأ تلاحم جماعي. وكل نظرية في التنظيم السياسي ترفض أن تكون مؤاسية ملزمة بالنظر إلى القالب التنظيمي للجماعات المستقرة على أنه قالب انضباط، بوصفه ميزة طبيعية، سابق على كل تفكير ومستقل عن الفكر. «إن «الطبيعة» تعني وجود الأشياء بوصفه محدداً بقوانين شاملة» (كانط). وكما أن هناك من قوانين الطبيعة ما هو جائز ومحتمل، فإن هناك طبيعة لما هو سياسي، ذات قوانين هي الأخرى جائزة ومحتملة ولا يمكن أن تستنبط من فكرة تمهيدية، ولا من الكائنات الحية- باعتبار فكرة الحي كامنة في الحي نفسه. وليست الطبيعة قابلة للاتهام، وليس لها أن تعتذر عن أي شيء. والطبيعة الخاصة بجماعة بشرية معينة هي التي تجعلها تكون كذلك. وهناك أنواع كثيرة من الجماعات، لكن ليس هناك طرق كثيرة تمكن الجماعة المنظمة المستقرة من الاستمرار في كينونتها. وبما أنه، في المادة السياسية وبالتحليل الأخير، «يفعل المرء ما في وسعه فعله لا ما يريد»، فإن نقد الفكر السياسي سوف يجد نفسه أمام موضوعه في وضع العالم الجيولوجي أمام ثنية من ثنايا القشرة الأرضية. ومن السائغ في هذا الصدد التأكيد بأن «العقدية» في فرنسا تبلغ الأوج على ارتفاع اربعة آلاف وثمانمائة وسبعة امتار فوق سطح البحر، ما دام ليس في مكنة أحد أن يبرر بالعقل وجود الجبل الأبيض (مونبلان). «هكذا خلقت»، بهذا أجاب في حذر الفيلسوف الماورائي وهو يقف عند سفوح جبال الألب حين سئل عما ينبغي أن يجول في البال عن المشهد.

وفي المادة الاجتماعية تصب العقلانية النقدية من منحدر طبيعي في نسبية من العيار الجيد، تتفاوت في درجة هجوميتها أو خضوعها بحسب الظروف والأمزجة. فالمدرسة الوضعية الانغلوسكسونية مثلاً تتباهى بطمانة طموحات «الأديان الأرضية» التي انتشرت في القرن العشرين بمواجهتها بمشروع تنظيم اصلاحي في حذر، لاأدريّ في تبصّر. وإذا كنا والحالة هذه قد اكتشفنا أن «الحجة بالقوة» هي شرط الإمكان «القبْلي» لأدنى ممارسة للسلطة، وأن الإطلاق يعمّ المجتمعات من قِبَل انحصارها ولا كمالها[61] بالذات، وأن نهائيتها الخاصة تنذرها لبحث لا نهاية له عن لانهائي مؤسس؛ وباختصار، فلأن تكون طبيعة الأمر السياسي، نهائياً، وبوصفها كذلك، «دينية» فذلك يعني أنه ستكون لنا حينئذٍ اسبابنا بأن نرى في رفض الطوباوية منتهى الطوباوية، وفي الحكمة الثابتة لشكٍ «وضعي» أحمق الحماقات. ولنقل ذلك دفعة واحدة: ان فكرة استبدال «الرؤى الشاملة للعالم» بمجرد «تقنية اجتماعية» (بوبير) قاعدتها «ترقيع الاجزاء» و«الاصلاحات المحدودة» لتجمد في الاستجابة لمطالب القلب والعقل، لكنها لا تصمد أمام الامتحان الموضوعي لوقائع التاريخ ومنطق الأمر الاجتماعي. وهذا مؤسف، ولكن لا يمكن تذليله. وفي الإمكان الجار بأن يكذّب مجرى الأمور في كل لحظة نصائح الحكماء والخبراء النيّرة، لكن لا يمكن أن ينسب إلى «الخبيث»، أو إلى خبث الايديولوجيات المحلية أو «المستوردة»، أو حتى إلى المرض العقلي للقادة المنحرفين (انبياء وزعماء)، عناد «المتعصبين» في جميع اقطار المعمورة، المتصامّين عن «صوت العقل»، كما عن ابسط الحسابات حول التكاليف الاجتماعية المقارنة للتعصب والتسامح. وربما حان الوقت للتساؤل عما إذا كان عناد بمثل هذا الشؤم لا يستجيب لنوع من قانون موضوعي؛ أو عمن هم أشد حمقاً، المتصامّون أم ملقّنو الدروس (الخلقية أو النظرية أو من كلا النوعين).

ولسوف يوجد دائماً في هذه الظروف، وما دامت العوالم الدينية تتميز بملامح جهنمية أكثر مما تتميز بملامح فردوسية، سليل كاهن بروتستانتي لينوح: «الجحيم هو السياسة». وهذا تبجّح قد يكون من الملائم تلطيفه على الفور، مع احتمال تعطيل تأثير بالغ في المستمعين، بالقول: «لم يكن الأمر إذن إلا هذا». وليست «الجحيم» كل الواقع البشري، وإنما هو جزء منه ثابت نسبياً، لأن «السياسة ليست كل شيء». فالفرضية الهندسية مثلاً أو اللحن الموسيقي يفلتان مباشرة من تشريع الجماعة؛ وإذا كانت شروط ممارستها قادرة على ربطها بالنشاط السياسي، من جهة ما، فإن النشاط الفني والعلمي يعترض على ذلك في مبادئه ونتائجه. فهناك موضوعات فكروية وعاطفية ليست رهانات على النفوذ، (أي على الحيازة)، كما أن هناك علاقات بشرية خارج الجماعة ليست علاقات قوى ولا هيمنة. وعلى هذا ينبغي أن تفضي قائمة حسابية إجمالية بالخسائر والأرباح- والكلام ما يزال بعبارة خرافية- الواحدة في مقابل الأخرى، إلى «مطهر»، وهي فرضية وسط ذات احتمال إحصائي قوي، وإن كانت ذات قيمة درامية ضعيفة. بوصف هذه الأخيرة تابعة، كما يعرف كل إنسان، لدرجة الضخامة التي يختارها المراقب: كلما ضؤلت الدرجة، حتى لتبلغ العنصر الفردي، زادت القيمة الدرامية. «قتيل واحد، إنها لمأساة. وألف قتيل مجرد إحصاء».

وإني لآمل أن يكون قد فُهم أن الاستعارات الدينية تبدو لنا غريبة تماماً عن وصف «روس» للظواهر الدينية.

٢) وتنبثق المفارقة الثانية مباشرة من الأولى. فلفظ «نقد» الفلسفي يعني، بعكس ما هو دارج في الاستعمال، الارتياب في تفاؤل أساسي ونهائي بأقل مما يعني الرغبة المؤكدة فيه. وإنه لمن المثير أن ترى صيغة «أَطِعْ» القديمة تستبدل بصيغة «قُدْ» الجديدة. ولكن ما الوعد الذي يمكن أن تكون حبلى به عملية التحليل التي لا نقود بحسبها من موقع القيادة؟ والإنسان ليس شمس نظامه السياسي المحتجبة، بل هو كوكب دائر في فلك هذا النظام. وإنه لنقد مطأطأ الرأس ذلك الذي لا يصدق بصحة الرغد الذي ينعم به المنظم الأكبر المتربع في شرفته، السيد القديم للعبة العالم (أو «سيد ألعاب الكلام») موزعاً الجوائز من خارج، من الأعلى إلى الأدنى، بدءاً بما تسمح به قواعد اللعبة وانتهاء بما يتجاوز تلك القواعد. هذا مع العلم بأننا لسنا الأسياد في اللعبة السياسية- بل نحن بالحري الدمى التي تحلم أنها من ضمن اللاعبين. وبشكل فلسفي تطلق المثالية النقدية صيحة نصر سياسي: «والآن جاء دورنا، نحن مشرّعي الطبيعة، للعب!» ولقد سبق أن كنا ضامني الواقعي والحقيقي، لكننا لم نكن ندري ذلك: نقدية كانطية. ولسوف نكون أولئك الضامنين غداً، حالما نعرف كيف نصوغ عباراتنا بشكل صحيح: وضعية منطقية. وإنه لتحرير بالكتابة وصيحة لمّ الشعث. ولقد عاشت كل من هذه الحركات النقدية بشكل تلقائي داخل ذاتها، بوصفها ثورة وآية على حرب استرداد مع «الكفرة بالمعرفة». وعلى العكس من هذا فإن طرح النقدية المادية يتمثل في أن تسجل سياسياً نهاية انتصارية فلسفية. ولا يطمح نقد للفكر السياسي إلى استعادة شيء من أجل فكرة انتزعت منها حقوقها بشكل مفرط، لأنه يرى في الممارسة السياسية ممارسة بلا محتوى، نقبل عليها لاتخاذ مكان ودور، بعد أن جعلت منا رعايا لها. وكذلك فإن الاحتمال اضعف في أن يجعل ما يخصه بالذات يمثل أمام تشريع سماوي أياً كان- «محكمة النظرية» أو «الفكرة الاستعلائية». أفيكون الأمر ثورة مضادة داخل الثورة الكوبرنيكية أم تقهقراً في تطور فيلسوف من البرجوازية الصغيرة؟ وما همّ أن يُسخر من ذلك أو يُتجاهل أو يُندّد به. فالتجديد الوحيد الذي نرغب في الزهو به يتمثل هنا في تطبيق متصلّب للمبدأ المادي القائل بأولية الممارسة على النظرية في حقل النظرية السياسية ذاتها- بما في ذلك المادية التاريخية. وليس هدف المحاولة، بوصفها «أكثر من مادية» بهذا المعنى، تقويم مجرى الأشياء النظرية بإسناد النفوذ إلى نظرية حقيقية في الأمر السياسي اكتشفت بعد لأي، وإنما على العكس من ذلك تأخير كل نظرية سياسية ماضية إلى المحل الثاني والهروع إلى كنف تشريع الممارسات القائمة، المعادة إلى منطقها الخاص، المُصلحة داخل حقوقها الخاصة. ولا يطلب أن يتوافق الواقع وقراراتنا، بل أن تتوافق قراراتنا والواقع- وأن تتوافق الازدهارات النظرية وواقع انحطاطها إلى «ايديولوجيات». ولقد كان الطعن في القيمة العلمية للأيديولوجيات أمراً- تمّ تحقيقه. وسيكون إثبات الصلاح السياسي للايديولوجيات الخالية من القيمة العلمية إثباتاً علمياً أمراً آخر- ينتظر التحقيق. وبعد، فبما ينبئنا الواقع؟ بهذا: كما أن «الشكوى» من «الدولة» لم تمنع قط وجودها، بله تقويّها (بالتكاثر في الشرق والانتقال من وضع إلى آخر في الغرب)، فإن «كشف الأقنعة» عن الكنائس والمحافل الدينية واللاهوتيات اللاّبدة تحت أشد اشكال الحياة الجماعية العصرية دنساً، من دون التساؤل عن سبب وجود «كنيسة» ومحافل دينية ولاهوتيات، وعمّا إذا كان في الإمكان ألا توجد- لم ينتج عنه بعدُ علمنة المعاصرة بل نتج استبدال رعوية بأخرى (الأب «فويتار» بالأب نويل، أو الأب «أوبو» بقداسة البابا).

ولا يزال الوقت مبكراً جداً لمعرفة ما إذا كان العلم السياسي سيشبه، حين يرى النور، الطب أكثر مما سيشبه الفلك (أي إذا كان سيشبه تقنية واقفة على مفترق عدة علوم، أو علماً واقفاً على مفترق عدة تقنيات). فمن المعلوم أن لغة السياسة مدينة في كثير من الفاظها، منذ أيام الإغريق، إلى الفن الطبي، وأن أشد مسؤولينا السياسيين بروداً وضعياً لم يزدروا يوماً ما للمتطبّبين من هالة. لكن مزية الأطباء شفاء المريض، ومزية المسؤولين السياسيين تتمثل بالحري في تدبّر المرض. وليس مؤكداً أن في مكنتهم أن يفعلوا غير ذلك. وأن الاستيهام بمجتمع معافى، بمعزل عن الأزمات والحميات، يرجّع صدى فكرة مجتمع بلا موظفين سياسيين متخصصين، تتلف فيه «الدولة» تلقائياً، ويعود فيه الرؤساء إلى محراثهم بمحض اختيارهم. ومن غير الدخول في اعتبار ما إذا لم يكن الحلم بمجتمع «طبيعي» غاية في الانحراف، نكتفي بالتذكير بأن الأمر لا يعدو أن يكون حلماً. لأنه ما من أحد يقدر أن يقول ما يمكن أن يكون عليه مجتمع مريض ومجتمع معافى، في حين يعرف كل إنسان كيف يميز بين مريض وصحيح. ففي المادة السياسية، يقدّم المراقِب معايير «الطبيعي»؛ ومعايير العضوي تترافق والجسم المراقب..

ويحدث أن يساعد تقدم المعرفة على رقي معرفتنا بعجزنا، كما أن علماً أفضل بالظواهر السياسية لا يعدنا بالتمكن من السيطرة على ظواهر القدرة أو السلطة أو التجسيد، ولا التقليل من سلطان صانعي المعجزات أو اختصار عدد مرسلي

الأمطار. أفلا يجد علم الأجسام السياسية نفسه مجرّداً من كل سلاح أمام موضوعة تجرّد علم الاجرام الفلكية؟ وقد يكون هناك في هذه الحالة بعض المتعة الجمالية في رؤية تواصل أحدث العلوم وأقدمها؛ وبعض المرارة أيضاً، وهي أكثر ركاكة، في ملاحظة أن لا يكون فرد في أوج المعرفة (وفق الترتيب التصاعدي في الصعوبة الناجمة عن البحث في العلوم) أقدر على تغيير سلوك جماعته الخاصة من فلكي على تغيير مجرى الكواكب بحساباته. وقد ارتفع التحليل النفساني المستمد من طب تجريبي إلى، أو تحوّل نحو، النظام الخاص بفلاكة نظرية. ومع كونه تسوية غير موثوقة بين علاجيّة وتفسيرية فإن له بعض الجدارة في الدفاع عن طموحاته الشفائية. فالمدافعون عن المكتسب الفرويدي يترافعون في فلاكة يحتمل أن تلعب بالنسبة إلى أنواع العُصاب دور الطبابة؛ والمشنّعون عليه يدينون نجامة مزوّدة بشكل لاإرادي بتأثيرات شفائية كالتي لجميع الطقوس السحرية. وسواء عزي ارتياح بعض المحلّلين إلى عمل الحقيقة أو إلى اعتقادهم بقول صحيح، فهناك واقع هو أن المحلّل ينجح أحياناً في التسلل بين نجوم النظام النفساني لمريضه ليريه بالأصبع مداراتها والأخطار الناجمة عن اصطدام بعضها ببعض، ويعلّمه كيف يتسلل بينها بدوره. وهناك بالنسبة إلى الأفراد علاجات نفسانية، بل علاجات على مستوى الجماعة، كما يرتاب في أن تكون المجتمعات ستعرف يوماً علاجات اجتماعية. وعليه فسيكون ارتياد اللاوعي السياسي أشد اجحافاً من ارتياد الآخر، لأنه لا يأتي بأيّ دواء ولا يَعِدُ بأيّ شفاء. وعلى العكس من ذلك، فإنه، وهو يبدّد وهمَ الأمراض الاجتماعية، يطلب كشف حساب مما هو شاذ على الطبيعي، أو من طرفي «البين بين». ويزيد الاستلاب الديني قدرتنا على التدخل السياسي، ويخفض الاستلاب الذهني قدراتنا الذهنية. فالأول ينشّط، والثاني يشوّش. وإذا كان الدين مرضاً وجب علينا معايشته؛ وقد يكون الشفاء موتنا. وهكذا يمكن أن تتخذ المحاولة هنا من سقراط حامياً وشفيعاً، لكنها لا يمكنها بالتأكيد أن تتخذ من «اسكولاب»[٦٢] هذا الشفيع. وهي تتوسل فقط الـ «إعرف نفسك بنفسك» دون إضافة أجنبية. وإذ كانت محض نتيجة لخلقية في المعرفة، فإنها تقتصر على توجيه التعليم السقراطي إلى الـ «نحن» (أنا المجتمعات) لـ «رؤية ما يجري». ولا فائدة من التأكيد بأنها لا تسمح لمعتنقيها باستشفاف كثير منَ العرفان الاجتماعي، من غير أن تضمن لهم كذلك محاسن عشبة الشوكران.

لقد طُرد رواد اللاوعي الفردي الأول من الجسم الطبي بوصفهم «مشعوذين»؛ وسيشغل النعت «رجعي»، في النظام النضالي، منصباً مماثلاً، ويستمد هذا الأخير معناه من وضعه في مقابل «تقدمي». وأشدد على أنه إذا كان للكلمات من معنى فمن الحماقة الكلام على «تقدّم» في المسلك السياسي. كما أن من الحمق الكلام على «تقدم» في السلوك الجنسي للبشر، بله في سقوط الأجسام. والأحياء يضعون الأزهار أمام رفات رجالاتهم العظماء، لينين ولنكولن وديغول وجوريس؛ وسيحلم رجال المستقبل خلال الليل، تحت تأثير التحريضات والإكراهات التي أثرت فينا، بأن يكونوا من اليمين أو من اليسار؛ ولن تتغير بعد غد، وبشكل محسوس، السرعة التي تسقط بها التفاحات على الأرض بتحوّل «رأسمالية الدولة الاحتكارية» إلى الاشتراكية التحررية الساعية للإدارة الذاتية. وليس على هذا الخط التطوري من رجعية ولا تقدم، بل هناك ما هو من الواقع وما ليس منه. فالذي هو من الواقع مثلاً الورود: يعبّر التصرف المتمثل في تغليف الميت بالحي، عن طريق إنكار ما ليس عضوياً، عن طبيعة الحاجة السياسية بأكثر مما تعبر عنها البرامج الانتخابية لكبار المحنّطين أو الذين جرى حرق جثثهم. ومما لا ريب فيه أن مفهوماً لا يمكن أن يكون بحسبه للبشرية في مستقبلها السياسي أكثر مما كان لها في ماضيها، ولا أن يكون فيه كذلك من معنى منطقي للقول بـ «ثورة سياسية» (إذا استبعدنا الفلاكة) أكثر مما للقول بـ «أن الرقم خمسة أزرق»- مما لا ريب فيه أن مفهوماً كهذا لا يمكن اعتباره تقدمياً. ولكنه قد يغتصب كذلك، وللأسباب ذاتها، طابع «الرجعي». لأن الأمر قد يكون خلطاً بين السياسي والمفهوم السياسي. وفي مكنة «نقد للفكر السياسي» أن يعني لي ما لا أستطيع عمله، لكن لا يستطيع أن يعني لي في حال من الأحوال ما ينبغي علي أن أعمله. فهو يعلن عن غير الممكن، ولكنه لا يصرح بالمأمول (ولا بالمرغوب فيه). وقد يتعرض أي كان لمخالفة معنوية جذرية حين يبحث عن مخطط لـ «وضع»، وفيما بعد، لـ «نهج».

إنني لا أملك المثل الأعلى عن أفكاري. ولا يملكه أصدقاء آخرون سوى أولئك الذين يشاركونني مثلي الأعلى أو يمقتون آرائي. وعلى هذا فإنه لا يشفي الغليل القول بأن المفهوم المعلن في هذا الكتاب لا يعجبني وأنه يصدّني في جفاء ويثير سخطي. وإني أصوغه لمجرد أنه يبدو لي الوحيد المطابق لمعطيات الملاحظة التوافرة، مع أنه يتعارض وجميع اهتماماتي العملية. ولكن هل يدافع عن قيمته الحقيقية كونه «لا نافعاً» ولا «سائغاً»؟ فمما لا ريب فيه أنه لا يكفي أن تكون نظرية ما غير مرضية لتكون حقيقية، ولكن المأزق الذي تضعني فيه قد يفضي إلى الافتراض بأن ما سيعلن هنا ليس بالتحديد «ايديولوجية». وهي لن تعود عليّ في الواقع بأي ربح، ولسوف تفقدني كل شيء، وإن «معارفي» الحاضرة لتصطدم

« بقناعاتي » وتبدو وكأنها تكذبها بشكل قاطع. ومع ذلك فإن المعرفة التي اكتسبتها عن الظروف الطبيعية الموضوعية لقناعة سياسية أو دينية لا تمنعني من الاحتفاظ بقناعاتي سليمة، بما فيها القناعة بأن المعرفة النظرية ليست في هذا الصدد عنصراً حاسماً. وإذا سمح لي بالعُجب (لكنني سبق لي أن طلبت الإذن) فإنني أود أن أقول على الفور ما يلي: « أنا على يقين من أن هذه النظرية صحيحة، وأعتقد أنها بلا نتيجة؛ وعاجزة في جميع الأحوال عن تقديم قاعدة سلوك إلى أي كان. ثم أنا واثق بأني على حق في اعتقادها كذلك ». وأوضح ما أقول.

ليس للمشكلة التي أطرحها هنا إطار (نوع من الكلام المؤطّر في اسفل الصفحة) « الايضاح » الطقسي الذي للمنظّر المتخلّي عن كل مسؤولية فيما يتعلق بـ « تصرفات بعض المستفزّين والمتنورين » الذين يعلنون بغير حق أنهم يتكلمون باسمه. ولا تخلو هذه اللعبة الحقيرة المدرجة في جدول أعمال السيطرة ويومياتها من الطرافة وحسب، بل تخلو كذلك من الجدّ. لأسباب كثيرة في طليعتها أنه ما من فكرة هي ملك خاص بـ « مفكر »: إنها تخصّ جميع الذين يستخدمونها، وهي نفسها ليست سوى مجموع استعمالاتها المفتوح أبداً. وكذلك فإنه لن يكون في وسع المشكلة التأطّر بإطار حياد الايضاحات الملازمة لعلم من العلوم (عزّة قد لا يكون في مقدور الطروح اللاحقة الطموح إليها بشكل صريح) في مقابل تطبيقاته المحسوسة. وما من إنسان إلا ويعلم أن دراسة كيماوية لمزيجات لاهبة يمكن تسخيرها لكل أمر: احراق معبد، أو « الرايخستاغ »، أو حدائق « التويلري »، أو « جان دارك »، أو الذات أو غابة « الأفارقة ». ولهذا لا يستخلص مما سبق أنه ينبغي محاكمة « لأفوزييه » بوصفه المتواطئَ المثقف مع « ايروسترات »[٦٣]، أو « غورنغ »، أو « لويز ميشال »[٦٤]، أو « كوشون »[٦٥]، أو « إيان پالاش »، أو آخر المهووسين بإشعال الحرائق في الصيف، في حين تبقى استعمالات النار المفيدة أو الضارة غريبة عن الـ « مذكرة عن الحرارة » التي في حوزة محصل الضرائب الزراعية المنكود الحظ. ومن لا يستهدف قول الخير بل قول الحق، ولا القيام بدور المُحاكِم بل بدور المستكشف، لا يستأهل هذا الافراط في التقدير ولا هذه الإهانة. إنه لن يرد على مادحي النظام القائم بقوله: « لا دور لي فيه » وإنما بقوله: « لا وجود لي فيه على الاطلاق » (ولا لكم، بنتيجة الأمر). فموضوع الايضاح غائب عن توضيحاته، وعليه لا يطالب سلفاً بحق مناقضة نفسه: يشير فقط إلى أنه ليس ملزماً أبداً بأن يطابق بين أفعاله ومدركاته، لأن من يلتزم بحركة إنسان غير الإنسان الذي ينظّر الشروط العامة للحركة. وينبغي إعزاز هذه الازدواجية، بشغف، وكأنها سلاح سري.

والواقع أن السؤال الحقيقي يتعلق بمعرفة ما إذا كان بالإمكان إعادة الشأن السياسي إلى السياسة، وإذا كان الجواب بالايجاب فكيف؟ ويستطيع مؤلف نقد من هذا النوع أن يجيب ببساطة: « أجل، ذلك ممكن مبدئياً، ولكن كيف؟ فليس عندي ما أقوله، وليس هذا من شأني ». ولا تقوم صعوبة الانتقال العملية مقام اعتراض نظري، وانما تقوم على الاكثر مقام اعتراض الإنسان العامل على النشاط النظري بحد ذاته. وبكلمة، من الممكن النظر في آن إلى المجتمع الخالي من الطبقات ومن « الدولة » على أنه مغامرة روبنسونية غير منطقية عقلانياً، وإلى النضال لقيام هذا المجتمع على أنه ضروري عملياً، مع أنه - أو لأنه - « لا يمكن تسويغه » منطقياً.

ويرجّع هذا السؤال بتضخيمه صدى اعتراض وُجّه إلي بكثير من الفطنة، من ناحية اليسار، بصدد « الكاتب ». « ان نموذجك النظري، نموذج الكاتب بوصفه مقوياً للسلطان وخادماً لـ « الأمير » - وسفيراً من الذين رسمهم « كارپا تشيو » - لا يفسح أي مجال للمثقف الثوري. ومعلوم أن كون عدد لا بأس به من الكتاب، على مر العصور، ومهما يكن الاسم الذي يسمّون به، لم ينهضوا بشؤون وظيفتهم مؤثرين التخلي عن السلطان، أو النضال بأسلحة غير متكافئة ضد القوى المهيمنة، باسم مجموعة أخرى من القيم، معلوم أن هذا أمر واقع. وهو واقع ثابت متماسك بما يكفي لتمكيننا من أن نرى فيه « واقعاً اجتماعياً » حقيقياً. وأنت لا تحلله. وعلى أقل تقدير، كان ينبغي أن يمنعك التعريف الذي تطلقه على مهنتك من كتابة هذا الكتاب أو غيره، لأنك تعرّف عن نفسك بنفسك « كاتباً ». واعترف مختاراً بحقيقة هذا الكلام تمام الاعتراف: فالحيوان المحب للتواصل مسوق في الغالب إلى تفضيل رؤية بلاغه مصوناً بكليته على أمثل إمكانات التواصل التي تضعها بتصرفه الطبقة المهيمنة في زمن معين. ولكن بما أنها مسلّمة، فهي غنية عن البيان. وإذ يرفض اتّباع منافعه المادية الموضوعية، أو بانتهاكه القاعدة الخاصة به، فإنه ليس في هذا المتمرد شيء من سمات البطل، وبدرجة أدنى شيء من سمات الإنسان غير السويّ. وكل ما يفعله هذا « السيّد كل العالم » هو أن يثبت لنفسه فرقاً نوعياً: القدرة على اختيار معسكر الخاسرين، أو بالحري، وكما سبق القول، اللعب بحيلة من صنعه لعبة الخاسر هو الرابح. ويتفق علماء الأحياء على أن يروا في الإنسان « أكثر الأنواع قابلية للتكيف بجميع البيئات » (جاك روفييه)، وأن قابليته للتكيف تتجلى في الثقافة التي هي

مجموعة استجابات تكيفية مع البيئة[٦٦]. لكن هذه المطاطية تضمن كذلك «ملكة عدم التكيف» التي تعرف ممارستها بالأخلاقية، والتي يمكن أن تذهب، تبعاً للظروف والأفراد، من التجهّم إلى الغضب، أو من المثير للسخرية إلى المهيب. «الموت مع الوقوف على القدمين ولا الحياة مع الجثو على الركبتين»: ليس أمراً غير ذي بال أن تعيد إلى الذاكرة هذا الشعار الخلقي الأسمى في أيامنا أمرأة مثل «پاسيوناريا»[٦٧]، في جحيم حرب أهلية (اسبانية). فهناك إذن بين الأنواع الحية نوع، نوع واحد فقط، ليست الحياة بالنسبة إليه قيمة سامية في جميع الظروف. وإذا لم يكن الاستعداد للتضحية عندئذٍ ملكة النوع البشري المخيفة، فقد يكون الملكة التي تجعل من «الإنسان العاقل» النوع الحيواني الوحيد الذي في مكنة أفراده أن يرتكبوا تجاه قواعد الحياة هذه الأفعال الفظيعة التي تسمى الأفعال الخلقية. وعندها يمكن ترجمة عبارة «حيوان سياسي» بـ «حيوان مسؤول»، أي جدير بتصرفات «بلهاء»، بالمعنى المزدوج، الأول أنها شاذة (في تفرّع من تفرعات علم الحيوان) والثاني أنها غير معقولة (أي خرقاء بيولوجياً).

وهناك في الأوضاع الحاضرة، وفي نصف الكرة التي نعيش عليها، سلالة تاريخية محظوظة بصورة استثنائية في مادة عدم التكيف والتصرفات الخرقاء: السلالة المناضلة التي تستخدم «التحرر الاشتراكي» في وقت واحد كلمة سرّ وخرافة حافزة، مَعْلماً ومثالاً أعلى). وحين نقول سلالة فمعنى ذلك أولاً ذكرى ونظام توريث ولغة مشتركة. والسلالة التي أتحدث عنها، للتوقف عند رجالاتها الذين يتفاهمون بالتلويح بالأعلام، تبدأ بـ «بابوف»[٦٨] ولا تنتهي بـ «جوريس»[٦٩]. وهناك بالطبع أسر أخرى تشرّف الجنس أيضاً، وتثير تقزّزه كذلك، في أزمنة أخرى (ما يجعل الواحد ممكناً يجعل الآخر محتّماً): الكاثوليكية، والمسلمة، واليهودية، والبروتستانتية، والداعية للسلام، الخ... ولكن لما كانت عشيرة الاشتراكيين هي التي سمحت لي الصدفة أحياناً بمقاربتها، فقد جعلت منها، وسأجعل، مرجعي، وقد أجرؤ على القول منتاي، أمس واليوم وغداً. وإذا لم يكن لنا من خيار إلا بين إخلاصات متماثلة في لامعقوليتها، فهاكم إخلاصي الذي لن أبدي أية رغبة في تفسيره. ومنذا الذي يستطيع ذلك؟ لماذا اختار «بابوف» المقصلة؟ و«بلانكي»[٧٠] زنزانة مدى الحياة؟ و«جوريس» أن يدير ظهره لباب المقهى؟ لماذا اختار «تروتسكي» الوعظ في الصحراء؟ لأنه كان قد قهر سياسياً على يد ستالين. ولكن لماذا اختار أن يقهر بدلاً من أن يطلب الأمان بالتحالف، كما فعل الآخرون، مع الأكثرية؟ ولم اختار «ايبوفيه» العظيم الانتحار؟ و«بوليتزر» و«كاڤاي» كوكبة الإعدام النازية؟ و«اودان» التعذيب الفرنسي؟ و«تشي» الذي لم يكن أحد من خاصته يحاربه النزول من الذروة إلى الأدغال والجوع وإنهاك القوى؟ ولماذا نرى اليوم بالذات في فرنسا مناضلين منفيين، رجالاً ونساء، يتركون الأولاد ورغد الحياة ليعودوا إلى أوطانهم، مستبقين موتاً غفلاً، يكاد يكون مؤكداً، موتاً ليس كثيرون واثقين من جدواه؟ في الوقت الذي لا يكرههم على ذلك شيء ولا إنسان؟

والمنظّر الذي قد يستطيع الإجابة على هذه الأسئلة يتمكن من النفاذ إلى دائرة اختصاص الفعل التاريخي. لكن مزية مثل هذه الإجابة أنها لا يمكن أن تصاغ نظرياً دون أن تصبّ في تشدّقات غير محتشمة. وكما أن الجمالي يبدأ وينتهي بالعمل الفني، فإن الخلقي يبدأ وينتهي بالعمل. وليس من عمل إلا بالمفرد، ولا من خطاب إلا في العمومي. فالاخلاقية والعقل الأول هما بهذا المعنى كالنار والماء. ويقدم «نقد للفكر السياسي» ملاءمات بلا نتيجة بينا يقدم تلاحق الممارسات السياسية نتائج غير ملائمة. وإن خلقية من الخلقيات، مهما تكن، لتدمر نفسها بنفسها حين تتخذ شكل نقد، مشيرة إلى ما لا يمكن حصره كحالة استثنائية في شمول برسم الاكتشاف (بوساطة ما كان «كانط» يدعوه حكماً مفكِراً)، ولا مستنبطة من شمول سبق تعيينه (بوساطة حكم قاطع). وفي موضوع السلوك تتقدم القدوة على القانون وتختلط القاعدة بالاستثناء، مانعة بذلك كل محاكاةٍ أو نسخ آلي. ومثاليّ إلى أرفع حدود المثالية هو العمل الذي يصمد أمام الامتحان الأصم للامعقولية. فتصرّف بشكل يتعذّر معه تماماً أن ينظر إلى الحكمة من عملك وكأنها قانون شامل! وإنه صحيح على هذا أن الكلام ليس ممكناً إلا في اللاأساسي، وأن في كل عمل، من الأعمال التي تدعي خلافاً للأصول بطولية، شبه نداء إلى الاستنكاف الخطابي يضع العقل في مواجهة حدوده الخاصة. والصمت هو إمضاء الاخلاقية، أرض السرّ التي يدعى فيها أقبح الفحش ثرثرة. وهذا ولا ريب مصدر الغثيان الذي يصيبنا في كل مرة نسمع فيها مقالة عن هذا الذي لو وجد عند المتكلم لجعل كلامه غير ذي جدوى: الإحساس بالقيم.

وموجب التحفظ المفروض على النظرية يدعو إما إلى التكتّم وإما إلى العمل الفني، بل إلى الاثنين معاً. فلندع أحدهما يقتفي أثر رجُله على الطريق، ولنتذكر أن للفن الذي يصهر الحس في أشكال حساسة ملكة القول دون إرادة القول، وأنه يحفز على التفكير خيراً مما تفعل أية فكرة مجرّدة. وعلى هذا تكون الرواية والفيلم والفيديو مؤهلة لملامسة شواطئ

التحدي التي يدوّن عندها عمل ما، هذه السلسلة من المشاهد البائسة التي تسمح، حسبما يقول «براك»، بالاحتفاظ بالأمل. ويبدو العاملون في السينما، والرسامون، ورواة الأخبار، والموسيقيون، وجميع صاغة الفكر بالصور الذين يعملون من دون مدركات ولا قوانين، والذين يعتبر كل عمل من أعمالهم فريداً في نوعه، أحسن تسلّحاً من الفلاسفة لفهم الناس العاملين، هؤلاء المجانين الذين يؤول إليهم مستودع الإحساس، والذين يهلكون، من أجل انقاذه، واحداً بعد آخر، تتلقفهم الهاوية التي تفصل بين العقل والعمل السياسي. ولا تُحسن النظرية سوى التعبير عن طبيعة الأشياء، وليس في الطبيعة موسيقى. فالأشياء تحدث جلبة، وأما الأصوات فلا تصدر إلا عن الإنسان.

«وما لا يستطاع القول فيه ينبغي كتمانه» (ويتنغشتاين).

كانون الثاني/ يناير ١٩٨١.

هوامش

(١) وهو خصام قام بين البابوات والأباطرة الجرمانيين حول تنصيب الأساقفة وكبار رجال الكنيسة واستمر من العام ١٧٠٤م حتى العام ١١٢٢م. (المترجم)

(٢) «الزمن والسياسة»، في «الأزمنة الحديثة»، نيسان (ابريل) ١٩٧٠. و«مذكرات برجوازي صغير بين نارين وأربعة جدران» (لوسوي، ١٩٧٥). (هذا الأخير ترجمه الدكتور سهيل ادريس ونشرته دار الآداب- المترجم).

(٣) فيلسوف الماني من مواليد ١٨٨٥، استهوته الاشتراكية في سن مبكرة، ونشر عام ١٩١٨ كتاباً عن «الفكر الطوباوي». نفي إلى الولايات المتحدة في عهد النازية، وعاد فاستقر بعد الحرب في ليبزيغ وتابع أعماله عن الدور الاجتماعي للطوباوية بوصفها مفهوماً شاملاً لمستقبل المجتمعات التاريخي. (المترجم).

(٤) جوزيه مارتي، كاتب وشاعر كوبي (ولد في هافانا عام ١٨٥٣ ومات في دوس ريوس عام ١٨٩٥). عاش بسبب آرائه الثورية في المنفى حيث أنشأ الحزب الثوري الكوبي. وقتل على رأس جيش التحرير في معركة دوس ريوس. ولأعماله وآرائه دور أساسي في وعي الشعوب الاسبانية- الأميركية، وتحرير أميركا اللاتينية. (المترجم)

(٥) سياسي وكاتب وفيلسوف روماني من أصل ايبري (ولد في قرطبة سنة ٤ قبل الميلاد وتوفي سنة ٦٥م في روما). فلسفته اخلاقية بشكل حصري، ومقالاته تدعو الإنسان إلى امتلاك زمام نفسه. (المترجم)

(٦) ثائر مكسيكي فلاح من أصل هندي كان يدعو إلى إعادة الأرض إلى أصحابها الأول. مات عام ١٩١٩ على يد الرئيس كارنزا. (المترجم).

(٧) ثائر من نيكاراغوا على نظام الرئيس سوموزا الديكتاتوري. وقد تأسست مؤخراً حركة ثورية تحمل اسمه (الساندينية) (المترجم)

(٨) كاتب لاتيني مسيحي (ولد في قرطاجة بين ١٥٠ و١٦٠م. ومات فيها عام ٢٢٢م على ما يظن) مشهور بعنف اسلوبه وصرامة تعاليمه. وقد تبنى في أخريات أيامه آراء «مونتانوس» الذي يُعتبر نبيّ فرقة مسيحية منسوبة إليه، والذي كان يبشر بتفوق النبوة على التراتبية الكنيسة وبالقيام الوشيك لأبرشية «پاراكليه» (وقد أسسها الكاهن «آبيلار» عام ١١٢٩م وأهم مبادئها اصلاح الكنيسة)، وبطلب الشهادة. (المترجم).

(٩) عالم اجتماع الماني (١٨٦٤ - ١٩٢٠م). له دراسة شهيرة بعنوان «الأخلاقية البروتستنتية والفكر الرأسمالي». وقد بدأ حياته الفكرية متأثراً بالتحليلات الماركسية، ثم حاول فيما بعد أن يطبق على العلوم الاجتماعية طريقة جامعة شاملة، ساعياً إلى إقامة «نموذج مثالي» لكل حقبة تاريخية، مشدداً على سياق العقلنة المميز للعالم الحديث. (المترجم)

(١٠) مصلح ديني من أصل فرنسي (ولد عام ١٥٠٩م في پيكارديا) عاش قسماً من حياته في سويسرا (ومات في جينيف عام ١٥٦٤م) حيث شارك في تحرير «المراسيم الكنيسة» التي اصبحت نظام كنيسة جينيف المُصلحة، وأعاد تنظيم أكاديمية المدينة التي سرعان ما غدت مركزاً جامعياً ذائع الصيت. (المترجم).

(١١) فيلسوف وعالم اقتصاد فرنسي (١٧٦٠- ١٨٢٥م). يعتبر مبشراً بانهيار «النظام القديم» وقيام مجتمع صناعي يعهد بإدارته إلى الصناعيين (أي المنتجين) وتتوافق فيه تلقائياً مصالح رؤساء المؤسسات الصناعية ومصالح العمال. (المترجم).

(١٢) فيلسوف وعالم اقتصاد فرنسي (١٧٧٢ - ١٨٣٧م). انتقد المجتمع الصناعي البورجوازي، وهاجم السانسيمونية، وبشر بقيام مجتمع يكون في المركز منه جماعة صغيرة من العمال متشاركين في نوع من تعاونية مساهمة. ولم يقدر لهذا المشروع الطوباوي أن ينجح، لكن قيّض لآراء فوربيه بعض المريدين. (المترجم).

(١٣) اشتراكي فرنسي (١٧٨٨ - ١٨٥٦م) بشر في روايته الفلسفية «الرحلة إلى ايكاريا» (١٨٤٠ و١٨٤٢م) بشيوعية سلمية طوباوية. (المترجم)

(١٤) شاعر وقصاص وناقد أميركي (١٨٠٩ - ١٨٤٩م) طبعت فكرة الموت- نظراً لفقده أبويه وهو يافع- اعماله، كما طبعت مجرى حياته التي حفلت، رغم قصرها، بنتاج غزير جداً. (المترجم).

(١٥) حاكم كاريا (من ٣٧٧ إلى ٣٥٣ قبل الميلاد، وهذه السنة الأخيرة هي سنة وفاته). اشترك في الثورة على اردشير الذّكور (أي صاحب الذاكرة) ملك الفرس (من ٤٠٤ إلى ٣٥٨ قبل الميلاد)، واستقل بحكم بلاده التي جعل عاصمتها «هاليكارناس». (المترجم).

(١٦) منطقة ساحلية في جنوب غرب آسيا الصغرى كانت باديء الأمر مستعمرة فينيقية ثم عمرها الإغريق ليأخذها منهم الفرس ويعهدوا بحكمها إلى أعيان من سكانها الأصليين (موزول وارتيميز). وفي عام ١٣٣ قبل الميلاد اصبحت تابعة لروما. (المترجم).

(١٧) عاصمة «كاريا» في عهد «موزول»- وهي تعرف اليوم بـ «بودروم» في تركيا- وفيها ضريحه الذي أقامته له زوجه وأخته في آن ارتيميز الثانية، وهو أحدى عجائب الدنيا السبع. (المترجم).

(١٨) مقابل **ismes** بالجمع في الفرنسية، وهي اللاحقة- أو الكاسعة- التي تفيد النسبة، كـ **Stalinisme** نسبة إلى ستالين مثلاً. (المترجم).

(١٩) عاصمة جمهورية كوريا الديمقراطية (الشمالية). (المترجم).

(٢٠) عاصمة زائير (كونغو كنشاسا سابقاً) وكانت تسمى حتى عام ١٩٦٦ «ليوپولدڤيل». (المترجم).

(٢١) هي في الفرنسية من مقطعين «**Sacré**»، وفي العربية من ثلاثة «مقدس». (المترجم)

(٢٢) **Hiératisme**، من **Hiéros** اليونانية، ومعناها «المقدس»، وهي أولى المصادفات عند هوميروس (قبل المسيح بتسعمائة سنة).

(٢٣) شاعر لاتيني (٩٨- ٥٥ قبل الميلاد) أخذ على نفسه أن يحذف من الوجود الخوف من الآلهة، هذا الخوف الذي هو سمّ للفكر الإنساني، بتقديم تفسير

مادي للكون مفاده أن الأشياء والكائنات الحية تتركب من مزيج من ذرات المادة. (المترجم).

(٢٤) سياسي وخطيب لاتيني (١٠٦ - ٤٣ قبل الميلاد) اشتهر ببلاغة غدت نموذجاً للبلاغة اللاتينية. وقد حاول في مقالاته ومعالجاته الفلسفية أن يوفق بين مختلف المذاهب (الابيقوري، والرواقي، والأكاديمي) ليستخرج منها خلقية عملية تنسجم مع متطلبات «المدينة». (المترجم).

(٢٥) تطلق هذه التسمية على القرن الثامن عشر الميلادي. (المترجم).

(٢٦) جماعة من الرعاة الرحّل كانوا قديماً منتشرين في المنطقة الغربية من أفريقيا الجنوبية، وهم مقيمون اليوم في الجزء الجنوبي من جنوب غرب أفريقيا. والهوتانتو متعددّو الزوجات، وقد لا يزيد عددهم على عشرين ألف نسمة. (المترجم).

(٢٧) بحار فرنسي (١٧٢٩ - ١٨١١م) قام برحلة حول العالم (١٧٦٦ - ١٧٦٩م) فاجتاز مضيق ماجلاّن وقطع المحيط الهادي حتى وصل إلى تاهيتي (في بداية نيسان ١٧٦٨م)، واكتشف مجموعة جزر جنوبي شرقي غينيا الجديدة وأطلق عليها اسم «لويزياد». (المترجم).

(٢٨) بحار انكليزي (١٧٢٨ - ١٧٧٩م) قام بثلاث رحلات في المحيط الهادي تمّ له في آخرها الوصول إلى المحيط المتجمد الشمالي (١٧٧٦ - ١٧٧٩م) عبر مضيق بيرنغ، وقتل على أيدي سكان جزر ساندويش. (المترجم).

(٢٩) فيلسوف وعالم من المدرسة الايونية (٦١٠ - ٥٤٦ ق.م). وقد حاول تفسير الكون بجعل المادة اللامتناهية الخالدة مبدأ كل العناصر ومبدأ كل الكائنات المتناهية. (المترجم).

(٣٠) فيلسوف وباحث فرنسي (ولد في بواتييه ١٩٢٦م). تمثل دراسته «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، التي ظهرت عام ١٩٦١م تطوّراً للأفكار بوصفها خاضعة لمجموعة من التغيّرات (يغدو «المجنون»، المرسل من الله في نظر ثقافة العصر الوسيط، كائناً هارباً من قاعدة العقلانية). وقد جاءت دراسة «مولد العيادة، بحث يتتبع آثار النظرة الطبية تاريخياً» (١٩٦٣م) لتوسع المحاولة وتحدد مشروع النهج الذي ينتظم كتابات المؤلف. وهو مشروع تحليل حقل «الأشياء المقولة». وما العنوان الثانوي «الكلمات والأشياء» (١٩٦٦م) سوى «بحث في آثار العلوم الإنسانية». وفي هذا الكتاب الهامّ يعتبر المؤلف المعارف الخاصة بالإنسان، من علم الحياة إلى علم النفس واللغة والاقتصاد، نتاج تحوّلات تقلب رأساً على عقب نظام المعرفة، وتخلق مجموعة من الأبحاث العلمية. النقدية تحدّد نموّ المعارف وشروط هذا النموّ في جميع الحقول. (المترجم).

(٣١) الرفاق في اللغة الإسبانية.

(٣٢) تلّة واقعة غرب مدينة باريس قتل فوقها رمياً بالرصاص أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة فرنسي على يد الألمان بين ١٩٤١ و١٩٤٤م. ومنذ عام ١٩٦٠م أخذ الفرنسيون يحتفلون بيوم وطني للمقاومة يعيد ذكرى أولئك الشهداء. (المترجم).

(٣٣) منبسط باريسي يشرف عليه برج «ايفيل» كان مسرحاً لاعياد الثورة تارة ولمظاهراتها الدامية تارة أخرى: (المترجم).

(٣٤) ماريشال فرنسا الذي دخل باريس على رأس الكتيبة المدرعة الثانية واستسلمت إليه الحامية الألمانية، ثم حرّر ستراسبورغ في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٩٤٤م. (المترجم).

(٣٥) المقصود ثورة ١٧٨٩ الفرنسية. (المترجم).

(٣٦) المقصود ضحايا الأفران النازية. (المترجم)

(٣٧) المقصود حركة المقاومة الفرنسية للاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية (المترجم).

(٣٨) للحزب الشيوعي الروسي. (المترجم).

(٣٩) الحركة الطلابية الفرنسية المعروفة. (المترجم).

(٤٠) في فرنسا طبعاً. (المترجم).

(٤١) بطل ابدعه هنري مونييه (ومثل شخصيته على المسرح) ليرسم صورة هزلية للبرجوازي الفرنسي الراغب في متابعة تطور عصره، المقتنع بأنه يملك المعارف في كل الأمور. لكن «برودوم» هذا يبقى في جميع مساعيه ومحاولاته أخرق، ملتزماً بالأعراف، مغرماً باطلاق الحكم والأمثال. (المترجم).

(٤٢) نقلاً عن «في بلاد السوفيات»، منشورات «ارشية»، (باريس ١٩٧٩)، ص ٥٦.

(٤٣) صحافي وكاتب بريطاني من أصل بولوني (توفي في روما عام ١٩٦٧) كان عضواً في الحزب الشيوعي البولوني ثم طرد منه عام ١٩٣٢، ولجأ عام ١٩٣٩ إلى انكلترة حيث عمل في عدة صحف من بينها (الاكونومست والاوبسرفر) ونشر عدة كتب في التاريخ السياسي منها «ستالين، سيرة حياة سياسية» (١٩٤٩) و«تروتسكي» وهو سيرة حياة في ثلاثة مجلدات (١٩٥٤ - ١٩٦٣). (المترجم)

(٤٤) أول كوكب اصطناعي اطلقه الروس (المترجم)

(٤٥) «انتقاد الأسلحة» (الجزء الأول والثاني)؛ «مقابلة مع سلفادور الندي عن الوضع في شيلي».. «حرب انصار «تشيه [غيفارا]. (١٩٧١ - ١٩٧٤).

(٤٦) من «مقالة الطريقة» [لديكارت] الجزء الثالث.

(٤٧) تقع هذه الجبال في أميركا الجنوبية، وهي ذات طبيعة بركانية وهضاب ضيقة جافة في أكثرها. (المترجم).

(٤٨) أنظر مقابلة مع مايكل لوي في «النقد الشيوعي»، رقم ١٠، المجلة النظرية لـ «الرابطة الشيوعية».

(٤٩) أنظر «جورج هوپت» و«مايكل لوي» و«كلودي ڤيّ»، «الماركسيون والمسألة القومية» (١٨٤٨ - ١٩١٤). منشورات ماسپيرو، ١٩٧٤. ففي ١٩١٨ نشر ستالين سلسلة مقالات بعنوان «المسألة القومية والديمقراطية» ابدى لينين لغوركي دهشته لها.

(٥٠) ترجمة **étatique** نسبة إلى «دولة» لا إلى «دول»، وهو ما يخص دولة بعينها لا مختلف الدول. (المترجم).

(٥١) نسبة إلى بروميثيوس إلّه النار الذي يرمز إلى الحضارة البشرية الأولى. (المترجم)

(٥٢) سفسطائي يوناني (٤٨٥ - ٤١١ق.م.) أكثر ما اشتهر به عبارته (وقد انتقدها أفلاطون) «الإنسان مقياس كل الأشياء» التي تضع التعددية في وجهات النظر مقابل الفكرة القائلة بالحقيقة المطلقة. (المترجم).

(٥٣) أفلاطون، «بروتاغوراس»، ترجمه إلى الفرنسية كروازيه وبلوندان. (منشورات **Belles Lettres**، باريس).

(٥٤) هو أخو بروميثيوس. تزوج بالرغم من نصيحة أخيه «پندورا» الجميلة، أول امرأة وجدت على الأرض، التي ابتدعها «هيفايستوس» (إلّه النار والمعادن وابن كبير الآلهة زيفس) على صورة الآلهات، وأرسلها زيفس عقاباً للبشر الذين جلب لهم بروميثيوس النار التي سرقها من السماء، فكان أن نشرت في الأرض جميع الآلام. (المترجم)

(٥٥) أنظر الحاشية السابقة. (المترجم).

(٥٦) إلهة الحرب والحكمة، كان أبوها زيفس قد ابتلع أمها في ساعة مخاضها فخرجت أثينا من جمجمته التي شقها ابنه هيفايستوس بضربة فأس. (المترجم).

(٥٧) بطل سومري، وملك «أوروك»، وأحد الأشخاص الرئيسيين في الميثولوجيا السومرية البابلية. حارب العملاق «همبابا» هو وصديقه «انكيدو»، واعلنته الإلهة «اينانا» بطلاً ولكنه رفض ما اغدقته عليه فانتقمت منه بأن ارسلت له ولصديقه «ثوراً سماوياً» فانتصرا عليه. وعندئذٍ أماتت

صديقه «انكيدو» فحزن عليه حزناً شديداً وانطلق باحثاً عن الخلود الذي وجده في نوع من النبات البحري، ولكنه ما لبث أن سرقته حية منه. ولدى عودته استسلم لشرط الموت. (المترجم).

(٥٨) في هذا إشارة إلى الصخرة التي حاول «سيزيف» في الأسطورة الإغريقية دحرجتها صعداً نحو ذروة الجبل. (المترجم)

(٥٩) قد يكون من الممكن أن يستخلص من الاعتبارات السابقة تنضيد مخالف بشكل جازم لشتى الزمانيات التي يبدو من المناسب توضيحها، منذ قيام «فرنان بروديل»، داخل المجموعات العملية الكبرى: في الأسفل تاريخ الإنسان شبه الساكن في علاقته بالمحيط الطبيعي؛ وفوقه تاريخ الزمر الإجتماعية ذو الوتيرة البطيئة؛ وعلى السطح التاريخ الذي يكتفي بسرد الوقائع سرداً متقطعاً. لكن التوضيح الذي نقترحه لا يصلح إلا داخل الطبقة المتوسطة، طبقة الزمن الاجتماعي، دون أن يؤثر مباشرة في الزمن الجغرافي أو في الزمن الفردي. وبهذا المعنى فإن نظامي فك التسلسل التاريخي لا يتعارضان، بل يمكن أن يتكاملا. ومن جهة أخرى فإن أي بحث واقعي في حقبة تاريخية معينة لا يمكن أن يعتمد الاستنباط (ذا النمط الفئوي). ان في وسعه على الأكثر الإفضاء إلى بعض النتائج الجلية ومواجهتها بمفهوم شامل للتاريخ الاجتماعي.

(٦٠) مقابل **dé - finition** التي تعني «التعريف» في حال كتابتها من دون تفريق بين السابقة «dé» التي تعني النفي وسائر مقاطع الكلمة، وما ترجمناه من اللاكمال في حال كتابتها بالشكل الذي كتبه بها المؤلف للعب على المعنيين. (المترجم).

(٦١) إله الطب في الديانة الرومانية. (المترجم).

(٦٢) أحد سكان «ايفيز» على ساحل آسيا الصغرى الغربي، قام عام ٣٣٦ ق.م. باحراق معبد «ارتيميز» إحدى عجائب الدنيا السبع ليشتهر اسمه. (المترجم).

(٦٣) ثائرة فوضوية فرنسية (ماتت عام ١٩٠٥ في مرسيليا) انخرطت في عدة حركات منها الاشتراكية الدولية الأولى. (المترجم).

(٦٤) فرنسي رأس المحكمة التي اصدرت الأمر باحراق «جان دارك». (المترجم)

(٦٥) رسام ايطالي من البندقية (١٤٦٠ - ١٥٢٦م) اشتهر بلوحاته التي تمثل حياة القصور في مدينته، ومنها لوحة بعنوان «قدوم السفراء». (المترجم).

(٦٦) «من علم الأحياء إلى الثقافة»، القسم الثاني: «الانبثاق البشري» (باريس ١٩٧٦، منشورات «فلاماريون».

(٦٧) هي دولوريس ايباروري المعروفة بـ «باسيوناريا»، مناضلة إسبانية وُلدت عام ١٨٩٥ وعضو في الحزب الشيوعي، ومن أنصار المغالاة في الكفاح، وخطيبة مفوّهة. لجأت بعد سقوط الجمهورية الإسبانية إلى موسكو. (المترجم).

(٦٨) ثائر فرنسي (١٧٦٠ - ١٧٩٧م) كتب في مشكلة توزيع الأراضي والقانون الزراعي. قضى جزءاً من «عهد الإرهاب» في السجن، ثم انشأ (١٧٩٣) جريدة «لوتريبان دي بويل» التي عرض فيها نظرياته الشيوعية. تحالف مع «روبسبير» (١٧٩٥م) وفي (١٧٩٦م) حاول مع مريديه قلب نظام «المديرين». وفشلت المحاولة فاوقف وحكم عليه بالإعدام. (المترجم).

(٦٩) سياسي وفيلسوف ومؤرخ فرنسي (١٨٥٩ - ١٩١٤م). انتخب نائباً عن الإشتراكيين (١٨٩٣م) وانخرط في حزب العمال الفرنسي وناضل من أجل وحدة الحركة الاشتراكية. وهو منشيء جريدة، «لومانيتيه» (١٩٠٤م). وإذا كان قد تبنى نظرية ماركس في المادية الاقتصادية وتناقض الطبقات، فقد كانت اشتراكيته ليبرالية ديمقراطية. (المترجم).

(٧٠) ثائر ومنظّر اشتراكي فرنسي (١٨٠٥ - ١٨٣١م) دخل السجن عدّة مرات كان آخرها على يد حكومة فرساي، ولم يُعفَ عنه إلاّ عام ١٨٧٧م فاستعاد نشاطه كمنظّم للحركة الاشتراكية حتى آخر أيام حياته. (المترجم).

الفهرس العام للسنة الإحدى والثلاثين لـ « الآداب » ١٩٨٣

١ - فهرس الموضوعات

الموضوع	العدد	الصفحة
أ		
أبجدية الموت والثورة (قصيدة)	١٠-١٢	٢
أربع غرف (قصيدة)	٦-٩	٥٤
أدب الخيال العلمي	١٠-٢	٤٥
الأدب والمسرح والسينا في الوطن العربي:		
بوصفها علامات تغيُّر ثقافي	٥-٦	٩٣
الأدب والمسرح في أوروبا الغربية	٤-٥	٩٩
إلا بالديموقراطية	١-٣	١٥
أزمة اختيارات سياسية	١-٣	٧١
أشجار الجندي (قصة)	١٠-١٢	٣٣
الأغنية القصيرة	١٠-١٢	٦٣
اشكالية الهويّة- الحاجة	١-٣	١٨
الإنسان العربي وأزمة العصر	٦-٩	٢
انطلاقاً من الواقع الجديد	١-٣	٨
أن نكتب بشجاعة وصدق	١-٣	٨١
إنها مدينتي (قصة)	٦-٩	٥١
ب		
بأسمائها الأرض تبصر (قصيدة)	٦-٩	٧٢
البحث عن مكان للجثة (قصة)	٦-٩	٦٠
البحث عن قصيدة البيت الواحد	٦-٩	٣٨
بورتريت	٦-٩	٣٤
بين الإحيائية والعبثية	١-٣	٣٨
ت		
تداعيات يومية عن الشوق والمنفى (قصيدة)	١٠-١٢	٥٠
تشبُّثاً بالحلم الحضاري	١-٣	١٠
تغييب المثقف عن الساحة	١-٣	٥٥
تصوّر أوروبا الغربية للحضارة العربية	٤-٥	١١
التنمية الإجتاعية: أهذا ما يتمنّله		
الغرب بعد الحديث	٤-٥	٤٩
تعقيب على بحث فيرغوت:		
اقتراحات لتجديد الفكر الإسلامي المعاصر	٤-٥	٧٧
ث		
ثقافة طمس الحقائق	١-٣	٤٤
الثقافة العربية الجديدة ودورها	١-٣	٢٥
ج		
« الجبل الصغير » وفن كتابة القصة	٦-٩	١٣
جدلية الفضاء الاجتماعي في مجموعة « الأفواه »	١٠-١٢	٥٧
الجذور (قصيدة)	٦-٩	٦٦
ح		
« الحب له صور » لليلى العثمان	١٠-١٢	٥٤
الحضارة العربية بوصفها حضارة عالمية	٤-٥	٥٥
الحضارة العربية في عالمنا المعاصر: دلالتها		
في إطار مستقبل الحوار العربي الأوروبي	٤-٥	٤٢
الحضارة الغربية بعد الحديثة لأوروبا الغربية:		
أهمية الفترة الانتقالية للحوار الأوروبي العربي	٤-٥	٣٣
الحلم البرتقالي (قصيدة)	١٠-١٢	٤٤
حول « الثقافة العربية الجديدة »		
والجبل الصاعد	١-٣	٣١
خ		
خطاب الفكر وخطاب المال	١-٣	١٧
الخيّال (قصة)	٦-٩	٢٣
د		
دمعة أمل (قصة)	١٠-١٢	٥١
الدين والإحياء الروحي في الوطن العربي:		
تباعد أم لقاء مع أوروبا الغربية	٤-٥	٨٢
الدين والدنيوية في أوروبا الغربية:		
مستقبلها بالنسبة للحوار الثقافي مع العالم العربي	٤-٥	٦٨
ز		
الزوال (قصيدة)	٦-٩	٣٧
ص		
الصورة العربية للحضارة الغربية	١-٥	١٩
صورة الواقع العربي	١-٣	٥٢
الصمت العربي المتجانس	١-٣	٧٤
ع		
عش الوقواق (قصة)	١٠-١٢	٣٩
عن المعركة الثقافية	١-٣	٥٨
العلاقات بين الحضارتين العربية والأوروبية	٤-٥	٢
العودة إلى الديموقراطية	١-٣	٥٩
ف		
في أتون المعركة	١-٣	٧٣
في ذكرى جيل الناقد محمد النويهي	٦-٩	٧
في وجه التيئيس	١-٣	٦
ق		
قدر من الحرية	١-٣	٤٨
قراءة في رواية « حكاية بحار »	٦-٩	٦٤
قضية وجود الإنسان العربي	١-٣	٥٦
القيادة التي تعوزنا	١-٣	٨٢
قصيدتان (شعر)	٦-٩	٧٨
ك		
الكبش (قصة)	٦-٩	٦٩
كُنت معاصراً بوجه المتنبي	١-٣	٤١
كعود والحصان الطائر (قصيدة)	٦-٩	١٢
ل		
ليست هزيمة وعي أو ثقافة	١-٣	٦٤
ليسقط الفكر الإرهابي أولاً	١-٣	٣٦
م		
المثقب (قصة)	١٠-١٢	٣٠
المثقف العربي وتنظير القمع	١-٣	٦٦
المثقفون العرب ودور الزمامة	١-٣	٢١
محاولة لتوظيف الثقافة الإسلامية في تحقيق		
تغيّرات اجتماعية وسياسية في المجتمعات	٤-٥	٥٧
العربية		
المثقفون وصكوك البراءة	١-٣	٦٨
المثقفون ومشجب العجز	١-٣	٨٠
المثقفون ومعركة الوعي والتصميم	١-٣	٦١
المشروع الثقافي ومعركة الديموقراطية	١-٣	٦٧
ملاحظات حول الكتابة القصصية	٦-٩	٢٩
المهاجر والظلال (قصة)	١٠-١٢	٦١
المهزومون يتكلمون	١-٣	٥
مهات مثقفين جدد	١-٣	٧٥
مناقشات حول مشروع الدكتور حنفي للتجديد	٦-٩	٥٥
المناضل (قصيدة)	٦-٩	٥٩
معركة أدبية حامية	٦-٩	٧٤

ن

نحو ثقافة «بديلة» ١-٣ ٧٧
نحو جبهة ثقافية عريضة ١-٣ ٣٣
نقد العقل السياسي ١٠-١٢ ١٣
نيرودا .. هل عرفناه حقاً؟ ١٠-١٢ ٣٤

هـ

الهزيمة في لبنان وإعادة تقييم دور المثقفين ١-٣ ٤٦
هكذا نعم ببساطة ٦-٩ ٤٨

و

و.ب. ييتس مسرحياً ١-٣ ٨٨
وجه للريح وميلاد آخر ١٠-١٢ ٣٨
الوصايا ١٠-١٢ ٣٢
ولكننا لا نبدأ من فراغ ١-٣ ١٠١

٢ - فهرس الكتاب

أبو خالد - خالد
أبو المجد - الدكتور كمال ٤-٥ ٥٧
أبو النجا - أبو المعالي ١-٣ ٤٨
أبو شويشة - رضوان ١٠-١٢ ٦١
أبو نضال - نزيه ١-٣ ٥٨
أدونيس ١-٣ ١٧
أركون - محمد ٤-٥ ٧٧
الأمير - ديزي ١-٣ ٧٣

ب

الباب - حسن فتح ١٠-١٢ ٥٤
باستيد - فرانسوا ريجيس ٤-٥ ٩٩
بزيع - شوقي ١-٣ ٤١
البطرس - عاطف ٦-٩ ٦٢
بلعاوي - حكم ٦-٩ ٦٠
بوزاني - السندرو ٤-٥ ١١
بوزفور - أحمد ١-٣ ٧٠

ت

ترشحاني - عصام ١٠-١٢ ٤٤
التليسي - خليفة محمد ٦-٩ ٣٨

ج

جبرار جبرا ابراهيم ١-٣ ١٠
جعفر - محمد راضي ٦-٩ ١٢
١٠-١٢ ٣٢
الجنحاني - الدكتور الحبيب ١-٣ ٦٧
الجنيد - محمد الجنيد ١٠-١٢ ٣٠

ح

الحاج - عزيز ٦-٩ ٦٩
حجازي - أحمد عبد المعطي ١-٣ ١٥
حسين - رياض المصالح ٦-٩ ٥٤

خ

الخطيب - الدكتور حسام ١-٣ ٤٦
١٠-١٢ ٣٣
الخطيب - محمد كامل ٦-٧ ٥٥
١٠-١٢ ٣٣
خوري - الياس ١-٣ ٣٦
٦-٩ ٢٩
دوبريه - ريجيس ١٠-١٢ ١٣

ر

الرازحي - عبد الكريم ١-٣ ٦٦
الرباوي - محمد علي ٦-٧ ٥٩
ربيع - مبارك ١-٣ ٦٤
الربيعي - عبد الرحمن مجيد ١-٣ ٨١
الركابي - عبد الخالق ٦-٩ ٢٣
١٠-١٢ ٣٩

ز

زبادية - الدكتور عبد القادر ٤-٥ ٤٢
زنيبر - محمد ١-٣ ٥٩
زيادة - الدكتور معن ١-٣ ٨٢
زيدان - ابراهيم ٦-٩ ٧٨

س

السامرائي - ماجد ١-٣ ٧٧
٦-٩ ٧
سانتي - انريكو ماريو ١٠-١٢ ٣٤
السعيد - الدكتورة خالدة ٦-٩ ١٣
سويد - أحمد ١٠-١٢ ٣٠

ش

شمس الدين - محمد علي ١-٣ ٣٨

ص

صابر - الدكتور يحيى الدين ٤-٥ ٥
صايغ - ميّ ١-٣ ٥٦
صبحي - محي الدين ١-٣ ٥٢

ط

طافش - يوسف ١٠-١٢ ٣٨

ع

العالم - محمود أمين ١-٣ ١١
عبد الدائم - الدكتور عبدالله ٦-٩ ٢
عبد الرحمن - الدكتور أسعد ١-٣ ٣١
عبدالله - حسن ١-٣ ٤٤

غ

غلاب - عبد الكريم ١-٣ ٢٥

ف

فتح الباب - الدكتور حسن ٦-٩ ٦٦
فيرغوت - انطوان ٤-٥ ٦٨

ك

كريم - فوزي ٦-٩ ٣٤
كليب - سعد الدين ١٠-١٢ ٦٣

م

محمد - هيام ٦-٩ ٥١
مدني - الدكتور عز الدين ٤-٥ ٩٣
مصطفى - أحمد عنتر ١٠-١٢ ٢
مصطفى - الدكتور شاكر ١-٣ ٥
المقالح - الدكتور عبد العزيز ١-٣ ٢١
مقدسي - انطوان ١-٣ ٨
منصور - خيري ١-٣ ٧٤
٦-٩ ٣٧
منيف - الدكتور عبدالرحمن ١-٣ ٣٣
مورتمر - ادوارد ٤-٥ ٣٣
الموسوي - الدكتور محسن جاسم ١-٣ ٧٥
مينة - حنا ١-٣ ٥

ن

الناقوري - ادريس ١-٣ ٦١
نور الدين - الدكتور محمد ٦-٩ ٤٨
نيودينهو يجز - فان ٤-٥ ٤٩

و

وارهام - أحمد بلحاج آية ٦-٩ ٧٢
وصفي - رؤوف ١٠-١٢ ٤٥
الوقيان - الدكتور خليفة ١-٣ ٦٨
وناس - المنصف ١-٣ ٧١
١٠-١٢ ٥٧

ي

اليافي - الدكتور عبدالكريم ٤-٥ ٨٢
يوسف - سهام ١٠-١٢ ٥١